سلسلة التراث الإنجيلي

مسيحية الكتاب المقدس

خلاصة مختصرة ومبسطة لكتاب مبادئ الديانة المسيحية

بقلم جان كالفن

ترجمة القس / عبد الكريم كيرلس

نقحها نخبة من الخدام الإنجيليين

اسـم الكتـاب : مسيحية الكتاب المقدس
المؤلـــف : جان (يوحنا) كالفن
إعداد طبعة ثانية منقحة : القس ج ب وايلز
وتنظيم القس ب ر وود
أوجـزه وأعـده : بعض الخدام الإنجيليين
المترجـــم : القس / عبد الكريم كيرلس
مراجعـة وتنقيـح : نخبة من الخدام الإنجيليين
النـاشـــر: الرابطة الإنجيلية فى الشرق الأوسط
المطبعـــة : شركة الطباعة المصرية ٦١٠٠٥٨٩
رقم الإيداع بدار الكتب :١٦٨٥٧/٢٠٠٢



سلسلة التراث الإنجيلي

التراث الإنجيلي غني بالكتابات التي ظهرت في عصر الإصلاح الذي تم في القرن السادس عشر وكذلك الكتابات التي ظهرت في القرون التالية . ومن هذه الكتابات ما تُرجم إلى لغات كثيرة وشعر الناشرون بالحاجة إلى إعادة طباعته مرات ومرات لحاجة المؤمنين إليه . فهنالك كتابات لوثر وكالفن ومجموعة من كتابات قادة الماضي والحاضر للفكر الإنجيلي .

ويسر الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط أن تضع بين يدي القارئ العربي بعض تلك الكتابات بشكل مختصر ومبسط .

لعل الرب يستخدمها لبركة الكثيرين .

الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط

تقديم الكتاب

وُلد جان (يوحنا) كالفن لعائلة كاثوليكية فرنسية سنة ١٥٠٩ . وخلال دراسته الجامعية تخصص في المحاماة والفلسفة والمنطق ، كما كانت له ميول شديدة للدراسات الدينية واللاهوتية جعلته يتشكك في تعاليم الكنيسة والكهنة – هذا دعاه للإعجاب بالإصلاح الديني الذي قاده مارتن لوثر في المانيا ، خاصة وأنه أدرك سريعاً أن الكنيسة كانت فعلاً قد ابتعدت في تعاليمها عن الأسس والمبادئ الموحى بها في الكتاب المقدس .

دراساته العميقة للأسفار المقدسة قادته لقناعات راسخة بكفاية النعمة الإلهية في المسيح المخلص لإنقاذه من براثن الخطية ، وهكذا أصبحت له غيرة شديدة لكرامة الإنجيل ولحاجة الناس للحصول على الحياة الجديدة التي يهبها الرب على أساس عمل المسيح الكفاري .

تلك القناعات هي التي دعت يوحنا كالفن لمراجعة الكتاب المقدس بدقة ووضع خلاصة تعاليمه في كتاب " مبادئ الديانة المسيحية " الذي يعتبر أول سجل متكامل للاهوت المسيحي النظامي منذ عهد الرسل .

وهذا المجلد الضخم كان ومازال يتمتع بأهمية خاصة لمن يريدون التعرف على العقيدة المسيحية الكتابية ، والتي شاءت النعمة الإلهية وأعادت الكنيسة لها عن طريق الإصلاح الإنجيلي المبارك .

ويسعد الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط أن تقوم بإعداد نسخة عربية لهذا الكتاب القيم بصورته المبسطة والموجزة كما أعدها بعض الخدام الإنجيليين . ونحن على ثقة بأن فوائد روحية جمة ستكون من نصيب من يقوم بدراسته .

القس فيكتور عطاالله
المدير العام المؤسس
الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط

الجزء الأول

معرفة الله الخالق

الجزء الأول
معرفة الله الخالق

١ - الترابط الوثيق بين معرفتنا لله الخالق ومعرفتنا لأنفسنا

إذا أردنا الحصول على نعمة حقيقية ينبغي علينا أن نعرف أمرين : معرفة الله ومعرفتنا لأنفسنا ، ولكي نعرف أحد الأمرين جيداً يجب أن نعرف الأمر الآخر .

(أ) معرفة الله

لا يمكننا أن نفكر جدياً في أنفسنا دون أن نفكر كذلك في صانعنا وخالقنا الذي لم يهملنا ، بل هو مستمر في رعايتنا والعناية بنا ، ومنحنا إمكانات لا يمكن أن تكون من صنع أنفسنا . ومن المؤكد أننا لم نمنح أنفسنا نسمة الحياة . إن أشياء كثيرة في هذه الحياة قد أعطيت لنا ، وهذا يحتم علينا أن نتأمل ونفكر في ذاك الذي أعطانا . بل إننا نحتاج فوق ذلك ، بسبب فساد طبيعتنا أن نتوجه إلى الله التماساً لأمور أفضل ، فنحن نحتاج إليه لكي يعطينا حكمته الحقيقية بدلاً من جهالتنا ، وغناه الحقيقي عوض فقرنا ، وقوته مكان ضعفنا وبره الحقيقي عوض فسادنا .

(ب) معرفتنا لأنفسنا

لكي يكون لنا معرفة سليمة عن أنفسنا ، ينبغي أن نعرف الله ، ونعرف كيف نبدو في نظر الله وفي نور محياه . إن كبرياءنا البشري تجعلنا نظن أننا حكماء ومقدسين ، حتى ننظر إلى الرب وإلى كماله العجيب – مستوى القياس الوحيد – عندئذ نكتشف أننا مراءون نقنع بالتظاهر وكأننا أبرار دون أن يكون لنا بر الله الحقيقي .

إن الشر المحيط بنا يفسد حكمنا على الأمور ، لذلك ننظر إلى أمور بعينها على أنها صالحة مع أنها في واقع الأمر فاسدة ، بغض النظر عن أنها أقل فساداً من غيرها . كمثال لذلك ، يحدث أن ننقل بصرنا من اللون الأسود إلى الأصفر الفاتح ، فأعيننا المشبعة باللون الأسود ترى الأصفر الفاتح وكأنه أبيض . وهكذا يجب أن نعرف أنه في ضوء النظر إلى الله ، نرى برنا خطية ، وقوتنا ضعفاً ، وحكمتنا جهالة .

ولنتأمل رد الفعل الذي حدث لأولئك الذين تقابلوا مع الله . إن القديسين الذين أدركوا حضور الله بكامل وعيهم ، امتلأوا رعباً وذهولاً وحيرة . قال منوح

(والد شمشون) : " نموت موتاً لأننا قد رأينا الرب " (قضاة ١٣ : ٢٢) . وأحسّ إشعياء إحساساً شديداً بنجاسته ، فصرخ قائلاً : " ويل لي لأني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين " (إشعياء٦ : ٥) ، ولنقرأ أيضاً ما جاء في دانيال ٨ : ١٨،١٠: ١٦ ، ١٧ ومن هؤلاء نتعلم أن الإنسان لديه إحساس بعدم استحقاقه الشخصي عندما يُواجِه عظمة الله .

٢ ــ المعنى المقصود بمعرفة الله

أن نعرف الله لا يعني مجرد معرفة أنه يوجد إله . فالذين لا يحيون حياة التقوى ، لا يعرفون الله معرفة حقيقية . ما أقل ما يعرفه البعض عن الله ، لو أن معرفتهم له اقتصرت على أنه خلق كل الأشياء وأنه يحفظها كما هي . وحتى لو امتدت معرفة البعض الأخر إلى أن الله يحكم الجنس البشري بحكمته وعدله، ورعايته ، فإن معرفتهم لله تكون قاصرة أيضاً . إننا لن نعرف الله معرفة حقيقية إلا عندما نعرف ، علاوة على ما تَقَدّم ، إننا بدونه لا نحصل على حكمة أو برّ أو قوة أو صدق فكل هذه تُستمد منه وليس سواه . ما أحوجنا إلى أن نسعى إليه طلباً لكل شيء صالح ونقدم له الشكر . وحيث أن الله هو الذي صنعنا وهو الذي يحفظنا ، فيجب أن ندرك أننا له وأن حياتنا ملكاً له . وإن كنا له ، فإن أعمالنا يجب أن تتفق مع إرادته ، ويجب أن نبتعد كل البعد عن الخطية . ولا يليق أن نتجه إلى عمل الخير خوفاً من عقوبة فعل الشر ، بل نعمل الخير انطلاقاً من محبتنا لله وخوفنا من الإساءة إليه .

٣ ــ معرفة الله ثابتة في عقل الإنسان بالغريزة والفطرة

من حقائق الحياة التي لا جدال فيها ، أنه يوجد فكر ما عن " إله " ما في كُلّ عقلٍ بشري . إن الله هو الذي أعطى الإنسان يقيناً بهذا ، ومازال يعطي . وليس للناس أي عذر إذا لم يعرفوا أن الله موجود ، وحتى في حالة سجود بعض الناس للأوثان فإن هذا يثبت أنهم يفكرون في وجود إله ما أعلى منهم يستحق أن يتعبدوا له.

وعلى ذلك فالدين ليس اختراعاً ، كما يدعي بعض النقاد ، الهدف منه إخضاع الناس والسيطرة عليهم. لا ننكر أن بعض الحكام في الديانة الوثنية قد استخدموا آلهة لهذا الغرض ، لكنه ما كان في استطاعتهم أن يفعلوا هذا ما لم تكن هناك أفكار متأصلة مسبقاً في عقول هؤلاء الناس . وقد يَدّعي بعض الناس أنهم لا يؤمنون مطلقاً بوجود الله ، وقد يصل بهم الأمر أنه عندما تواجههم ظروف عصيبة تدفعهم إلى اللجوء إلى الله ، أي تدفعهم إلى الإيمان بوجود الله ، فإنهم يحاولون إبعاد

هذه الحقيقة عن أذهانهم ، لأنهم يخشون أن ينالوا ما يستحقونه من عقاب على أفعالهم الشريرة .

إن معرفة الله إذن ، ليست من الأشياء التي يتعلمها الإنسان في المدارس. بل هو يكتشف هذه المعرفة داخل نفسه ، ولا يستطيع أن يزيل هذه الحقيقة تماماً من نفسه ، مهما حاول ومهما بذل من جهد .

٤ – هذه المعرفة يعوقها ويفسدها الجهل والشر

لاشك أن الناس لديهم فكرة معينة عن وجود الله . لكن هذه الحقيقة لا يقدرها حق قدرها إلا قلة من الناس . ذلك أن بعض الناس يؤمنون بالخرافات ، والبعض الآخر يختار الشر عمداً وبعد تفكير . ولا نحسب أن هؤلاء مجرد حمقى بل هم في حالة تمرد ضد الله . وبعض الناس يفكرون ويتأملون في وجود الله ، لكن ليس لديهم الفكر السامي بالدرجة التي تليق به . إن هؤلاء الناس رغم كل وجهات النظر الخاطئة عن الله ، يظنون أنفسهم حكماء . لكن – كما يقول بولس– " بينما يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء " (رومية ١ : ٢٢) .

ويصف داود النبي أولئك الذين يطفئون النور الذي منحه الله لهم ، بقوله " قال الجاهل في قلبه ليس إله " (مزمور ١٤ : ١) . إذ يقول بعض الأشرار إنه لا يوجد إله ، بينما يسلك البعض الآخر وكأنه لا يوجد إله . وهؤلاء يصفهم داود النبي في مزمور ٣٦ بأن خوف الله ليس أمام عيون الأشرار وأنهم في طرقهم الشريرة يتملقون أنفسهم ، ويرضون غرورهم بتخيلهم أن الله لا يراهم . بل إننا نجد أن الذين يحاولون إبعاد الله عن قلوبهم ، كثيراً ما يُواجهون في نفس الوقت بالمعيار أو المقياس الداخلي للقضاء الذي وضعه الله في قلوبهم للحكم على أنفسهم، ألا وهو الضمير .

ويظن بعض الناس أنه لا أهمية لما يؤمنون به ماداموا يبذلون كل ما في وسعهم . لكن الله لا يتغير ومقاييسه الخاصة بالحق والباطل لا تتبدل بحسب ظروفنا وأهوائنا . وعلى ذلك يجب أن نعرف الله معرفة سليمة بالطريقة الوحيدة الصحيحة والا فإن وجهة نظرنا عن الله تكون خاطئة جداً ، وكان الأولى بنا ألا يكون لنا وجهة نظر على الإطلاق . إن الرسول بولس يقول في رسالته لأهل أفسس أنهم بدون إله ، لأنهم انحرفوا عن المعرفة الصحيحة للإله الحقيقي الواحد، ومازال هذا الحكم سارياً . إن من لا يعرف الله معرفة صحيحة لا يختلف عمن يعبدون الأوثان .

ومن الأمور الخاطئة أيضاً ألا يفكر الناس في الله إلا إذا أجبروا على ذلك . هؤلاء الخطاة يتولد عندهم خوف اضطراري نابع من خوفهم من دينونة الله. ومع

ذلك فهم يودون لو أمكنهم أن يبطلوا أحكام الله العادلة ، بل إن بعض هؤلاء الناس أنفسهم يتخذون مظهراً خارجياً له صورة التقوى بينما هم في الواقع يرتبكون شتى أنواع الآثام .

ينبغي أن تكون هناك طاعة دائمة منضبطة لله طول أيام الحياة . لكنّ الخطاة يتمردون على الله بالأفعال الأثيمة ثم يظنون أن بإمكانهم أن ينالوا عطفه (رضاه) مرة ثانية بقليل من التضحيات . لكن أفعالهم الشريرة هذه تطفيء ومضات أشعة معرفة الله ، فيفقدون ما قدمه الله لهم من معرفة عن نفسه تبارك اسمه . ففي الأوقات الطيبة يسخرون من الله ، وفي أوقات الشدة يتحولون رجوعاً إليه في يأس وقنوط . وتوضح صلواتهم في أوقات الضيق أنهم لم يكونوا يجهلونه تماماً .

٥ - معرفة الله ممكنة من خلال عمل يديه في الكون

إن الله يُظهر نفسه بوضوح في نسيج الكون وبنيته وجزئياته بصورة لا يحتاج معها الناس إلا لأن يفتحوا أعينهم لكي يبصروه في أعماله . صحيح أن الناس لا يمكنهم إدراك جوهر الله إدراكاً كاملاً لأن جوهره محجوب عنهم .لكن هناك علامات واضحة ومؤكدة تعلن مجد الله فيما قد صنع وأبدع . ولا عذر لنا في عدم معرفته . إذا طُفنا بأبصارنا كيفما نريد في أي جزء من أجزاء الخليقة ، رأيناها تتلألأ بما أودعه الله فيها من مجد . وعن هذا يخبرنا الرسول بولس في (رومية ١ : ١٩ ، ٢٠) أن الله قد أظهر نفسه في أعمال يديه لأن أموره غير المنظورة – قدرته السرمدية ولاهوته – تُرى منذ خلق العالم مدرَكَة بالأشياء التي صنعها حتى أنهم بلا عذر .

هناك الكثير من الأشياء التي تُظهر حكمة الله . ما من شك في أن العلماء الآن يمكنهم البحث والتنقيب بعمق في أسرار الحكمة الإلهية . فهم يستخدمون معرفتهم في مراقبة حركة النجوم والكواكب كالشمس والقمر مثلاً ، ويقيسون أبعادها ويندهشون لعظمتها . لكن هذا لا يعني أن يكون لنا نحن – غير العلماء – أي عذر في عدم إدراك مبدع هذه الأشياء . فلنا أعين ويمكننا أن نرى أن هذه الأجسام السماوية كثيرة ومتنوعة ، ومنسقة في نظام بديع . إن الله قد أعلن عن حكمته في أعماله العجيبة ، إعلاناً كامل الوضوح ، لكل أفراد الجنس البشري بلا استثناء .

وبنفس الطريقة ، فإن إدراك تركيب الجسم البشري وجماله ووظائفه يستغرق من الطبيب الماهر المدرب كل وقته وجهده ، ومع ذلك أفلا يفكر أحد من الناس العاديين أن الهيكل العام للجسم يبرهن على مهارة وعظمة صانعه وخالقه .

حقاً " ان الله عن كل واحد منا ليس بعيداً " (أعمال ١٧ : ٢٧) . والآن ، لو أن الأمر لا يتطلب منا سوى التأمل في أجسامنا لنكتشف عمل يد الله ، فإننا نقع في خطأ لا يغتفر ولا مبرر له إذا كنا لا نسعى لطلب الله . والواقع أن هذا يدل على جحود البشر وعدم عرفانهم بالجميل . ذلك أنهم يملكون في أنفسهم أعمال الله العظمى وينالون منه هبات لا تُحَدُّ ، ثم ينتفخون بكبرياء لأنهم مُنحوا مثل هذه العطايا ، بدلاً من أن يمجدوا المُعطي الوهّاب .

لقد استخدم الناس كلمة " الطبيعة " لكي يتجنبوا التفكّر في الله . فيقولون: إن " الطبيعة " هي التي صنعت كل هذه الأشياء العجيبة ، وأكثر من ذلك إنها التي صنعت كل شيء من أعينهم إلى أطراف أصابعهم . إنه أمر مؤكد أن جميع عمليات التفكير السلسة لعقل الإنسان وقدراته الرائعة على الإدراك والاستنتاج تشير بوضوح إلى الله الخالق . ومع ذلك فإن البشر يستخدمون هذه القدرات الممنوحة لهم من الله في الحرب ضد الله نفسه .

وهناك من يقول بأن النفس لا يمكن أن توجد بمعزل عن الجسد . لكن الثابت أن النفس تؤدي وظائفها باستقلال عن الجسد . فما شأن الجسد بدراستنا للسماويات ؟ كما إننا لا نتأمل في الماضي والمستقبل بأجسادنا كذلك نحن نتذكر ما قد سمعناه ونلتقط صورة في أذهاننا . وما علاقة الجسد بما يدور في عقولنا من أفكار وصور أثناء نومنا . هذه دلالات واضحة عن عمل يد الله في الإنسان . إن علامات الخلود لا يمكن إزالتها مطلقاً من الطبيعة البشرية . ومن المؤكد أن عقل الإنسان نفسه يحتم عليه أن يعرف خالقه .

وقد حاول آخرون طمس فكرة وجود إله حقيقي بادعاء أن هناك نوعاً ما من العقل الكوني العام ، هو الذي يعطي حياةً للكون . وهذا الادعاء ليس إلا محاولة لإحلال قوة وهمية مبهمة محل الله ، وبالتالي لا مجال لتقديم الخشوع والعبادة لقوة مثل هذه . إنه في أمور خطيرة مثل هذه ، يكون من الخطأ الجسيم الخلط بين الله وبين الأشياء التي صنعها ، أو بين أعمال يديه وبين أعمال الطبيعة الخاضعة لإرادته وحده .

وعلى ذلك ، فإن علينا أن نتذكر ، كلما تأملنا في أجسادنا أنه يوجد إله واحد يحكم ويسيطر على كل الأشياء ، وهو يريدنا أن نأتي إليه ونؤمن به ونتعبد له . إن من الأمور التي تتنافى مع أي منطق سليم أن نستخدم عطايا الله العظيمة ونتمتع بها ، ثم نتحول عنه ونديرله القفا ، مع أنه – تبارك اسمه – مستمر في منحنا كل ما نحتاج إليه .

دعونا ننظر بإعزاز وإكبار إلى أعمال الله العجيبة . فهو يمسك بقدرته السموات والأرض ، التي نشرها وبسطها . ويجعل السماء تهتز بالرعود وتضئ بالبروق . وهو يثير الهواء بالزوابع ثم يهدئه في لحظة ، ويعطي حداً لأمواج البحر الهادرة فيدفع بها إلى ذروة الاضطراب والضراوة ، مصحوبة بالرياح العاصفة ثم إذا هو يعيد السلام للتأمل في سرمديته (أزليته وأبديته) . إن ذاك الذي منه تأتي كل الأشياء لابد أن يكون سرمدياً ، ولابد أن يكون له وجود في ذاته .

كذلك يمكننا أن نرى عمل الله في الشئون والعلاقات البشرية . إن الله رؤوف بكل الناس ، لكننا نرى صلاحه وجوده الدائم مع الأبرار بصفة خاصة بينما نرى قسوته بصفة خاصة أبداً مع الأشرار . إن الله عندما يظهر نفسه في معاقبة الجريمة يكون منصفاً وعادلاً بنفس الدرجة التي بها يحمي البريء وينتقم له. وقد يسمح الله أحياناً بأن ينتصر الشرير ، بينما يعاني البريء ضيقاً وظلماً على يد الإنسان الشرير ، لكن هذا لا يحجب عدل الله وإنصافه . ومن جهة أخرى، علينا أن ندرك أن الله عندما يعاقب جريمة ما ، فإنما يكره كل الجرائم ، وعندما نراه يترك الكثيرين في الوقت الحاضر بلا عقاب يجب أن ندرك أن هناك دينونة حتمية ، سيقوم فيها بتوقيع العقاب الرهيب على هؤلاء المذنبين .

وعن عناية الله بنا ورعايته لنا يحدثنا صاحب المزمور المائة والسابع ، ويرينا كيف أن الله يقدم معونة تفوق الطبيعة وتخالف ما هو متوقع ، للبائسين ، كما يقدم حماية وإرشاداً للتائهين في البرية ، ويعطي طعاماً للجياع ، ويخلّص المسجونين من الأسر ، ويشفي المرضى ، ويعطي الخصب والنماء للأرض ، ويرفع المسكين من الذل . ولئلا يظن البعض أن هذه الأمور تتم مصادفة ، يؤكد صاحب المزمور إنها ناتجة عن عناية الله بشعبه ويختم مزموره بالقول : " من كان حكيماً يحفظ هذا ويتعقل مراحم الرب " .

عندما نعرف الله ، المعرفة الحقة ، سنتطلع إلى الأمام ، إلى الحياة الآتية. وعندما ندرك ان وجود الله وكذلك صرامته لا يبدوان بصورة كاملة في العالم الحاضر ، نستنتج أن هذه الحياة مجرد بداية ، وأن الإظهار الكامل لرحمة الله ودينونته سيتم في العالم الآتي . عندما نرى الأتقياء يعانون الألم والأذى من أشرار يعيشون في راحة ، يكون من حقنا أن نؤمن أن هناك حياة أخرى قادمة ينال فيها كل من الأتقياء والأشرار المعاملة اللائقة .

وقد قال أغسطينوس بحق : " لو أن كل خطية هنا نالت عقابها ، فقد نظن أنه ليس هناك دينونة عتيدة ستأتي . وإذا لم نر هنا بعض الخطايا تنال عقوبتها فوراً ، فإننا قد نظن أنه لا وجود لما يسمى بالقدرة والعناية الإلهية . "

وبالرغم من أن الله يُظْهِر قوته الدائمة بوضوح وجلاء فيما صنعت يداه، فإن الجنس البشري لا يستوعب الدرس . فالناس في معظمهم لا يتطلعون إلى الأشياء الطبيعية حولهم ليفكروا في صانعها وخالقها ، بل كثيراً ما يتكلمون عن الأحداث على أنها محض صدفة ، والأجدر بنا أن ندرك أنها بترتيب من الله . إن أعمال الخليقة تتلألأ حولنا كالمصابيح ، لتوضح وتظهر مجد صانعها . لكن هل تلمع وتتلألأ بلا جدوى لأن الناس لا يتطلعون إليها بالدرجة الكافية ؟ إنها موجودة على أي حال ولا يمكن لنا أن ندعى بأنه ليس لدينا وسيلة بها نعرف الله . لكن الله في محبته وحنانه قد أعطانا ضوءاً آخر أكثر إشراقاً ولمعاناً ، يقودنا إلى المعرفة الحقيقية لخالقنا ، هذا السراج المنير هو الكتاب المقدس .

٦ – حاجة الإنسان إلى الكتاب المقدس ، ليحصل على معرفة حقيقية وصحيحة عن خالقه

مع ان الله يرينا عظمة مجده في الخليقة حتى أننا بلا عذر في عدم معرفته ، إلا أننا نحتاج إلى مساعدة أفضل لنعرف الله بشكل صحيح وسليم . ومن ثم أعطانا الله نور " كلمته " .وهذا امتياز للذين يريد الله أن يُعّرف نفسه لهم عن قرب ، ويقربهم إلى نفسه .

إن شخصاً يعاني من ضعف البصر لا يقدر على قراءة كلمتين في كتاب ما ، لكن عندما يستخدم نظارة طبية ، يمكنه القراءة بوضوح ويسر . والأمر شبيه بهذا مع الكتاب المقدس فهو بمثابة النظارة التي تجلو ضباب معرفتنا لله ، ويعلن لنا الله بأعظم بيان وأجلى وضوح . ومن هنا ندرك عظمة هذه العطية ، كلمة الله المدونة في الكتاب المقدس ، التي بمقتضاها أعطانا الله حقائق ومعلومات لكي لا يتركنا للبحث عنه في أعمال الخليقة وحدها .

إن الله قد عَرّف نفسه لكتبة الوحي المقدس بكلمات مقولة ورؤى ، وبتعليمهم ماذا يكتبون . ورغم تنوع الوسائل كان هؤلاء الكتّاب متأكدين تماماً من صحة الحق الذي تعلموه ، كما كانوا على يقين كامل بأن هذا الحق من الله . لقد وضع الله حقه فوق مستوى الشبهات ، وسمح بتدوين هذه الحقائق في سجل عام مكتوب ، لكي تستخدمها الأجيال التالية . كان الهدف الأساسي من كتب الناموس

والأنبياء أن تشهد عن المسيح ، لكنها أفادت أيضاً في تمييز الإله الحقيقي خالق السماء والأرض عن الحشد الهائل من الآلهة المزيفة.

ومن هنا يمكننا القول بطريقة محددة ، إن من حق الإنسان أن يتأمل مجد الله الذي أظهره في الخليقة، ومن حقه أيضاً أن يقرأ كلمة الله . والحق أننا ينبغي أن نقرأ كلمة الله إذا أردنا أن نزداد معرفة عن خالقنا . ونحن لا يمكننا أن نعرف شيئاً عن التعليم الصحيح ما لم نتعلم ذلك من الكتاب المقدس .

وعندما نتذكر أن الذهن البشري سرعان ما ينسى الله ، يمكننا أن نرى كيف كانت الحاجة ماسة لتدوين الحق الإلهي . فإذا لم نقرأ كلمة الله ، فلن نصل مطلقاً إلى الهدف من معرفة الله . ومن الجدير بالذكر أن النبيّ الذي يخبرنا بعظمة الله في الطبيعة ، وأن السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه وأن تتابع الأيام والليالي يعلن عظمة الرب ، هو نفس النبي الذي يضيف في نفس المزمور أن : " ناموس الرب كامل يرد النفس ، شهادات الرب صادقة تُصَيِّر الجاهل حكيماً" (مزمور١٩) .

٧ – الروح القدس يضمن صحة ومصداقية الكتاب المقدس

هذا يعني أن الكتاب المقدس يستمد سلطته وقانونيته من الروح القدس . فالمؤمنون بحاجة إلى أن يعلموا علم اليقين أن الكتاب المقدس جاء من السماء . فمن الخطورة أن نظن بأن أهمية الكتاب المقدس ترجع إلى اعتماد الكنيسة له أو تصديقها عليه ؛ ذلك أن حق الله الأبدي غير المتغير لا يستند على حكم البشر . قالت الكنيسة – أي الكنيسة الكاثوليكية في عصر كالفن – إنها هي التي تقرَّر الأسفار التي تدخل ضمن الكتاب المقدس وكذلك الأسفار التي لا يمكن قبولها . وكان هذا راجعاً إلى أن الكنيسة أرادت من الناس البسطاء أن يعتقدوا بأنها صاحبة السلطة والمرجع الأعلى . إلا أنه من الواضح أنه لا يمكننا الاستناد إلى حكم الناس ، لئلا يضطرب صاحب الضمير القَلِقِ لو وضع ثقته في بشر مثله . لكن مثل هذا الإنسان يستطيع الرجوع إلى الكتاب المقدس – الموحي به من الله – ليجد رجاءً لحياته الأبدية .

يقول لنا الرسول بولس : إن الكنيسة مبنية على أساس الرسل والأنبياء ، فإذا قبلنا هذه الحقيقة وجب علينا أن ندرك أن ما كتبه الرسل والأنبياء في الأسفار المقدسة قد قبل كعقيدة صادقة حتى من قبل تأسيس الكنيسة . نعم ، فللكتب المقدسة سلطتها ومصداقيتها قبل الكنيسة .

إن البرهان الأعلى في الكتاب المقدس هو : " هكذا قال الرب " . فالأنبياء والرسل لا يفتخرون بحكمتهم الخاصة ، بل يضعون اسم الله القدوس في المقدمة

ليكون القول مستوجباً للطاعة . فإذا أردنا أن نُحَرّرَ ضمائر الناس من الشك وعدم اليقين وجب أن يكون لنا – كأساس لإيماننا – شيء أعلى وأسمى من براهين وقرارات البشر . هذا الأساس الأسمى والأعلى للإيمان هو شهادة الروح القدس في داخلنا .

فلا جدوى إذن من محاولة تشجيع الإيمان بالكتاب المقدس عن طريق البرهان المجرد . وحتى إذا كنت تحث سامعك بهذا الأسلوب على قبول الكتاب فسيقبله بعقله فقط . ذلك أن مجرد البرهان لا يمكن أن يؤسس الإيمان الثابت الوطيد ، اللازم للتقوى القلبية .

يظن أهل العالم أن الديانة تكون في العقل أو الذهن ، ويطلبون أن يقنعهم أحد ببراهين قوية أن موسى والأنبياء تكلموا بالوحي المقدس . وأنا أجيب أن شهادة الروح القدس فوق كل البراهين والأدلة . إن الوسيلة الوحيدة التي بها نعرف الله هي من خلال كلامه عن نفسه في الكتاب المقدس . وبنفس الطريقة أي بشهادة الروح القدس وحده للكتاب يكون قبول الكتاب المقدس في قلوب الناس . إن الروح القدس الذي تكلّم في الأنبياء ، هو ذاته الذي ينبغي أن يدخل إلى قلوبنا ليقنعنا أنهم كتبوا الرسالة المعطاة لهم بأمانة واستقامة . وهذا ما يُقَرّره إشعياء بوضوح حين يقول : " أما أنا فهذا عهدي معهم قال الرب ، روحي الذي عيك وكلامي الذي وضعته في فمك لا يزول من فمك ولا من فم نسل نسلك ، قال الرب من الآن وإلى الأبد " (إشعياء ٥٩ : ٢١) .

إن الإنسان المتعلم في أعماقه من الروح القدس ، يثق بثبات في الكتاب المقدس ، وهذا أمر يجب قبوله قبولاً صريحاً وواضحاً ، فالكتاب المقدس يملك البرهان في ذاته ، ولا يحتاج إلى برهان أو حجة من قبل إنسان . فالروح القدس هو الذي يشهد لنا بالحق المتضمن في الكتاب المقدس ، ولا يمكن أن تكون هناك شهادة أعظم .

والكتاب المقدس يستحق احترامنا وتقديرنا بسبب عظمته الذاتية الخاصة. لكنه لا يُجري فينا أي تغيير حقيقي ما لم نتعلم بواسطة الروح القدس ، فبقوة الروح القدس فقط تنفتح أمامنا مغاليق الكلمة وننال الاستنارة . فليست العبرة إذن في حكمنا أو حكم غيرنا من الناس لنؤمن بأن الكتاب المقدس هو من الله . لأن الروح القدس هو من الله . لأن الروح القدس هو الذي يعطينا اليقين بأن الله هو الذي يتحدث إلينا في كتابه المقدس ، ذلك الكتاب الذي استخدم في كتابته أناس الله القديسين المختارين .

٨ ــ براهين منطقية تؤكد صحة الكتاب المقدس

بعد أن نملك ذلك اليقين من خلال الروح القدس ، وبعد أن طوق الكتاب المقدس بالتبجيل والاحترام اللائقين بمكانته . بعدئذ فقط يأتي دور البراهين المنطقية كعوامل مساعدة للإيمان . إن إيماننا يثبت بطريقة رائعة عندما نتأمل في نظام وترتيب فيض الحكمة الإلهية وغناها في الكتاب المقدس . ونرى النقاوة غير الأرضية لتعليم الكتاب ونلمس جمال كل جزء فيه . ان قلوبنا تكون أكثر ثباتاً إذا ما تنبهنا إلى أن الجدير بإعجابنا ليس جمال لغة الكتاب ، بل مكانة وسمو الأمور المعلنة فيه .

إن حكمة الله قد أُظهرت بوصول الأسرار العظيمة لملكوت السموات إلينا بأسلوب سهل بسيط . فلا أحد يمكنه الادعاء بأن قوة الكلام تكمن في جمال اللغة . إن الحقائق الإلهية على جانب كبير من القوة والاقتدار بحيث لا تحتاج معها إلى أية مساعدة مصطنعة تتمثل في أسلوب باهر أو كلمات بارعة . ويستخدم بولس هذه الحقيقة عندما يؤكد لأهل كورنثوس أن إيمانهم لا يستند على كلام الحكمة الإنسانية المقنع بل على برهان الروح والقوة . (١كو٢ : ٤) .

إن في الكتاب المقدس قوة لا توجد في أية كتابات بشرية ، رغم ما قد يكون في كتابات البشر من روعة وبهجة ، لكن كلمة الله هي وحدها القادرة على اختراق أعماق القلب والنفس والإستحواز على مشاعرنا الداخلية .

لقد كتب بعض الأنبياء بإسلوب شائق ورائع وجذاب ، يُضارع في جماله اسلوب كُتّاب العالم العظام، وقد سمح الروح القدس بهذا ليرينا أنه كان ممكناً استخدام هذا الإسلوب دائماً لكن عظمة الله تُرى بوضوح في اللغة العادية لإرميا وعاموس ، بنفس الدرجة التي تظهر بها في اللغة الجميلة التي كتب بها داود وإشعياء .

(أ) بعض البراهين على صحة كتابات العهد القديم

يظهر صدق موسى في كتابته ، عندما نجد أنه يُضَمّنها أخباراً ليس فيها أي مجاملة لأسرته . لقد كان من سبط لاوي ، ومع ذلك كتب يقول : " شمعون ولاوي أخوان ، آلات ظلم سيوفهما " . (تكوين ٤٩ : ٥) . وكان يمكنه أن يتجنب الإشارة إلى تذمر أخيه وأخته عليه ، لكنه دوّن ذلك بكل أمانة (عدد١٢ : ١) .

ان موسى يكتب عن عجائب ومعجزات كثيرة جداً . ويجب أن يلاحظ الذين يتساءلون عن حقيقة حدوثها، انه لم يعترض إنسان واحد عندما أعلن موسى عن هذه العجائب أمام الجموع المحتشدة . ولم يكن ممكناً أن يقدم تقريراً زائفاً أمام

هؤلاء الناس لأنهم كانوا شهود عيان لهذه الحوادث . ولم يعترض أي واحد منهم عندما أشار إلى نزول المن من السماء وتفجر الماء من الصخرة وإلى عمود السحاب فوق خيمة الاجتماع ، وإلى صوت الرعد الحادث عندما تكلم الله مع موسى من الجبل .

كتب إشعياء وقت أن كانت " مملكة يهوذا " في سلام . ومع ذلك أعلن إشعياء عن خراب أورشليم وعن السبي ، بل أيضا عن المنقذ " كورش " ، وذلك قبل ولادة " كورش " بمئات السنين . كما تنبأ أرميا بأن السبي سيستمر سبعين عاماً ، في وقت ما قبل السبي .

(ب) بعض البراهين على صحة كتابات العهد الجديد

يورد ثلاثة من كُتّاب البشاير قصة المحبة العجيبة باسلوب بسيط خالٍ من التنميق أو الزخرفة ، ومع ذلك فإن عظات المسيح التي ترد في هذه البشائر ذات الأسلوب البسيط تستحوذ تماماً على إعجابنا . كما أن كتابات بولس وبطرس تنتزع منّا الإجلال والتقدير . وفي العهد الجديد نرى أناساً يصيرون خليقة جديدة ، مثل متّى الذي يأتي إلى الرب يسوع تاركاً مكتب الجباية ، كما يأتي بطرس ويوحنا تاركين قوارب الصيد . ولا ننسى أن الرسول بولس قد تَجدّد في وقتٍ كان فيه شديد العداوة للمسيحيين ، مضطهداً ومفترياً .

لقد حفظ الله كلمته المكتوبة لنا ، حفظها عبر آلاف السنين إذ أنها شهادته المكتوبة التي يُقَدمّها عن نفسه .

٩ – إهمال الكتاب المقدس والسعي في طلب إعلانات جديدة أمر مضاد لإرادة الله من نحو البشر

يوجد بعض الناس يدّعون بكبرياء أنهم منقادون بالروح القدس . ويحتقرون من يتمسك بالمكتوب ويقولون عنهم : إنهم يتمسكون " بالحرف الميت القاتل " . فإذا ما ادعوا بأنهم منقادون بروح الله ، يكون من الغباوة أن يظنوا أن هذا الإعلان يمكن أن يكون مختلفاً عن الإعلان المعطي للرسل والأنبياء الذين دونوا كلمة الله .

كتب بولس مرة (٢كورنثوس ١٢ : ٢) أنه اختطف إلى السماء الثالثة . وكان من حقه أن يقول – لو كان من حق أي إنسان أن يدعى – ان له إعلانه الخاص . لكنه لم يقل ذلك بل ظل يستخدم الكتب المقدسة ويشجع تيموثاوس على أن يفعل هكذا . وكان يُقدّر الكتب المقدسة حق قدرها عندما كتب إلى تيموثاوس يقول : " كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ ، للتقويم والتأديب الذي في

البر ، لكي يكون إنسان الله كاملاً ومتأهباً لكل عمل صالح " (٢تيمو٣ : ١٦ ، ١٧) .

عندما وعد الرب بأن يرسل الروح القدس ، قال عنه إنه لن يتكلم من نفسه ، بل سيذكرّهم بما علّمه المسيح لهم بالكلمات التي نطق بها ، وعلى هذا فإن الروح القدس الموعود به لن يعطي أموراً جديدة أو إعلانات لم يُسمع عنها ، بل يُثَبِّت في قلوبنا نفس التعليم الذي قد أعطاه لنا إنجيل المسيح .

والأمر الذي يجب أن يكون واضحاً هو أن أولئك الذين يريدون أن ينالوا فائدة روحية وبركة من روح الله ، عليهم أن يجتهدوا ويثابروا في قراءة الكتاب المقدس والإصغاء إلى صوته .

وإلى الذين يقولون بأنه مما يهين روح الله الذي هو فوق كل الأشياء أن يكون (الروح القدس) خاضعاً للكتاب ، نقول لهم إنه لا توجد إهانة للروح القدس مطلقاً في أن يكون متسقاً ومتفقاً مع نفسه ، فهو مؤلف الكتاب المقدس ، وهو لا يتغير .

أما القول بأن الذين يتقيدون بالكتاب المقدس ويلتزمون به يكونون في عبودية " الحرف القاتل " ، فهذا تلاعب بالألفاظ ، إن بولس عندما قال " الحرف يقتل " (٢كو ٣ : ٦) كان يقاوم المُعلّمين الكذبة الذين كانوا يتشبثون بالشريعة ، ولا يريدون أن يقبلوا شريعة الله الجديدة ، بالنعمة التي في المسيح . إن الشريعة تقتل ، عندما تكون منفصلة عن نعمة المسيح . لكن عندما يطبعه الروح القدس بقوة في القلب ، وعندما يعلن لنا المسيح فإنه كلمة الحياة .

إن الهيبة الحقيقية لكلمة الله تسود على قلوبنا ، عندما نتمكن بنور الروح القدس من رؤية الله في الكتاب المقدس . ومن جهة أخرى نحن نرحب – دون خوف من الضّلال – بالروح القدس الذي ندركه ونُميّزه من مطابقته لكلمته الخاصة .

١٠ – الخليقة والكتاب المقدس يتفقان ضد آلهة الأمم

سبق أن أوضحنا أن خلق العالم يحمل شهادة لله ، وأن الله أعلن نفسه في الكتاب المقدس بطريقة أكثر كمالاً . والآن علينا أن نشير إلى أن إله الخلق هو نفسه إله الكتاب المقدس .

في الكتاب المقدس نرى الله دائماً في طيبة قلب كأب صالح حنان . فهو يبتهج ويسر بإظهار مراحمه الخاصة ، لكنه أيضاً يظهر صرامة ضد الآثمة . ولعل

موسى قد أعطانا بياناً موجزاً عما نريد أن نعرفه عن الله حين قال : " الرب، الرب إله رحيم ورؤوف بطئ الغضب وكثير الإحسان والوفاء ، حافظ الإحسان إلى ألوف ، غافر الاثم والمعصية والخطية . ولكنه لن يبرئ إبراءً ، مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع " (خروج ٣٤: ٦ ، ٧) . إن اسم الرب (يهوه) الذي يكرره موسى في بداية الفقرة مرتين ، يوضح سرمدية الله وذاتية وجوده ، وبعد ذلك يورد صفات الله التي تشير إليه من جهة علاقته بنا .

ونفس هذه الصفات تُرى لامعة ومتلألئة في " الخليقة " : اللطف والصلاح والرحمة والعدل والحكم والحق . نعم فكل صفات الله يمكن تتبعها واقتفاء أثرها في أعمال الخلق .

ثم يجب أن نلاحظ أن الكتاب المقدس يرفض رفضاً قاطعاً جميع آلهة الأمم ، ويقودنا إلى الإله الحقيقي وحده . لقد كان اسم الله معروفاً في كل مكان ، حتى الذين كانوا يتعبدون لآلهة متعددة ظلوا يستعملون اسم الله . لكن جميع الناس سقطوا في الإثم والخطية ، ومعرفتهم الطبيعية عن الله لا تفيدهم بل تجعلهم بلا عذر . ومن هنا فإن النبي حبقوق يدين كل أشكال عبادة الأوثان ، ويخبرنا أن نطلب الله في هيكل قدسه (حبقوق ٢ : ٢٠) ، وبذلك يكون علينا ألا نقبل إلها آخر سوى الله الحقيقي الذي أعلن عن نفسه في كلمته الخاصة .

١١ ــ من الخطأ صنع أية صورة أو تمثال لله

عندما يقوم إنسان بصنع أي شكل من الأشكال ، قائلاً : إن هذا الشكل شبيه بالله ، فإنه عندئذ يفسد مجد الله بالباطل . قال الله : " لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض " (خروج٢٠ : ٤) . لقد منع الله كل محاولات تصويره في شكل مرئي .

قال موسى للشعب : " فاحتفظوا جداً لأنفسكم ، فإنكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب في حوريب من وسط النار ، لئلا تفسدوا وتعلموا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً صورة مثال ما .. " (تثنية ٤ : ١٥ ، ١٦) . يشير موسى بذلك إلى أن صوت الله فقط هو الذي سمع وانه لم يكن هناك أي شكل أو صورة مرئية . إن أي محاولة لإعطاء الله شكلاً تُعد إهانة لله .

ويوصي بولس بمراعاة هذا الأمر نفسه عندما يقول : " فإذ نحن ذرية الله لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع

إنسان " (أع ١٧ : ٢٩) ، وهكذا يتضح بجلاء أن أي تمثال أو صورة تُصْنَع لتصوير الله تعتبر إهانة بالغة لجلال عظمته .

ولقد كانت هناك مناسبات معينة فيها أعلن الله نفسه بواسطة علامات ، لكنها كانت من نوع خاص جداً . والواقع أنها نبّهت الذين رأوها إلى أن الله فوق مستوى فهمهم . فعند إعطاء الناموس ، رأي الشعب السحاب الثقيل والدخان والنار. كانت هذه علامات مجد الله ، لكنها بالتأكيد علامات لا قبل للإنسان بتقليدها أو نسخ صورة منها . وفي البشائر يظهر الروح القدس على شكل حمامة لكنه سرعان ما يختفي ، وهذا يُذكّرنا بأن الله غير مرئي .

إن الإنسان ككائن مخلوق لا يمكنه أن يُمَثِّل الله في شكلٍ من طين أو حجر أو خشب أو حتى من الفضة أو الذهب . ويوضح إشعياء كيف أنه من الغباء للإنسان أن يختار قطعة ما من الحديد أو الخشب ، ويصنع من نصف القطعة قدوماً أو وقوداً ومن النصف الآخر يصنع إلهاً صنماً يسجد له . (إشعياء ٤٤ : ١٢ – ١٧) . " قطع لنفسه أرزاً وأخذ سنديانا وبلوطاً واختار لنفسه من أشجار الوعر ، غرس سنوبراً والمطر ينميه ، فيصير للناس للإيقاد ، ويأخذ منه ويتدفأ ، يشعل أيضاً ويخبز خبزاً ، ثم يصنع إلهاً فيسجد ، قد صنعه صنماً وخرّ له " (إشعياء ٤٤ : ١٤ ، ١٥) .

وجدير بالملاحظة أيضاً أن الله حرّم الصور الوثنية بنفس الدرجة التي حرم بها التماثيل المنحوتة ، فمنع الناس من أن يصنعوا أي شبيه أو مثال لنفسه من أي نوع .

يقول البعض : إن الصور والتماثيل هي بمثابة كتب لعامة الناس . فالذين لا يستطيعون القراءة يحتاجون إلى ما يُذكّرهم بالله . صحيح أن الناس في حاجة إلى من يخبرهم عن الله ، لكن الله قد حرّم الصور والتماثيل تحريماً قاطعاً بل حرمها أيضا كوسيلة للتعليم يقول حبقوق : ان التمثال المنحوت أو المسبوك لا نفع له بل هو مُعلّم للكذب (حبقوق ٢ : ١٨) . إن لله أسلوباً خاصاً في التعليم ، فالناس الذين لا يستطيعون القراءة يكون تعليمهم عن طريق إعلان كلمة الله . ينبغي تعليم الناس تعليماً كاملاً متقناً . فلا حاجة لتماثيل الخشب أو الطين أو الفضة أو الذهب . إذ يمكن للناس – بدون هذه الأشياء – أن يعرفوا أن المسيح قد مات عنا ، ليحمل اللعنة من أجلنا ويتلقى عقوبتنا على الصليب ، ويُكفّر عن خطايانا بتقديم جسده ذبيحة كفارية ليطهرنا من خطايانا بدمه ويصالحنا مع الله أبيه.

إنه لمن الخطأ تماماً أن نظن بأنه يمكن للإنسان أن يعبد الله في التمثال دون أن يعبد التمثال ذاته . وهي حجة يستخدمها حتى الوثنيون ، فإنهم يجادلون

بأنهم في عبادة الأوثان لا يعبدون التمثال بل يعبدون ما يُمثّله . وهي نفس الحجة التي تتذرع بها الكنائس التي تدعى بأنها تقدم طقوس الخدمة للتماثيل لكنها لا تتعبد لها . بل إنه حتى هذا يمكن أن يعني أنهم خدام للأوثان ، وبديهي أن هذا ليس قصد الله إطلاقا من صنع الجنس البشري .

١٢ – يجب أن نُقدِّم العبادة لله وحده

أينما سادت الأكاذيب وانتشرت التعاليم الخاطئة ، تعرضت الديانة للفساد والانحراف والضلال . إنه جهل مشين أن لا يتمسك الناس – بكل قوتهم – بإيمانهم بالله الواحد الحقيقي ، متعبدين له بالطريقة الوحيدة الصحيحة . وفوق ذلك فإن الله قد أعلن عن قصدٍ وتصميم أنه إله غيور ، يعاقب الذين يعطون للأوثان المجد الذي يليق به وحده . إن أحد أسباب إعطاء الوصايا العشر هو أن الله كان يريد أن يحول بين الناس وبين الانزلاق إلى العبادة الفاسدة . فإذا لم نُمجّد الله بكل ما يستحق من عبادة ، فكأننا نجرده من مجده ونوجه الإهانة إليه .

ونُقدِم الخرافات الكثير من الحيل لتحوّلنا عن العبادة النقية الطاهرة ، فيجب أن نتنبه ونحترس منها . فهناك إغراء بإتباع آلهة غريبة دون أن يبدو في الأمر ترك للإله الواحد ، لكنها للأسف تضيف إلى جواره آلهة كثيرة أقل قدراً وتعطيهم حقوقاً معينة وتنسب إليهم قوى خاصة ، مما يشتت ويحطم مجد الألوهية، هذا المجد الذي هو حق واجب لكائن واحد ، هو الله . وبنفس الطريقة يكون مَنْ يُعطون تمجيداً للملائكة والقديسين إنما يُنقصون ويقتطعون من مجد الله . ومّنْ يقدمون للملائكة والقديسين السجود والتسابيح والصلوات قد لا يدركون أنهم بذلك يعطون مجد الله لآخرين .

وقد أعلن المسيح هذا الأمر بكل دقة عندما قال : " للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد " . كانت هذه هي قاعدته الذهبية في مواجهة ادعاء إبليس عندما حاول تجربته بالسجود لآخر (متى ٤ : ١٠) .

ويمكننا أن نتأمل في سلوك كرنيليوس (أعمال ١٠ : ٢٥) عندما وقع على قدمي بطرس وسجد له . لاشك أن كرنيليوس كان يعرف بدرجة كافية أن السجود يكون لله وحده . فإذا لم يكن في الحقيقة يسجد لبطرس في شخصه بل ينظر إليه كعلامة على وجود الله ، فإن هذا يكون سجوداً من النوع الذي يظن الكثيرون أنهم يقدمونه للملائكة والقديسين . لكن بطرس منع كرنيليوس بقوة من السجود له . والسبب في هذا المنع أن الإنسان لا يمكنه أن يُميّز أو يفصل بقوة وحسم بين السجود

لله والسجود لمخلوق دون أن يعطي المخلوق بعضاً من المجد الذي يخص الله وحده . علينا إذن ألا نسلب الله أية ذرة صغيرة من مجده .

١٣ – الله واحد في الجوهر ، وهذا الجوهر يشتمل على ثلاثة أقانيم

(أ) طبيعة الله

يعلمنا الكتاب المقدس أن الله واحد ، كائن غير محدود ، وهو روح . ولا يتحدث الله إلا قليلاً عن جوهره الخاص . لكن هاتين السمتين المميزتين لله ، تمنعنا من محاولة تحديده وتعريفه . إن " اللامحدودية " التي لله تجعلنا ندرك أنه لا يمكن قياس مداه أو تقديره حق قدره . وحقيقة أن الله روح تدفعنا لأن ندرك أنه لا يمكن وصفه بكلمات أرضية على الإطلاق . إن الله فوق كل أفكارنا وتصوراتنا الأرضية .

إن بعض الناس يفكرون في الله أو ينظرون إليه كأنه بشر ، لأن الكتاب المقدس يتكلم عن الله بأن له فماً وأذنين وعينين ويدين وقدمين . لكن ذلك ليس إلا أسلوب في الحديث ، لأن عقولنا البشرية قاصرة عن التفكير في شخص ليس له هيئة مرئية . فيستخدم الله مثل هذه الكلمات في الكتاب لمساعدتنا على التفكير فيه، ولاشك أن الله قادر على أن يرى ويسمع ويعمل ، لكن ليس له جسم معين .

(ب) ثلاثة أقانيم متميزة في إله واحد :

يجب أن نؤمن ونفهم بوضوح أن هذه الحقيقة أساسية وأننا يجب أن نتمسك بها دائماً . إن الله واحد، لكن في الله الواحد يمكن التعرف على ثلاثة أقانيم والتمييز بينهم . إن جوهر الله بسيط أي غير مركب ، ولا يمكن تقسيمه . إن المسيح يوصف في الرسالة إلى العبرانيين (١ : ٣) بأنه رسم جوهر الآب وبهاء مجده ، فالمسيح ليس له جوهر منفصل ، لأن هناك جوهر واحد فقط ، لكن هذا الوصف يعطي المسيح وجوداً متميزاً (مختلفاً) عن الآب . فمعنى القول بأن الابن هو بهاء مجد الآب ، أن شخصية الآب تتضح وتتألق في الابن ، وبالتالي أن للابن شخصية متميزة أو أوقنوماً متميزاً يحدث فيه هذا التألق . ونفس الشيء صحيح بالنسبة للروح القدس ففي الإمكان تمييزه عن الآب باعتباره أيضاً شخصية متميزة أو أوقنوماً متميزاً . لذلك نؤمن بتعليم الرسول أن هناك ثلاثة أقانيم في الله الواحد.

(ج) أخطاء يجب تنجبها

تمسك بعض المعلمين بأن المسيح هو الله وابن الله ، لكنهم قالوا بأن المسيح مخلوق ! وهذا أمر يستحيل أن يكون . فما دام المسيح واحداً مع الآب في

الجوهر ، فلا يمكن أن تكون له بداية . وهذا ما يجعلنا نعلن بتحديد قاطع أن الألوهية جوهر واحد .

وقال البعض الآخر بأننا عندما نتحدث عن الآب والابن والروح القدس ، فإن هذا لا يعني سوى صفات أو خصائص مختلفة لله . وهي صفات كغيرها من الصفات الأخرى لله مثل الحكمة والقدرة والعدل . ومن وجهة نظرهم هذه لا يكون الآب والابن والروح القدس شخصيات (أقانيم) تتميز عن بعضها . وقد تصدى المدافعون عن الحق لهذا الرأي الخاطئ بالإعلان الصريح عن وجود أقانيم ثلاثة في الوحدة الإلهية (أي في الله الواحد) .

وهناك تعليم ثالث خاطئ ، وهو القول بأن المسيح بدأ في الوجود عندما تكلم الله عند خلق العالم ، لكن – كما يخبرنا الرسول يعقوب – ليس عند الله تغيير (يعقوب ١ : ١٧) فمن الخطأ الظن بأن المسيح كانت له بداية عند خلق العالم ، إذ هو مولود من الله قبل كل الدهور وكان عند الله منذ الأزل ، فالمسيح له أزلية في ذاته ، ووجود في ذاته ، وألوهية في ذاته .

(د) معنى كلمة أقنوم

إن كلمة أقنوم كما هي مستخدمة هنا تعني شخصاً له "وجود" في جوهر الله (أي في كينونة الله) ، يتميز عن الأعضاء الآخرين في الألوهية بقسمات أو صفات واضحة وجلية وخاصة به في شخصيته وعمله . ولفظ " وجود " يقصد به الإشارة إلى شيء مختلف عما نسميه " الجوهر " الخالص لله ، أو كينونة الله . لو أن المسيح هو الله دون أن يكون له شيء يميزه في ذاته ، لما كان البشير يوحنا على حق عندما قال : " والكلمة كان عند الله . " ، لكننا نراه بعد ذلك مباشرة يذكرنا بالوحدة في الجوهر الإلهي ، فيقول : " وكان الكلمة الله" (يوحنا ١ : ١) .

وعندما نتحدث عن الله ، فنحن نتحدث عن الابن والروح القدس بنفس الحق والصواب الذي نتحدث به عن الآب . وعندما يذكر الكتاب الآب أو الابن بصفة خاصة مثل " الآب يحب الابن " أو " الآب أرسل الابن " نعرف أن كل أقنوم إلهي متميز عن غيره من الأقانيم فإن عمل الابن لا يمكن أن ينسب إلى الآب أو الروح القدس فلا يمكننا القول مثلاً بأن الآب صار إنسانا وتألم ، أو ننسب للروح القدس القول : " هذا هو ابني الحبيب " .

(هـ) أدلة من الكتاب المقدس على ألوهية الابن

عندما يتحدث الكتاب المقدس عن " كلمة الله " فإن العبارة لا تعني مجرد نطق أو حتى نبوة . إن " كلمة الله " هو الحكمة الأزلية الكائنة عند الله . هذا ويقول بطرس الرسول (١بط١ : ١١) عن الأنبياء الذين كتبوا العهد القديم أنهم كانوا " باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها " . وحيث أنه في وقت هذه النبوات لم يكن المسيح قد أظهر في العالم ، لذلك فإعلان الرسول هنا يشير بوضوح إلى المسيح على أنه الكلمة الأزلي الذي كان دائماً عند الآب . وعندما نعرف أن الروح القدس تكلم في الأنبياء هو روح المسيح ، فإننا ندرك في يقين كامل أن المسيح هو الله .

يعلم الكتاب المقدس بأن العالمين قد عُملت بواسطة الابن ، وأن الابن يحمل كل الأشياء بكلمة قدرته (عبرانيين ١ : ٢ ، ٣) . والمسيح نفسه يقول : " أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل " (يوحنا ٥ : ١٧) ويأتي هذا التعليم بصورة أوضح في بداية إنجيل يوحنا . فنرى أن الكلمة الذي كان منذ البدء هو الله ، وعند الله ، هو والآب معاً سبب كل الأشياء . ويتضح هنا بجلاء ان الكلمة أزلي ، اقنوم متميز ، والوكيل (النائب) لكل الخليقة . إن كل الإعلانات التي من الله يمكن أن تسمى كلمة الله ، لكن الجلال الأسمى يجب أن يعطي " للكلمة " ، المسيح ، الإعلان الأعظم لله عن نفسه ، لأن الكلمة هو الله .

توجد أدلة على ألوهية المسيح في العهد القديم . فالمزمور الخامس والأربعون يتحدث عن المسيح (المسيا) عندما يقول : " كرسيك يا الله إلى دهر الدهور " .(مز٤٥ : ٦) ، وإشعياء يتحدث عن المسيح باعتباره : " إلهاً قديراً ، أبا أبدياً ، رئيس السلام " (إشعياء ٩ : ٦) ، ويسميه إشعياء أيضاً " عمانوئيل ، الله معنا " . وعندما يتنبأ إرميا عن ابن داود يقول : " .. وهذا هو اسمه الذي يدعونه به : الرب برنا " (ارميا ٢٣ : ٦) . إنه حق واضح جلى أن أسماء الله العظمى التي تنسب إلى الآب ، تنسب إلى الابن أيضاً بنفس الدرجة.

وهناك العديد من الشواهد والأدلة على ألوهية المسيح في العهد الجديد . نورد بعضاً منها : ينظر العهد الجديد إلى نبوات العهد القديم عن أعمال الله أنها تحققت في المسيح . فبولس يؤكد أن نبوة اشعياء عن الرب (يهوه) أنه سيكون حجر صدمة وصخرة عثرة لبني إسرائيل ، (اش ٨ : ١٤) قد تحققت في المسيح (رومية ٩ : ٣٣) كما يعلن بولس أنه لابد " أننا جميعاً سوف نقف أمام كرسي المسيح لأنه

مكتوب أنا حي يقول الرب (يهوه) إنه لي ستجثو كل ركبة وكل لسان سيحمد الله " . (رومية ١٤ : ١٠ ، ١١) وهذا أيضاً يعد تحقيقاً لنبوة إشعياء ٤٥: ٢٣ . ويزداد الأمر وضوحاً عندما يتحدث كاتب العبرانيين عن المسيح حديث التمجيد الذي يخص الله وحده ، قائلاً : " وأنت يارب في البدء أسست الأرض والسموات هي عمل يديك " . (عبرانيين ١ : ١٠) . نعم ، من المؤكد أن العهد الجديد يقدم الشهادة اليقينية بأن المسيح هو الله. وقد كان " توما " على حق عندما صرخ قائلاً : " ربي وإلهي " .

وأعمال المسيح تعد دليلاً بعيد المدى على أنه الله . فحتى الفريسيون الذين رفضوا أقواله مراراً ، اعترفوا أنه قال إنه الله عندما أعلن : " أبي يعمل حتى الآن وأنا اعمل " فأرادوا أن يقتلوه : " لأنه قال إن الله أبوه ، مساوياً نفسه بالله " .

لقد صنع الابن معجزاته باسمه الخاص ، وليس سوى الله يمكنه أن يفعل هذا . بل إنه استطاع بسلطانه أن يعطي الآخرين أن يعملوا معجزات باسمه ، ويشفوا مرضى ويخرجوا شياطين (متى ١٠ : ٨ ، مرقس ٣ : ١٥) . وقد قال بطرس للأعرج من بطن أمه : " باسم يسوع المسيح قم وأمش " . (أع ٣ : ٦) .

(و) أدلة من الكتاب المقدس على ألوهية الروح القدس

في بداية سفر التكوين يشير موسى إلى هذه الحقيقة بوضوح عندما يقول: " وكان على وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه " . فالروح القدس منذ البداية كان يستخدم قوته للخير عندما كان العالم في طور التشكيل (في حالة اللاتكوين) . وفي إشعياء ٤٨ : ١٦ يوجد دليل لا سبيل للاعتراض عليه ، إذ يتحدث عن الله الآب والروح القدس معاً على أنهما يؤديان عملاً واحداً ، وليس مجرد أن الآب يعمل من خلال الروح القدس ، فيقول : والآن السيد الرب أرسلني وروحه " . فالروح القدس يشارك في السلطان الأعلى ، إن نشاطه وقوته ليست مستعارة بل هو منشئ التجديد ومبدع الخلود . نعرف أن الله لا يعقد مشورة مع أي كائن مخلوق ، ولدينا ما هو أكثر من المشورة إن الروح القدس يبررنا بالإيمان، ومنه تستمد القوة والحق والقداسة والنعمة وكل بركة ممكنة . ويعلن بولس بوضوح أن الروح القدس له مطلق السلطان والإرادة ولا يكون له هذا إلا لأنه أقنوم من أقانيم الله (أي شخص إلهي) وكلي الألوهية . وهو ما يعبر عنه بولس حين يقول : " هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء " . (١كو ١٢ : ١١) .

وعندما يتحدث الكتاب عن الروح القدس لا يتردد في أن يدعوه " الله " ؛ فبولس يعرف أن الروح القدس يسكن فينا ، ولذلك يقول بأننا هيكل الله . والحقيقة أن الله قد وعد مراراً بأن يختارنا هيكلاً له ، وتحقيق هذا الوعد يكتمل في هذا الحق :

أن روحه القدوس يسكن فينا . وعندما وجه بطرس اللوم إلى حنانيا لأنه كذب على الروح القدس أضاف قائلاً له : " أنت لم تكذب على الناس بل على الله " (أعمال ٥: ٣،٤) .

(ز) وحدانية الله

يوجد اله واحد . يقول بولس : إنه يوجد " رب واحد ، إيمان واحد ، معمودية واحدة ، إله وآب واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي كلكم " . (افسس ٤: ٥،٦) . لقد اعتمدنا بالإيمان بإله واحد حقيقي ، ومع ذلك وفي نفس الوقت يأمر المسيح تلاميذه أن يعمدوا : باسم الآب والابن والروح والقدس . فهذا الإله الواحد قد أعلن نفسه بأجلى بيان أنه الآب والابن والروح القدس .

(ح) التمييز في الثالوث الأقدس

هذا سر عظيم ، ويجب أن نحرص دائماً على التكلم بكل وقار عن هذا الحق الجليل . إن أحد العلماء المسيحيين من زمن طويل (جريجوري النزيانزي) قال : " إنني لا أكاد أتأمل في الواحد حتى أجد نفسي محاطاً بمجد الثلاثة ، ولا تكاد أفكاري تميز الثلاثة حتى تقفل راجعة إلى الواحد ". فلا يجوز لنا أن نتصور الألوهية على أنها الله الواحد فقط أو على أنها الثلاثة فحسب .

إن الكلمات : الآب والابن والروح القدس ، لا تعني أنهم مجرد أسماء ، إذ أن بينهم تميزاً أو اختلافاً حقيقياً . لكنه تميز بدون إنفصال لم يكن ممكناً القول بأن الابن كان " عند الله " أو أن له " مجداً مع الآب " ، لو أنه كان نفس أقنوم أو شخص الآب . فالآب لم يأت إلى العالم ، لكن الابن جاءه والابن هو الذي مات وقام ثانية . والتمييز بين الآب والابن أمر أزلي لم يبدأ – كما يظن البعض – بتجسد الابن . فالابن الوحيد المولود كان في حضن الآب منذ الأزل وكان له مجده الخاص مع الآب . كما يوجد أيضاً تمييز واضح بين الآب والروح القدس ، لأن الكتاب يقول عن الروح القدس إنه منبثق من الآب . والروح القدس ليس مثل المسيح لأن المسيح يسميه " آخر " عندما يقول : " وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر " (يوحنا ١٤ : ١٦) . " روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي " (يوحنا ١٥ : ٢٦) .

يوجد تميز في العمل بين الأقانيم الثلاثة لله . فالآب هو بدء العمل ومصدر كل الأشياء . والابن يملك الحكمة والمشورة والتدبير والتوجيه . والروح القدس له القوة الفعالة في العالم لكن ينبغي ألا نبالغ في التأكيد على هذا التميز في العمل .

إن أزلية الآب هي نفسها أزلية الابن والروح القدس ولا يوجد أولوية لواحد على الآخر ؛ ومع ذلك فنحن نستخدم عادة ترتيباً في الحديث عن الأقانيم الإلهية ، وحسناً نفعل . فالآب يذكر أولاً ، والابن من الآب، والروح القدس منهما كليهما . ويمكننا أن نعرف من رومية (الإصحاح الثامن) أن الروح القدس من الآب والابن في نفس الوقت ، إذ يسميه بولس هنا روح المسيح ، ثم يقول عنه بعد ذلك : الروح الذي أقام المسيح من الأموات .

إن هذه الحقيقة تشجع وتسند إيماننا ، رغم صعوبة فهمها . ذلك أن وحدة الآب والابن هي أكثر ما يتضح لنا من خلالها : إن الآب والابن لهما روح واحد ، ويترتب عليها كذلك أن الروح القدس لا يمكن أن يكون مختلفاً عن الآب والابن . ومع أن كل أقنوم في الثالوث الأقدس له شخصيته المميزة له ، فإن كل أقنوم هو في نفس الوقت كلي الألوهية ، ومن هنا كان للمسيح أن يقول : " أنا في الآب والآب في " .

لنكن إذن على يقين من هذا كأساس لإيماننا : نحن نؤمن بإله واحد . ونعني أن هذا الإله الواحد كائن فريد غير مقسم ، يحتوي على ثلاثة أقانيم . ونحن كذلك عندما نستعمل اسم " الله " بلا تحديد فإننا نعني – ضمنياً – الابن والروح القدس . لكن بسبب وجود ترتيب محدد في الأقانيم الإلهية (كما جاء على لسان المسيح في متى ٢٨) فيستخدم أحياناً الاسم " الله " للتعبير عن الآب حين نتحدث عن الابن أو الروح القدس منسوباً إلى الآب ، فنقول " ابن الله " أو " روح الله " . نحن إذن نؤمن بوحدة الله ، وبترتيب أقانيم الله ، ولا ننقص من ألوهية الابن وألوهية الروح القدس .

١٤ – التمجيد المستحق لله وحده لا يجوز إعطاؤه لأي من مخلوقاته

دونت قصة الخلق في الكتاب المقدس لكي لا نطلب إلها آخر أو نقدم عبادةً أو سجوداً لملائكة أو شياطين أو أي خليقة لله في الأرض . فالله أعظم من الأشياء التي صنعها .

(أ) الملائكة

يعد هؤلاء من بين أعظم مخلوقات الله تألقاً وصفاءً ، بالرغم من أنهم ليسوا كائنات إلهية . وهناك حقيقة جديرة بأن نقبلها ، وهي أن الله رأى – في حكمته – أنه ليس من المناسب أن يعطينا معلومات كثيرة عن الملائكة . فنحن لا نعرف متى خلقوا ، وكل ما نعرفه مما كتبه موسى بالوحي هو أن السموات والأرض وكل

جندها قد أكملت (تكوين ٢ : ١) . ولا نعرف كم عدد الملائكة لكننا نعرف – مع اليشع ، أن " الذين معنا أكثر من الذين علينا " .

يخبرنا الكتاب المقدس أن الملائكة خدام لله ، وأنهم صنعة يديه ، يطيعونه ، ويحملون أوامره ، ويضعون قرارته موضع التنفيذ . إن كلمة " ملاك " معناها رسول أو مرسل . وقد دعى الملائكة بـ " الجند السماوي " أو " الجيش السماوي " ؛ لأنهم يحيطون بملكهم مظهرين عظمته ، مستعدين لإطاعة أوامره . والأمر المعزي أن الملائكة هناك ليخدموا ، ليحضروا لنا عطايا الله ، وأنهم أيضا– كما يقول الكتاب – يسهرون على سلامتنا ونجاتنا ، ويدافعون عنا ويوجهوننا ، ويعتنون بحراستنا من كل أذى . ولعله يوجد ملاك خاص لكل مؤمن يقوم بحمايته وحراسته . لكن المؤكد أن جميع الملائكة يهتمون بسلامتنا ، وهم يفرحون بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى التوبة .

لكن الله لم يصنع الملائكة لكي يشاركوه مجده . ولا يقدم لنا مساعدتهم بقصد أن نتكل عليهم أو نثق فيهم ولو جزئياً . فالملائكة ليسوا إلا خدام الله العاملين على توصيل قوته لنا ، وإمدادنا بجوده وإحسانه .

(ب) الشياطين

ينبغي أن يكون مفهوماً أن الشياطين من خلائق الله ، وأنه لا يمكن أن يكون لهم وجود بعيداً عن إرادة الله . إن الاعتقاد بغير هذا يجعل للشياطين وجوداً في ذاتها ، بينما الله هو الوحيد الموجود بذاته ، ومنه كل الحياة . لكن ينبغي أيضاً أن نؤكد أن شر الشياطين ليس من الطبيعة التي أعطاها الله لهم ، بل إن طبيعتهم قد أفسدت بواسطة الخطية .

والمعلومات التي أعطيت لنا في الكتاب المقدس عن الشياطين ، أعطيت أساساً بقصد تحذيرنا ضد هجماتهم . فقد لقب الشيطان بالرجل المسلح القوي ، ورئيس سلطان الهواء ، وأسد زائر . هذه الألقاب تدفعنا أن نكون أكثر يقظة واستعداداً للنزال . هذا ما يقرره بطرس بصراحة حين يقول : " اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو " . وبالتالي يطلب منا قائلاً : " فقاوموه راسخين في الإيمان " . (١بط ٥: ٨،٩) . وبولس يطلب منا أن نتسلح بسلاح الله الكامل استعداداً للمعركة الطويلة الخطيرة ، لأن " محاربتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء ، مع السلاطين ، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات " .(أفسس ٦ : ١٢) .علينا إذن ألا نعطي مجالاً للكسل أو التراخي ، أو الخوف ، فقد علمنا أن نكون أقوياء ، جسورين ،

مجتهدين ، مثابرين حتى النهاية . كما ينبغي أن نتحذر بشأن ضعفاتنا الخاصة ، ونطلب من الله عوناً ، وتعضيداً بالسلاح والقوة والحكمة التي نحتاجها .

والشيطان ليس خصماً وعدواً لنا وحسب ، بل هو عدو الله ، ونحن نحارب من أجل مجد الرب وكرامته . فإذا كنا نرغب في تقدم ملكوت إلهنا ، يجب علينا أن نكون في حرب متواصلة مع الروح الشرير، الذي يحاول هزيمة هذا الملكوت ، ويخطط لهلاكنا الأبدي لو أمكنه ذلك فلا مهادنة مع مثل هذا العدو الذي يُدخل في قلوب الناس وعقولهم الأباطيل والأكاذيب عوضاً عن الحق ، ويثير الكراهية ، وينشيء الانقسامات والمشاحنات . إن الشيطان بالطبيعة شرير وفاسد.

إن شرور إبليس ترجع برمتها إلى اختياره لطريقه الخاص . ويقول لنا المسيح عن إبليس ، إنه " متى تكلم فإنما يتكلم مما له لأنه مذاب وأبو الكذاب " ، كما يقول إنه " لم يثبت في الحق " (يوحنا ٨ : ٤٤) . من هنا يتضح أن الشيطان كان له يوماً هذا الحق ، لكنه لم يثبت فيه .

ورغم أن الشيطان يحارب ضد الله ، إلا أنه لا يقدر أن يفعل هذا من غير موافقة الله . ونعرف من سفر أيوب أن الشيطان لم يكن في إمكانه تنفيذ خططه القاسية لإلحاق الأذى بأيوب دون إذن من الله . أكثر من هذا فإننا نتعلم من " تسالونيكي الثانية " أن عمى أذهان غير المؤمنين ليس من مجرد عمل الشيطان بل إنه أيضاً ناتج عن دينونة من الله " .. ولأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب ، لكي يدان جميع الذين لم يصدقوا الحق ، بل سروا بالأثم " . (٢تسالونيكي ٢ : ٩ – ١٢) .

إن الله قادر على التحكم والسيطرة على الشيطان (أو الأرواح النجسة) ، سيطرة كاملة بحسب إرادته. بل إنه يسمح لهم بتجربة المؤمنين بل إن المؤمنين قد تتم تنقيتهم وتزكية إيمانهم بفعل هذه التجارب الصادرة عن هذه الأرواح الشريرة . وإن كانت هذه الأرواح الشريرة يمكنها أن تضايقنا بإثارة المشكلات ونصب الفخاخ ومحاولة الإيقاع بنا عن طريق هجماتها الشريرة ، لكن لا يمكنها أبداً أن تحطم المؤمن ، فالله لا يسمح لها بأن تفعل هذا . وقد كان بولس يعاني من هجوم وصراع مثل هذا ، حين كتب يقول : " ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أعطيت شوكة في الجسد ، ملاك الشيطان ليلطمني لئلا أرتفع " . (٢كورنثوس ٧ : ١٢) .

وأرى لزاماً علي أن أوجه النظر إلى فساد التعليم ، وسخف الفكرة التي تقول بأن الشياطين ليسوا سوى أهواء وانفعالات شريرة في داخل أنفسنا تجعلنا نخطئ . فالكتاب المقدس ينكر هذا بكل وضوح ، ويتحدث عن الشياطين على أنها "

أرواح نجسة " وملائكة ساقطين تركوا مركزهم الأول ، و" لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم " (يهوذا ٦) وهكذا نرى أن الشياطين ليسوا مجرد أفكار في عقول البشر بل هم واقع حقيقي ، لهم أفكارهم الخاصة وفهمهم الخاص . بل إننا نجد الكتاب المقدس أيضاً مقارنة بين أولاد الله وأولاد الشيطان ، فإذا كان أولاد الشيطان مجرد أفكار شريرة ، فإن هذه المقارنة تكون بلا جدوى ، وغير ذات موضوع . (وحاشا أن تكون كذلك لأنها مقارنة كتابية) . ثم إننا قد أخبرنا بأن الشياطين معينون لدينونة أبدية في نار جهنم ، وغنى عن البيان أن هذا لا يكون صحيحاً إذا كان أمر الدينونة متعلقاً بالأفكار الشريرة .

(ج) العالم المادي

إنه لأمر يبعث على البهجة أن نتأمل في جوانب الجمال في هذا العالم الذي أعطاه الله لنا . إن من أوليات علامات الإيمان أن ندرك أن كل ما يحيط بنا في هذا العالم هو صنعة يدي الله ، وأن نشتاق إلى معرفة سبب صنع الله لهذا العالم . إن دراسة قصة الخلق أمر يقوى إيماننا فمنها نتعلم أن الله بقوة كلمته المباركة وروحه القدوس خلق السماء والأرض من العدم وجعلهما تخرجان أشياء مخلوقة ، سواء ذات حياة أو غير ذات حياة . وقد أعطى الله لكل شيء في متناول إدراكنا ، طبيعته الخاصة ووظيفته المتميزة ، وترتيبه الخاص . وحيث أن جميع هذه الأشياء تخضع للزوال فقد أوجد الله طريقة لحفظ النوع بإعطائها قدرة على التوالد والتكاثر . ثم أخيراً صنع الجنس البشري ، وميز البشر عن باقي الخليقة بمنحهم جمال الصورة إلى جانب القدرات والإمكانات الهائلة . إن البشر في بستان خليقة الله هم أعظم أعماله روعة وأكبرها إعجازاً.

ولا يتسع المجال هنا لبحث مستفيض عن أعمال الله العظيمة . لا يوجد أي إبداع لفظي أو أدبي يسعفنا بكلمات تقدر أن توضح لنا كيف أن حكمة الله وبره وصلاحه وقوته الظاهرة في الكون ، هي فوق مستوى إفهامنا . لكن هذا لا يعني أن نمتنع عن التأمل فيها . إن جوانب الجمال في العالم هي مرآة لصلاح الله وحكمته وقدرته . والتأمل في الخليقة ، يجعل تقديرنا لعظمة الله ينمو ويزداد بدرجة رائعة .

وبناء على ذلك ، دعونا أولا نتأمل – بإعجاب – في عظمة المهندس الأعلى الذي أبدع النجوم ونسقها في ترتيب رائع كهذا ، مثبتاً بعضاً منها في أماكن معطياً بعضها الآخر مساراً متحركاً ومنضبطاً . ثم هو يتحكم في حركتها لضبط النهار والليل والشهور والسنين والعصور . بل إنه يغير طول النهار ، لكن دون

أدنى خلل أو اضطراب ، وما أكثر ما هناك من الأمثلة التي يمكن اختيارها لإبراز جود الله وحكمته في خلقه لكل الأشياء ، الكبيرة منها والصغيرة .

ودعونا ، ثانياً ، نرى كيف أن هذه الخليقة يتحتم أن يكون لها تأثير علينا. ذلك أننا عندما نرى بالإيمان أن الله قد صمم كل الأشياء لخيرنا ، سوف نتعلم أن نتجه إليه بثقة وتضرع وتمجيد ومحبة . كان في قدرة الله أن يصنع العالم في لحظة ، لكنه تبارك اسمه ، صنعه على مدى ستة أيام ، وهذا من دلائل لطفه وعلامات محبته للبشر ، لأنه بهذا كان يجهز مسبقاً كل ما نحتاج إليه من أشياء . لذلك فإنه لا يشك في عناية الله المستمرة إلا جاحد ، كيف نشك في عناية الأب الحنان الذي أظهر اهتمامه بنا من قبل أن ننال نسمة الحياة ؟ إن مجرد التفكير في أن الله قد يتخلى عنا في وقت حاجتنا وشدتنا – بينما قد غمرنا في السابق بفيض من البركات – يعد بحق خطية .

وعندما ننظر إلى الله في خلق السموات والأرض ، ليتنا نذكر أنه المسيطر على كل أعماله ، وأنه تعهد بإعالتنا وحمايتنا نحن أولاده ، ولنا أن ننتظر منه كل خير وإحسان ، واثقين . ولا يجب أن نسأل شيئاً من أحد سواه ، فلنقدم له الشكر الدائم على عطاياه وخيراته . ولتتجه قلوبنا نحو الرب لنحبه من كل قلوبنا ونتعبد له بكل كياننا .

١٥ – خلق الإنسان

من بين كل أعمال الله ، يعد الإنسان أفضل مثل على عدل الله وحكمته وصلاحه . وكما قلنا من قبل، إنه لا يمكن أن يكون لنا معرفة واضحة عن الله بدون معرفة صحيحة عن أنفسنا . وتتضمن معرفة " الإنسان " أمرين : معرفة كيف خلق الإنسان أصلاً ، ثم معرفة وضعه منذ السقوط (سفر التكوين : الإصحاح الثالث) ، والأمر الأول (حالة الإنسان الأصلية) هو موضع اهتمامنا هنا في مسألة " خلق الإنسان " . من واجبنا أن نعرف ما الذي كان عليه شكل الإنسان قبل سقوطه في الخطية ، حتى لا يتجاسر أحد ويوجه اللوم إلى الخالق فيما يتعلق بشر الإنسان . إن أخطاءنا ليست من الله . كما لا يمكن أن نعلق خطايانا على شماعة " الطبيعة " ، لأن هذا يهين الله ، إذ أنه كان هناك بعض الشر في صنعة يدي الله . وقبل الدخول في أية تفاصيل يجب أن نقدر حقيقتين ثابتتين لا مجال لإنكار أي منهما : الأول أنه لا عذر للإنسان الخاطي ، وثانيهما أن عدل الله دائم النقاوة والصفاء والمصداقية .

لقد صنع الإنسان من جسد ونفس ، ونعني بالنفس الجزء الأسمى منه ، وهي وإن كانت تسكن في الجسد لكنها خالدة وتحيا بعد موت الجسد . إن النفس

والروح كلمتان مترادفتان ، يمكن أن تحل الواحدة محل الأخرى ، لكن عندما يستخدمان معاً يكون لكل منهما معناها الخاص .

وقد انغمس البشر كثيراً في الأمور المادية حتى أن الكثيرين منهم ينسون أن لهم نفساً . فهم ينسون أو يتناسون أن سيكون لهم وجود بعد الموت ، لكنهم لا يقدرون أن يعيشوا دون إحساس ما بخلودهم . إن لكل إنسان ضميراً يتجاوب مع شريعة الله الأدبية ويميز بين الخير والشر . لكن الضمير ليس مجرد التمييز العقلي للخير والشر ، ولا هو مجرد قوة إرادة ، فإن الإدراك الطبيعي والإرادة الطبيعية سيموتان بموتنا ولا يلزمنا الخوف من دينونة الله . وحيث أنه من الثابت أننا نشعر بالخوف من الدينونة والعقاب إذا ارتكبنا ما هو خطأ ، لذلك فالضمير جزء من النفس الخالدة ، والنفس فينا هي الجزء الذي يخشى إرتكاب الخطأ في هذه الحياة لكي لا تتعرض للدينونة والعقاب في الحياة الأخرى .

وهناك دليل آخر يثبت أن لنا نفساً ، وهو تفوق العقل البشري وامتيازه . فإدراك الإنسان يسمو ويعلو بما لا يقاس فوق كل الحيوانات ، إذ يمكن للبشر أن يتأملوا في السموات والأرض ، وفي استطاعتنا كبشر أن نتأمل في الماضي ، ونتطلع إلى المستقبل ، ولنا أفكار ومفاهيم عن إله غير مرئي . إن شيئاً أعظم بكثير من مجرد الجسد المادي يدخل بالتأكيد في تكوين الإنسان .

ويوضح لنا الكتاب المقدس أن النفس لها وجود خاص بمعزل عن الجسد. فنتعلم أننا " سكان بيوت من طين " (أيوب ٤: ١٩) وأنه عند الموت سينقض بيتنا ، ونخلع هذا الفاسد أي الجسد الفاني (١كو١٥: ٥٣) وأنه في اليوم الأخير سينال " كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع " (٢كو٥ :١٠) . من هذه الفقرات الكتابية وغيرها الكثير ، نتعلم أن النفس متميزة عن الجسد ، بل هي الجزء الرئيسي في الإنسان .

وهناك أدلة كتابية أخرى تعزز هذا التعليم . فبولس يناشد الكورنثيين أن يطهروا ذواتهم من كل دنس الجسد والروح (٢كو٧ :١) موضحاً أن الشر ينجس كلا الجزئين اللذين يتكون منهما الإنسان . الرسول بطرس يشير إلى المسيح باعتباره " راعي نفوسنا وأسقفها " ويكون هذا اللقب عبثاً عن الخلاص الأبدي لنفوس البشر إذا لم يكن للبشر نفوس . وقد أعلن المسيح بوضوح أن لكل منا نفساً، عندما قال : " لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها ، بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جنهم" (متى ١٠: ٢٨) . كما يتحدث المسيح عن النفس مستقلة عن الجسد في ثنايا عرضه لقصة

لعازر حين مات وحُملت نفسه إلى حضن إبراهيم بينما نفس الغنى كانت في العذاب . كما يؤكد الرسول بولس نفس الحقيقة عندما يقول إننا ونحن في الجسد نكون متغربين عن الرب ، لكننا عندما نترك الجسد نتمتع بمحضره . (٢كورنثوس ٥ : ٦ ، ٨) .

ويزداد إيماننا رسوخاً بأن لنا نفساً عندما نتأمل في خلق الإنسان على صورة الله . فنجد أن مجد الله يلمع بدرجة ما في الجسد المادي البشري . ونراه يحتوي على سمو وامتياز لا سبيل لإنكاره وعلى جمال يفوق ما للحيوانات . ومع ذلك فالصورة الإلهية التي خلقنا على شبهها تكمن في النفس . لقد أعطى آدم إدراكاً صائباً مع عواطف يحكمها عقل سليم ، وحواس تخضع لتوجيه مرتب وكامل .

فقد الجنس البشري ككل صورة الله هذه في نفسه منذ سقوط آدم في الخطية . لكن المسيح ، آدم الثاني ، قادر أن يعيد فينا هذه الصورة ؛ صورة نفسه. يقول بولس للمؤمنين أنهم قد لبسوا الجديد (الطبيعة الجديدة) الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه (كولوسي ٣ : ١٠) . ومن هنا نتعرف على سمات هذا التجديد : السمة الأولى هي المعرفة ، والثانية هي البر أو القداسة الحقيقية . فمن خلال سقوط آدم فقد الإنسان نور المعرفة الذي كان يملأ عقله ، كما فقد استقامة القلب وسلامة قدراته وملكاته جميعاً ، ومن كورنثوس الثانية نتعلم أننا نحتاج إلى أن نتغير إلى صورة الله : " ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد " . (٢كو ٣ : ١٨) ، إننا نتغير إلى مشابهة صورة المسيح الذي هو صورة الله تماماً ، وصورته هي القداسة الحقيقية والنقاوة الكاملة والإدراك السليم . وصورته فينا تصل إلى ذروة إشراقها ومجدها عندما نصل إلى السماء .

إن نفس الإنسان تحرك جميع أجزاء جسده تحريكاً حيوياً ، وتتولى زمام القيادة في ضبط وتوجيه حياة الإنسان . يعتقد بعض الفلاسفة أن الإنسان يقع تحت حكم وتوجيه عقله ، وأن ذلك العقل بمفرده ، يمكن أن يقود الإنسان لفعل الصواب، لكنهم لا يأخذون في اعتبارهم أن طبيعة الإنسان قد فسدت بواسطة السقوط ، وبذلك يخلطون بين حالتين للإنسان ، مختلفتين تماماً ، وهما : حالة الإنسان كما خلقه الله ، وحالته من يوم أن سقط في الخطية .

وفي سبيل الحصول على معلومات أوفر عن النفس ، دعونا نقبل هذه المعلومة : إن النفس البشرية تتكون من قسمين : الإدراك والإرادة . الإدراك يوضح الفرق بين الخير والشر ، والإرادة تختار بينهما .

إن الإنسان عندما خلقه الله كان يملك إرادة حرة . وكان آدم يملك القوة على مقاومة الإغراء والتجربة إذا أراد ذلك . وقد سقط آدم بإرادته الخاصة . كان عقله كاملاً وإرادته سليمة في الحالة الأصلية التي خلق عليها . وكانت كل أجزاء كيانه البشري خاضعة لإرادته ؛ كانت له حرية الاختيار بين الخير والشر ، لكنه عندما اختار الشر دمر نفسه ، وهكذا فسدت كل قدراته . ومن ذلك الوقت فصاعداً لم يعد الإنسان محكوماً حكماً كاملاً بواسطة عقله . لقد وقف الفلاسفة على جانب من الصواب عندما قالوا إن الإنسان لا يمكن اعتباره مخلوقاً عاقلاً إذا لم يكن يملك حرية الاختيار بين الخير والشر وأنه إذا لم يكن له أن يتحكم في حياته بإرادته الخاصة ، فلن يكون في اختياره للخير أي صلاح ، أو في اختياره للشر أي طلاح أو عصيان . لكن الفلاسفة لم يصلوا إلى تمام الصواب ، إذ لم يدخلوا في الاعتبار التغيير الذي حدث في الطبيعة البشرية بفعل السقوط ، الأمر الذي يجب ألا نفعله ، فالإنسان لم يعد يملك إرادة حرة ، لأن إرادتنا قد قيدتها الخطية .

١٦ ــ الله دائم العناية بكل جزء من أجزاء الكون الذي صنعه

نحن نؤمن أن الله عندما خلق الكون لم يخلقه ليتركه بعد ذلك يسير على هواه بغير ضبط أو ربط . فنحن نعتقد في استمرارية حكم الله للكون ، وهذه نقطة أساسية من نقاط الخلاف بيننا وبين غير المؤمنين . نحن نفهم عمل الله في الحركة المستمرة للطبيعة بقدر ما نفهم عمله في إنشائها وصنعها . يقتنع الكثيرون بوجود خالق عندما يرون عمله ، لكن الأمر يتطلب إيماناً قلبياً لنرى عمل الله الدائم المتواصل بإتقان : " بالإيمان نفهم أن العالمين أتقنت بكلمة الله " (عب ١١ : ٣) .

على أننا يجب أن نتقدم خطوة أكثر إلى الأمام لنرى عناية الله ورعايته للعالم الحاضر . ينبغي أن نعلم أن الله ليس هو خالق كل الأشياء وحسب ، بل هو أيضاً الحاكم المسيطر والضابط والحافظ الذي يعني عناية خاصة بكل فرد من مخلوقاته ، ولكل منها عنده تقدير خاص حتى أصغر عصفور .

ويجب علينا أن نفهم بوضوح أن عناية الله لا علاقة لها بالحظ أو المصادفة . وقد ظل الناس منذ مئات السنين وإلى يومنا هذا يظنون أن حوادث كثيرة كان وقوعها مصادفة . فإذا ما هوجم إنسان على يد لصوص ، أو تحطمت به سفينة وهو في عرض البحر ، أو وجد واحة في قلب الصحراء ، أو كانت له نجاة عجيبة من موت محقق ، فإنهم ينسبون كل ذلك إلى المصادفة . لكننا نعلم أنه حتى جميع شعور رؤوسنا محصاة . ونعلم أن الله القدير الذي يعتني بنا لا يسمح لأي

شيء يحدث لنا بمحض المصادفة . فكل الحوادث تحكمها وترتبها بدقة مشورة الله السرية .

وهكذا نرى أن قدرة الله الكلية أسمى بكثير من تلك القدرة التي ينسبها إليه الفلاسفة . فالله بعدما أكمل الخلق لم يعد عاطلاً كما يظنون ، بل هو الساهر القدوس المتيقظ القوي ، الدائب العمل . وهو كلي القدرة ليس لمجرد أنه أنشأ العالم وأوجده ، كما يظن الفلاسفة ، بل لأنه أيضاً يحكم ويضبط السماء والأرض بعنايته ورعايته الرحيمة ، ولا تتمثل هذه العناية في تربيته للكون وتنظيمه لمسار الطبيعة فحسب ، بل إن رحمته وصلاحه متجهة باستمرار في محبة أبوية نحو جميع شعبه .

عندما نعرف تماماً قدرة الله الكلية ، لا نتوانى في تقديم الطاعة له ، ونرتاح في أمان وسلام في حمايته . لن تنتابنا مخاوف وهمية . فالبعض يظن أن النجوم هي التي تحكم العالم وتسيطر عليه وينزعجون بشأن التنجيم وما يسمى الأبراج . أما نحن فنثق مطمئنين ، ونطمئن واثقين أن إرادة الله السرية تحكم العالم وتسيطر عليه تماماً ، حتى إنه لا شيء يمكن أن يحدث مطلقاً بدون إذنه ، ولا بغير علم إرادته .

وهناك نقطة أخرى يجب أن تكون واضحة في أفهامنا . وهي أن عناية الله أعظم بكثير من مجرد " المعرفة السابقة " (بمعنى أن الله لا يقتصر دوره على معرفته السابقة لما سيحدث لنا ، بل إنه يرعانا ويعتني بنا ويدبر كل ما هو لخيرنا) . إن عناية الله ترى في العمل الدائب المستمر . والقول بأن الله يحكم العالم بصفة عامة قول يفتقر إلى الحق والصدق . إن الكيان البشري لا يتحرك أو يعمل من قبيل المصادفة أو بإرادته الخاصة . إن عناية الله بالعالم في الزمن الحاضر تعني أن عمله في تدبير أمور الناس مستمر ومتصل بلا كلل أو ملل . إن القرار بشأن ما يحدث في العالم لا يرجع في جزء منه إلى اختيار الله والجزء الآخر إلى اختيار الإنسان ، فليس للإنسان أي دور فيه ، لأن الاختيار دائماً هو اختيار الله .

إن الله هو الضابط والمسيطر على كل الأشياء والكائنات الحية والتي لا حياة فيها . فبفضل عنايته الأبوية يكون لنا محصول طيب أو رديء ، رحلة آمنة أو تتحطم بنا السفينة . إن الله كلي القدرة صاحب السلطان الكامل ، لذلك يجب أن نفهم أنه بقرار منه يكون لنا أوقات طيبة أو سيئة ، ونعلم أنه حنان وشفوق يقدم لنا الأشياء الطيبة التي نحتاج إليها . وعندما نمر بأوقات سيئة يجب ألا نظن أن ذلك بسبب عدم قدرة الله على تقديم ما هو أفضل . لقد أعلنها المسيح على الملأ كحقيقة

كونية : أنه حتى المخلوق الصغير مثل العصفور لا يسقط إلى الأرض بدون إرادة الآب الذي في السماوات .

وإذ نعرف أن الله صنع العالم من أجل الإنسان ، فإن لنا أن نتوقع أنه يدير دفة هذا العالم ويوجهه لصالح الإنسان . يقول النبي ارميا : " عرفت يا رب أنه ليس للإنسان طريقه ، ليس لإنسان يمشي أن يهدي خطواته " . (ارميا ١٠ : ٢٣) . ويقول لنا سليمان : " من الرب خطوات الرجل ، أما الإنسان فكيف يفهم طريقه ؟ " (أمثال ٢٠ : ٢٤) . في ضوء هذه الآيات الكتابية لا يمكننا أن نقبل التعليم الذي يذهب إليه البعض ، ويقول بأن الله يعطي الإنسان القوة على الحركة بينما الإنسان هو الذي يختار تحركاته الخاصة ! إن الاختيار والقصد هو لله كل الطريق من البداية إلى النهاية . بل إن الحوادث التي تبدو أكثر من غيرها أنها وليدة المصادفة ، حتى هذه ، تقع بكل تأكيد تحت سيطرة وتوجيه الله . فإذا قتل إنسان عرضاً دون تعمد بواسطة إنسان آخر فإن هذا لا يتم بغير إذن من الله ، ويقول الله لموسى : " ولكن الذي لم يتعمد (أن يقتل) بل أوقع الله في يده فأنا أجعل لك مكاناً ليهرب إليه " (خروج ٢١ : ١٣) . ويظن الكثيرون أن القرعة تخضع للمصادفة وحدها ، لكن الله يعلن سلطانه على القرعة أيضاً : " القرعة تلقى في الحضن ، ومن الرب كل حكمها " . (أمثال ١٦ : ٣٣) .

إن عناية الله الحنون الرقيقة بالعالم ، ليست مجرد عناية عامة ، بل هي أيضاً عناية خاصة وشخصية . وفي الكتاب المقدس أمثلة عن هذه العناية الرقيقة في حالات خاصة . فقد أرسل الله ريحاً لتحمل السلوى من البحر (عدد ١١ : ٣١) وأعد ريحاً عاصفة عندما أراد ليونان أن يلقي في اليم . ويخبرنا الكتاب أيضاً عن سلطان الله على الطبيعة كلها : " المسقف علاليه بالمياه ، الجاعل السحاب مركبته، الماضي على أجنحة الريح ، الصانع ملائكته رياحاً وخدامه ناراً ملتهبة " . (مزمور ١٠٤ : ٣،٤) . وأيضاً " أمر فأهاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه . يهدئ العاصفة فتسكن وتسكت أمواجها " . (مزمور ١٠٧ : ٢٥،٢٩) . وحتى الشيء العادي كالخبز الذي نأكله يعطي لنا من عند الله الذي علمنا أن نصلي له قائلين خبزنا كفافنا أعطنا اليوم " .

لكن هذا التعليم الصحيح بأن الله يضبط وينظم كل جزء في العالم في كل وقت يمكن أن يأخذ شكلاً مرعباً إذا فسر على أن العالم محكوم " بالقضاء والقدر"، وهي فكرة يتحتم على المسيحيين أن يرفضوها تماماً . " فالقضاء والقدر " أشبه بالمصادفة العمياء أو الحظ الأعمى ، وليس هذا ما نعلم به . إن فكرة تحكم القضاء

والقدر في الجنس البشري فكرة غير مسيحية على الإطلاق . فنحن نؤمن إن إلهنا المحب يراقب ويشرف على كل شيء بعناية ومحبة أبوية .

على أن عقولنا كثيراً ما تتبلد أو يستعصي عليها إدراك الآفاق العليا والغايات السامية لأعمال الله . ومع أن كل الأشياء مرتبة بإرادة الله المؤكدة ، فإنها قد تبدو لنا وكأنها مصادفة ، فالقصد الإلهي الذي يكمن وراء الكثير من الحوادث مخبوء ومخفي عنا .

وهناك في قصة داود مع شاول حادثة جديرة بالملاحظة ، ترينا توجيه الله لدفة الأمور ، وإرادة الله للحوادث التي لم يكن لداود أي سلطان أو تحكم فيها . ذلك أنه في اللحظة الحاسمة التي فيها كان داود محاصراً من قبل شاول في برية " معون " ، اقتحم الفلسطينيون الأرض ، وتحتم على شاول أن يرجع عن محاولة القبض على داود ليذهب لقتال الفلسطينيين ، وهي حادثة لم تقع مصادفة بل إن توقيت حدوثها كان محدداً بدقة من الله . فإذا كان لنا إيمان أمكننا أن ندرك أن ما قد يبدو مصادفة هو في الواقع عمل سري من أعمال قوة الله العظيمة .

١٧ – كيف نستخدم هذه العقيدة الخاصة بالعناية الإلهية وننتفع بها

لا يمكننا التأمل بحق في عناية الله المستمرة وتدخله الدائم في العالم ، إلا إذا وضعنا في اعتبارنا أننا نناقش ونبحث أمر صانعنا وجابلنا وخالق كل العالم . لذلك نتكلم بوقار وإجلال وكل تواضع . لا يرغب الكثيرون في الاعتقاد بأن الله يملك قوة اكبر من مستوى إدراك عقولهم . لكننا نقول مع بولس : " يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه ، ما ابعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء " . (رومية ١١ : ٣٣) . فهناك عوائص وخفايا لا نستطيع إدراكها ، لكن الله قد سمح لنا بأن نعرف بعضاً من طرقه ، فإن " السرائر للرب إلهنا والمعلنات لنا ولبنينا إلى الأبد لنعمل بجميع كلمات هذه الشريعة " . (تثنية ٢٩ : ٢٩) .

(أ) في تعزية المؤمنين

مع أنه كثيراً ما تكون أسباب الحوادث مخفية عنا إلا أننا نستطيع أن نؤمن إيماناً وطيداً أن الله يجري قصده وينفذ خطته . ويمكننا أن نقول مع داود : " كثيراً ما جعلت أنت أيها الرب إلهي عجائبك وأفكارك من جهتنا . لا تقوم لديك. لأخبرن أتكلمن بها . زادت عن أن تعد " . (مزمور ٤٠ : ٥) .

عندما نقع في ضيقة يحسن بنا أن ننظر إلى دواخلنا لنرى هل نحن السبب في هذه المتاعب . فإن كنا قد أخطأنا نحتاج أن نتوب ، لكن الآب السماوي له مطلق الحق في أن يفعل ما يريد . قد تكون البلوى أو الألم بمثابة عقاب ، لكن في أوقات أخرى قد يعاني الإنسان ألماً لأجل إظهار مجد الله . كان هذا أمر الإنسان المولود أعمى . فقد قال يسوع : " لا هذا أخطأ ولا أبواه ولكن لتظهر أعمال الله فيه " . (يوحنا ٩ : ٣) . إن إدراكنا البشري قد يعتبر هذا عملاً غير عادل ، لكنه أحد الأسرار التي لا يمكننا استيعابها أو إدراك كنهها . ولا يجوز لنا أن نحاسب الله أو نلومه ، بل ينبغي علينا أن نحترم ونوقر مشوراته السرية .

(ب) فيما يتعلق بالمستقبل

من أمثال سليمان نعرف أن طريق الإنسان أو الهدف الذي يسعى إليه يتسق وينسجم مع خطة الله ، إذ يقول : " قلب الإنسان يفكر في طريقه والرب يهدي خطواته " .(أمثال ١٦ : ٩) . إن أحكام الله وقرارته لا تمنعنا من التروي والتدبر والتخطيط لشئون حياتنا ، لكن شريطة أن نظل مدركين لعناية الله المهيمنة على كل شيء ، ولسلطانه المحب . لقد أعطانا الله حياة ، وأعطانا الوسائل والوسائط لكي نعتني بحياتنا ، وأعطانا قدرات معينة بها نستطيع توقع الأخطار أو إدراك مكمن الخطر قبل حدوثه ، وعلمنا أن نكون حذرين ، يقظين ، وأن نحاول جاهدين علاج الأمور الملتوية وغير اللائقة في حياتنا . وبناء على ذلك فإن الله ينتظر منا أن نعتني بحياتنا الخاصة ، وحيث أنه يعطينا تحذيرات مسبقة لكي نحترس من الخطر ، فيجب علينا ألا نندفع إليه .

وإذ ينظر بعض الناس إلى العقيدة الخاصة بتدخل الله الدائم نظرتهم إلى عقيدة مجردة ، فإنهم يقعون في استنتاجات خاطئة ، وقد يتساءلون : لماذا يعاقب الله القاتل عندما يقتل إنساناً من المفروض أنه قد وصل إلى الأجل المحدد له من الله . لكن يجب ألا ننسى أن القاتل قد تصرف ضد كلمة الله ووصية الله الصريحة " لا تقتل " ، وعلينا أن نطيع إرادة الله المعلنة في كلمته . أما كون الله يقدر أن يخرج فائدة صالحة وخيراً من وراء الأعمال الرديئة (كعمل أخوة يوسف) فهذا لا يجعل الأعمال الشريرة أقل شراً .

(ج) الأسباب الثانوية

إن كل الحوادث في المقام الأول ناتجة عن عمل الله ، لكن الأسباب الثانوية (لهذه الحوادث) تجد لها مكاناً . ينظر الإنسان التقي إلى من يصنع معه معروفاً على أنه أداة أو وكيل لتوصيل جود الله وصلاحه ، لكنه في نفس الوقت

يشعر بالعرفان والامتنان القلبي للشخص الذي استخدمه الله كوكيل أو أداة ، ويحاول أن يظهر له عرفانه بالجميل . ولو أن واحداً من المرضى الذين هم تحت إشراف طبيب مسئول ، مات بسبب إهمال الطبيب ، فإنه يعتبر نفسه مذنباً رغم علمه بأن أيام الإنسان محدده ومعينة من الله . إن الإنسان التقي الذي يفهم جيداً تعليم عناية الله وتدخله في كل شيء ، لن يلتمس أي عذر للخطية لئلا يسيء إلى هذا التعليم الخاص بصلاح الله .

(د) وعود للمؤمنين

يوجد الكثير من الوعود بأن الله يسهر دائماً على سلامتنا ويعتني بنا ، نورد بعضاً منها : " ألق على الرب همك فهو يعولك ، لا يدع الصديق يتزعزع إلى الأبد " (مزمور ٥٥ : ٢٢) . " ملقين كل همكم عليه لأنه هو يعتني بكم " (١بط ٥ : ٧) . " الساكن في ستر العلي في ظل القدير يبيت " (مزمور ٩١ : ١). " هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها ؟ حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك" (اشعياء ٤٩ : ١٥) . ان معرفة مثل هذه الحقائق يجعلنا شاكرين في وقت الرجاء والنجاح ، صابرين في وقت الضيقات ، واثقين تماماً في أمر نجاتنا وسلامتنا في المستقبل (٢كو ١ : ١٠) . نحن نؤمن أن النجاح الذي يحالفنا ، مصدره جود الله وصلاحه ، حتى لو كان وصوله إلينا بيد إنسان . عندما يعاملنا الناس باللطف والرحمة نعرف أن الله قد حول قلوبهم لمساعدتنا ، وعندما تأتي الضيقات ، نعلم أن الله قد أعطى هذه الضيقات أن تثمر فينا صبراً وخضوعاً مع رجاحة عقل وراحة بال . ولنذكر كيف أن يوسف عومل معاملة سيئة على يد إخوته ، لكنه لم ينشغل بالتفكير في خيانتهم ، بل ذكر أن الله كان وراء هذا العمل، فقال : " والآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا بل الله " ، انتم قصدتم لي شراً ، أما الله فقصد به خيراً ، لكي يفعل كما اليوم ، ليحيي شعباً كثيراً " . (تكوين ٤٥ : ٨، ٥٠ : ٢٠) .

(هـ) هل يغير الله مشيئته ؟

تبدو بعض الفقرات الكتابية وكأنها تشير إلى أن ذلك ممكن الحدوث ، مثل " فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه " (تكوين ٦ : ٦)، " فترجع تلك الأمة عن شرها فأندم عن الشر الذي قصدت أن أصنعه بها " (إرميا ١٨ : ٨) . وأحياناً كان الرب يلغي قراراته . لقد أمر الرب يونان أن يخبر أهل نينوى بأن مدينتهم ستنقلب ، ثم عاد فصفح عنها . وقد أخبر الملك حزقيا بأنه سيموت حالاً ، لكن الله عاد فأعطاه خمسة عشر عاماً أخرى .

لاشك أن التأسف والندم والحزن أمور تعني أن الشخص الذي حول فكره هكذا ، كان جاهلاً أو مخطئاً أو ضعيفاً . وحاشا لله أن يكون المقصود أنه ندم أو حزن بهذا المعنى ، الذي يشير إلى أنه لم يكن يعرف ، أو أنه لم يكن قادراً على منع الشر . وعند النظر إلى الندم بهذا المفهوم السيء كان الكتاب المقدس يستنكر وينفي الندم عن الله ، فيقول صموئيل النبي : " نصيح إسرائيل لا يكذب ، ولا يندم، لأنه ليس إنساناً ليندم " . (١صم ١٥ : ٢٩) .

إن الفقرات الكتابية السابقة التي تبدو وكأنها تعني ان الله غير رأيه يجب أن تفهم على أنها أساليب بشرية في الحديث عن الله ، لأن صفات الله السامية ترتفع بكثير عن مستوى مداركنا وأفكارنا البشرية .

لكن الله وصف نفسه بطريقة يمكن فهمها . إن قصد الله وإرادته وفكره لا تتغير مطلقاً . إن الله لم يرد أن يقلب نينوى لكنه دبر وخطط أن يتوب أهل المدينة بتبشير ومناداة يونان . ولم يقصد الله أن ينهي حياة حزقيا النبي في الحال ، لكنه أراد أن يعيد الملك إلى صوابه . إن الله كان يهدد ويتوعد لكي يوقظ الناس للتوبة . لقد أصدر النبي إشعياء تحدياً في وقته ولا يزال هذا التحدي يتردد صداه بلا إجابة حتى يومنا هذا ، فيقول : " فإن رب الجنود قد قضى فمن يبطل ؟ ويده هي الممدودة فمن يردها ؟ " (اشعياء ١٤ : ٢٧) .

١٨ – يستخدم الله الأدوات والقوى الشريرة إستخداماً صالحاً

إن النصوص الكتابية التي تقول بأن إرادة الله تتحكم وتسيطر على الشيطان وعلى كل الناس الأشرار ، هي فقرات صعبة الفهم ، وقد تجعلنا نفكر في إمكانية توجيه اللوم إلى الله عند وقوع الشر .

وقد حاول البعض أن يجد حلاً لهذه المشكلة ، بالقول بأنه توجد بعض الأشياء التي يفعلها الله بينما أشياء أخرى يسمح بها . لكننا نعرف من سفر أيوب أن الله هو الفاعل الحقيقي للأشياء التي وقعت لأيوب ، إذ بعد أن نهب أيوب بيد الشيطان والسبئيين قال : " الرب أعطى ، الرب أخذ " . ثم إن اليهود – كما نعرف – كانوا يريدون أن يقتلوا المسيح ، وكانت إرادة الله في نفس الوقت أن المسيح يموت . جاء هذا على لسان التلاميذ فيما بعد ، فقالوا : " لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته ، هيرودس وبيلاطس البنطي مع أمم وشعوب إسرائيل . ليفعلوا كل ما سبقت فعينت يدك ومشورتك أن يكون " (أعمال٤ : ٢٧ ، ٢٨) .

ويقول لنا سليمان إن الله يحول فكر الملوك ويميل قلوبهم : " قلب الملك في يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يميله " (أمثال ٢١ : ١) . وهذه الحقيقة المتعلقة بتحكم الله في القلوب والأفكار ، مقررة وثابتة في العهد الجديد أيضاً ، حيث يرد القول مراراً بأن الله قسى قلوب الأشرار وأعمى عيونهم . ويقول بولس في (رومية ١١ : ٨) " أعطاهم الله روح سبات وعيوناً حتى لا يبصروا وآذاناً حتى لا يسمعوا إلى هذا اليوم " .

ولا يمكننا أن نقول إن الله لا يفعل هذا ، ولا يجوز لنا أن نحاكم صانعنا، ونجانب الصواب إذا قلنا بأنه يوجد خطأ في الكتاب المقدس . ولا يمكن الهروب من هذه الصعوبة بالاكتفاء بالقول بأنه أمر يتعذر فهمه. إن الله قد اخبرنا أن هذه هي الطريقة التي يعمل بها وعلينا أن نقبل ما يقول .

يتصور البعض أن الله يضطر أحياناً إلى أن يختلف مع نفسه . فيقولون: إن الله ملتزم بأن يريد شيئاً واحداً هو الشيء الصالح ، لكنه مع ذلك يأذن بحدوث الشيء الشرير . ولهؤلاء نقول : يجب أن يكون معلوماً أن لله إرادة واحدة ، حتى وإن بدت وكأنها منقسمة . وهناك مقولة للقديس أغسطينوس قد تساعدنا على فهم هذا الأمر : " لبعض الناس رغبات صالحة لكنها ليست مطابقة لمشيئة الله ، وللبعض الآخر رغبات رديئة ، لكنها مطابقة لمشيئته تعالى . على سبيل المثال : هناك ابن طيب يرغب بحق في أن أباه يعيش ، بينما إرادة الله أن يموت الأب ، ومن الجهة الأخرى ، هناك ابن شرير له رغبة شريرة في موت أبيه ، في نفس الوقت الذي يريد الله أيضا لهذا الأب أن يموت . ومع ذلك فالابن الصالح يسر الله برغبته في شيء ضد إرادة الله ، بينما الابن الشرير يغضب الله برغبته في شيء يتفق مع إرادة الله " .

وفي بعض الأحيان يتمم الله مقاصده الصالحة بواسطة المقاصد الأثيمة للأشرار – إن الله لا يسمح للشر بالحدوث ، مال يكن هو – باعتباره الإله الكلي القدرة – قادراً على أن يخرج منه خيراً . لقد صلب المسيح بتعيين من الله ، لكن الصلب نفسه نفذه أناس أشرار ، غير أنه بدون هذا الموت ما كنا لنحصل على الخلاص .

ويعارض الآخرون هذا التعليم ويفترون على الله قائلين : إذا كان الله يستخدم الأشرار حتى في تحقيق خططه وتنفيذ مقاصده ، فإنه يكون بالضرورة هو الفاعل لجرائمهم ، وبناء على ذلك يكون عقاب هؤلاء الناس بدون سبب سوى أنهم أطاعوا أوامر الله . لكن هذا المنطق خاطئ تماماً ؛ لأن وصايا الله يجب أن تطاع

دائماً ، ومن يكسر وصية الله باختياره يستوجب العقاب . إن وصايا الله ، مثل إرادته لا يمكن أن تتغير أو تتبدل . وتنشأ الصعوبة عندما يبدو الأمر وكأن الله قد أراد شيئاً يختلف أو يتناقض مع وصاياه . لكن في حال كهذه ربما نحن لا ندرك الهدف الكامن وراء ما يريده الله . قد تتضمن إرادة الله أن شخصاً يرتكب فعلاً شريراً ، ولكن هذا الفعل يظل مع ذلك شراً . فقد أراد الله – مثلاً – أن يتم الانتقام من زنى داود بواسطة قيام أبشالوم بانتهاك حرمات نساء أبيه . لكن هذا لا يعني أن الله أمر أبشالوم بان يقترف هذه المحرمات . إن الإنسان الأثيم يظل مذنباً بالرغم من أنه قد يفعل ما يتفق مع خطة الله . ذلك أن هذا الإنسان يرتكب الشر بمحض اختياره ورغبته الخاصة .

الجزء الثاني

معرفة الله الفادي

الجزء الثاني
معرفة الله الفادي

١ ــ سقوط آدم والخطية الأصلية

يؤكد مشاهير الفلاسفة على عظمة الإنسان وسمو مقدرته العقلية ونظريتهم هذه تتملق الناس وذلك بجعلهم يظنون أنهم ماهرون وأذكياء وحكماء ، وبالتالي تشجعهم لكي ينتجوا ويستخرجوا من داخل نفوسهم رغبة لفعل الخير وتجنب الشر والبحث عما صيته حسن . وكأن هذه النظرية تقول لنا : إنه لا خطأ مطلقاً في طبيعة البشر !

إن تعليم الكتاب المقدس حول طبيعة الإنسان يختلف مع هذه النظرية اختلافاً تاماً . فمن الكتاب نتعلم أن الله صنع الإنسان بطبيعة طاهرة وصالحة ، بل ونبيلة سامية . وهذه الحقيقة تدفعنا إلى أن نتضع وننكسر لا أن نتشامخ ونتكبر . أما الآن فمن المستحيل أن نصف الجنس البشري بأنه دائماً طاهر وصالح ونبيل . إن آدم عندما عصى الله وأكل الثمرة المحرمة ، قد جر معه البشرية كلها إلى العصيان . فنحن الآن فاسدون وغير قادرين على اختيار ما هو صالح .

إن سلسلة من التصورات الخاطئة أدت إلى عصيان آدم . فقد أغوت الحية حواء ، وهذه الغواية قادتها إلى عدم تصديق كلمة الله ، وبالتالي أدى عدم التصديق إلى العصيان ، فأخذت من ثمر الشجرة " وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل " . فالعامل الأساسي للخطية هو العصيان . يقول لنا بولس الرسول : " إنه بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة " (رومية ٥ : ١٩) . وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة وهو أن آدم باحتقاره للحق وتصديقه للباطل قد تمرد ضد حكم الله .

لقد جلب آدم اللعنة على كل الخليقة . فقد انتقلت خطيته إلى كل الأجيال التي انحدرت منه . وطبيعتنا التي كانت في البداية صالحة ونقية هي الآن فاسدة . وكان تأثرنا بخطية آدم تأثراً تاماً منذ يوم ولادتنا . كان داود مثل غيره من الناس، لكنه كتب قائلاً : " هأنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بي أمي " . (مزمور ٥١: ٥) . فنحن جميعاً في نظر الله غير أنقياء حتى قبل أن نولد .

ويشير بولس إلى هذا بوضوح في رومية ٥ : ١٢ حيث يقول : " من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت ، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع " . وعلى ذلك ، فإنه بنعمة المسيح، قد أعيدت إلينا الحياة والبر والصلاح . امتدت خطية آدم إلى كل الجنس البشري ، لكن

خلاص المسيح (والبر الذي صار لنا بالفداء) امتد إلى الجنس البشري ليقدم له العلاج من الخطية .

والآن نوضح المعنى المحدد للخطية الأصلية . إن الخطية الأصلية هي الفساد الموروث في طبيعتنا والمنتشر في كل أجزاء نفوسنا ، ذلك الفساد يجعلنا أولاً مستحقين لغضب الله ، وثانياً يجعلنا نرتكب الأمور الخاطئة والشريرة . لقد أفسدت الخطية الأصلية طبيعتنا إلى درجة جعلتنا واقعين تحت قصاص الله ودينونته . ولا يجوز لنا أن ندعى أن هذه الدينونة بسبب خطأ فعله آخر ، مع أننا أبرياء ! ذلك أن فساد الخطية فينا حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها . ومادامت الخطية فينا فنحن نستحق العقاب . والإصحاح الثالث من رسالة رومية يحدثنا بطريقة واضحة ومحددة عن الخطية الأصلية .

٢ – إرادة الإنسان تحت العبودية

عرفنا أن الخطية لها قوة وسلطة على البشرية بوجه عام ، وكذلك على كل فرد من أفرادها . والآن نتأمل فيما إذا كان الإنسان له أية حرية على الإطلاق.

وفي بحثنا لهذه النقطة ، علينا أن نتجنب خطرين ؛ أولهما : يجب ألا نظن أن الإنسان فقد كل حس وإدراك للخير والصواب . لئلا يتخذ ذلك ذريعة لخطية مثل الكسل أو ما هو أسوأ . فقد يعتذر إنسان قائلاً : إني لا املك قوة لفعل الصواب ، وبالتالي لا فائدة من المحاولة . والخطأ الآخر الذي ينبغي تجنبه هو أن ندعى براً لأنفسنا أي بر ، ولو ذرة واحدة . فإن قلنا إن لنا في أنفسنا قدرة على فعل الخير ، نكون كمن يسرق مجد الله ، ونعرض أنفسنا أيضاً لخطر السقوط بانتفاخنا وكبريائنا .

أما الوضع الحقيقي فهو أننا فقدنا كل صلاح وبر . لكن ينبغي علينا أن نسعى بكل جهدنا ونطلب من الله التقوى والصلاح الذي لا نملكه في أنفسنا وكذا الحرية التي فقدناها .

يقول الفلاسفة : إن قدرة الإنسان العقلية كافية لتوجيه فكره وأفعاله . ويرون أن الإرادة وإن كان من الممكن أن تجرب بواسطة الحواس ، إلا أنها تبقى حرة لكي تختار بما يتفق مع العقل . بل إن الكثيرين من الكتاب المسيحيين يخطئون بدرجة ما عندما يقولون إن الإرادة الإنسانية حرة ، رغم أنهم يرونا حرية ضئيلة ومحدودة جداً تتمثل في اختياره بمحض إرادته أن يفعل الشر وهو غير مجبر ولا مكره على فعله . قد يكون هذا صحيحاً ، ولكن كم تكون هذه الحرية هزيلة وتافهة

إذا كانت تنحصر فقط في إطار حرية ارتكاب الشر ! إن معنى ذلك أنه ليس هناك حرية لفعل الخير .

إن الكتاب المقدس يعلمنا أن الإنسان لا يمتلك حرية لاختيار الخير ، ما لم ينل حرية من الروح القدس . فلا اعتبار مطلقاً لأي صلاح ذاتي ، أما التقدير والاعتبار الكبير فهو للصلاح الذي يمنحه الله دون سواه . يجب أن نرفض أي فكر يوهمنا بأننا نمتلك صلاحاً ذاتياً ، إن فكراً كهذا مصدره الشيطان ، فهو الكذاب الذي قال لآدم وحواء " ستكونان كالله عارفين الخير والشر " . (تكوين ٣ : ٥) .

وكثيرة هي الشواهد أو الآيات الكتابية التي تؤكد بأنه لا صلاح فينا ولا بر في ذواتنا ، وتلزمنا باللجوء إلى الله : " ملعون الرجل الذي يتكل على الإنسان (بما في ذلك ذاته) يجعل ويجعل البشر ذراعه وعن الرب يحيد قلبه " . (ارميا ١٧: ٥) ، وإن الله " لا يسر بقوة الخيل ، لا يرضى بساقي الرجل ، يرضى الرب بأتقيائه بالراجين رحمته " . (مزمور ١٤٧: ١١،١٠) " يعطي المعيي قدرة ولعديم القوة يكثر شدة " . (اشعياء ٤٠ : ٢٩) .

لكن الله لا يعطي قدرته للمتكبرين أو غير الشاكرين ، بل ينتظر حتى ندرك حاجتنا الماسة إلى القدرة المستمدة منه . عندما نعطش إلى الله يروي ظمأنا " لأني اسكب ماءً على العطشان وسيولاً على اليابسة " (اشعياء ٤٤ : ٣) . لا يجوز لنا أن نظن أن بإمكاننا أن نفعل أي خير من تلقاء أنفسنا . يجب أن نتواضع وننكسر بالدرجة التي تجعلنا نلتمس معونة روح الله سأل أحدهم مرة اغسطينوس عن الالتزام الأساسي الذي يحتاج إليه المسيحي الحقيقي ، فأجاب قائلاً : " أولاً التواضع ، وثانياً التواضع ، وثالثاً : التواضع " .

عندما سقط آدم في الخطية ، فتسبب بذلك في سقوط الجنس البشري ، فقدت البشرية جمعاء بعضاً من عطايا وهبات الله ، بينما تعرضت هبات أخرى للتلف والعطب ، وإن كانت لم تفقد . لقد فقدنا – كبشر – القدرة على محبة الله ومحبة القريب ، كما فقدنا الرغبة في القداسة والبر . وتشوهت فينا موهبة العقل السليم وعطية الرغبة في الاستقامة الأخلاقية .

إن الإنسان ، بكل تأكيد ، لم يفقد القدرة العقلية ، إذ هو قادر على الفهم والحكم على الأشياء ، وقادر على التمييز بين الخير والشر . لكن يوجد فرق بين إدراك الأمور المختصة بحياتنا على الأرض وبين إدراك الأمور المختصة بملكوت الله . نستطيع أن نعرف الأمور الأرضية بعقولنا التي تعرضت جزئياً للتشوه أو

التلف ، لكننا لا نقدر أن نستخدم هذه العقول الفاسدة للحصول على أية معرفة عن الله أو عن بر الله في المسيح أو عن أسرار ملكوت السموات .

وهناك براهين قوية جداً في العالم المحيط بنا للتدليل على أن الإنسان لا يزال يملك مقدرة عقلية . فنرى أولاً إن الإنسان مخلوق اجتماعي يعيش في جماعات ، وأن كل إنسان لديه اقتناعاً عقلياً بضرورة وجود قوانين يقوم عليها المجتمع . وثانياً إن كل شخص تقريباً لديه مهارة ما أو فناً أو استعداداً معيناً . وهي حقيقة تشهد على وجود مقدرة عقلية معينة في العقل البشري . وثالثاً : نرى أن ما أنتجه بعض الموهوبين من الكتاب من أعمال رائعة وممتازة يؤكد وجود قدرة عقلية فائقة لدى هؤلاء البشر .

لكن العطايا والمواهب التي لدى هؤلاء الناس – رغم انهم لا يدركون هذا – مثل المواهب التي نملكها نحن أيضاً ، هي من روح الله القدوس . إن روح الله القدوس هو المصدر الوحيد للحق والاستقامة .

قد نتسأل عن مقدار أن يملكها العقل البشري ليساعدنا على معرفة الله ومحبته الأبوية نحونا . والرد هو إنه حتى الذين لديهم قدر عظيم من الذكاء لا يعرفون سوى القليل ، والقليل جداً ، إذا لم يعطهم الله نوراً . لأن النور الذي لديهم– قبل تعامل الرب معهم – أشبه بالنور الذي قد يصل من ومضة واحدة من البرق في ليلة ظلماء ، فيعرفون القليل فقط من صفات الله ، ولا يجوز لهم الاعتذار بالجهل التام كعذر لعدم التقوى ، لكن النور الذي لديهم لا يكفيهم للوصول إلى الحق .

هذه الحقيقة نتعلمها من الكتاب المقدس ، ومن ملاحظتنا للجنس البشري. عندما أدرك بطرس أن يسوع هو المسيح ابن الله الحي ، أجابه يسوع : " إن لحماً ودماً لم يعلن لك ، لكن أبي الذي في السموات " (متى ١٦ : ١٧) وفي المزامير نجد القول الموجه إلى الله : " عندك ينبوع الحياة ، بنورك نرى نوراً " (مزمور ٣٦ : ٩) . وعندما وبخ موسى شعب إسرائيل لنسيانهم أعمال الله ، قال : " أنتم شاهدتم ما فعل الرب أمام أعينكم في أرض مصر بفرعون وجميع عبيده وبكل أرضه ، التجارب العظيمة التي أبصرتها عيناك وتلك الآيات والعجائب العظيمة . ولكن لم يعطكم الرب قلباً لتفهموا أو أعيناً لتبصروا وآذاناً لتسمعوا ليعرفوني " (تثنية ٢٩ : ٢ – ٤) وتكلم الرب على فم ارميا : " وأعطيهم قلباً ليعرفوني " (ارميا ٢٤ : ٧) . وبالطبع هذا يعني أن الناس ليس لديهم حكمة روحية ، لكن الله هو الذي يعطي هذه الحكمة . يتضح هذا بوضوح في قول المسيح : " لا يقدر أحد أن يقبل إلي إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني " . (يوحنا ٦ : ٤٤) .

ويعلن الرسول بولس أن كل حكمة بشرية ، ما هي إلا جهالة (١كو١ : ١٨) ، ويقول بعد ذلك : " الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأن عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحياً " . (١كو ٢ : ١٤) . إن امتلاك الفهم الروحي هو عطية الله وحده . وهذا ما يتضح في صلاة بولس ، من أجل أهل أفسس : " كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد ، روح الحكمة والإعلان في معرفته " . (أفسس١ : ١٧) ثم يواصل صلاته قائلاً : مستنيرة عيون أذهانكم " (أفسس١ : ١٨) فمن المؤكد تماماً أننا نكون عميان ولا نعرف شيئاً تقريباً عن الله ما لم يعطنا – في محبته وحنانه – استنارة روحية .

وقد نتساءل : هل لدى البشر معرفة بالمستوى الذي يريد الله أن نصل إليه في حياتنا ؟ ! الإجابة نعم: لدينا – كبشر – معرفة عن الخير والشر : " لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس ، فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم ، الذين يظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة " . (رومية ٢: ١٤،١٥) فما دام الأمم لديهم الناموس مكتوباً في قلوبهم ، يكون لهم بالتأكيد بعض المعرفة عن الخير والشر . إن ضميرهم الخاص هو ناموسهم ، لكنه لا يقدم لهم فائدة كبيرة . قد يعرفون الخير من الشر ، لكن عندما يستمرون في الخطية ، فإن معرفتهم تعرضهم للمسئولية ، وتؤدي بهم إلى الدينونة العادلة .

لا قدرة للإنسان بفكره وعقله أن يصنع الصلاح أو يفعل الحسنى . بل إنه لا يحاول ذلك . عندما يقول بولس إنه الآن يريد أن يفعل الحسنى لكن لا يستطيع (رومية ٧ : ١٥) فإنما يتكلم كمؤمن مسيحي ، لأن الإنسان الطبيعي لا يملك هذا الصراع ، بل إن الرغبة في فعل الحسنى ليست موجودة عنده . وحتى المؤمن – كما يقول بولس – لا يسكن فيه أي في جسده أي شيء صالح ، بمعنى ان أي صلاح يوجد فيه يأتي من الله وليس من نفسه .

إن الإنسان المولود ثانية هو وحده الذي يكون لديه الصراع الداخلي المعبر عنه في رومية ٧ بالقول: " فإني أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن ، ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني " . (رومية ٧ : ٢٢،٢٣) . يقول أغسطينوس : " لنعترف أن ما لدينا من صلاح هو من الله ، وما لدينا من شر هو من أنفسنا . ولا شيء نملكه ملكية خاصة سوى الخطية " .

٣ – إرادة الإنسان مستعبدة للخطية ، ولا يمكن تحريرها إلا بالنعمة وحدها

يقول الرب يسوع في حديثه لنيقوديموس : " المولود من الجسد جسد هو" (يوحنا ٣ : ٦) . والجسد هنا يعني الطبيعة البشرية . ويقول الرسول بولس : "إن اهتمام الجسد هو موت .. لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله ، إذ ليس هو خاضعاً لناموس الله لأنه أيضاً لا يستطيع " . (رومية ٨ : ٦ ، ٧) . إن العقل الطبيعي يحارب ضد الله بكل ما أوتي من قوة . فإذا كان هذا ما يميل إليه الجسد ، فإنه لا يستحق سوى الموت .

ويذهب الرب يسوع في هذا الحديث إلى مدى أبعد فيقول ، إنه ينبغي أن نولد من فوق (يوحنا ٣ : ٧) والولادة الجديدة لا تعني مجرد تجديد لعواطف الإنسان ورغباته الجسدية ، بل تعني أيضاً تجديداً للنفس أو الروح . وهذا يبدو واضحاً في الرسالة إلى افسس : " أن تخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور وتتجددوا بروح ذهنكم " . (أفسس ٤ : ٢٢،٢٣) . إن الأهواء الشريرة ليست ناتجة عن الرغبات الشريرة فقط بل من الذهن أيضاً .

ولا ينبغي أن نتوهم أن الذهن البشري صالح بشكل أو بآخر . إن إرميا يدين الذهن أو القلب البشري بهذه الكلمات : " القلب أخدع من كل شيء وهو نجيس " . (ارميا ١٧ : ٩) ويستخلص بولس المعلومة نفسها من الأنبياء فيقول : "كما هو مكتوب أنه ليس بار ولا واحد . ليس من يفهم . ليس من يطلب الله " (رومية ٣ : ١٠ – ١٢) .

لقد علم بولس الرسول بوضوح وتأكيد أن الناس بوجه عام – ليس الأشرار أو الأردياء فقط – لا يملكون أي بر ، وأنه لا أحد على الإطلاق يعد باراً في ذاته سوى المسيح . لا وجود لأي صلاح أو بر في أنفسنا ، ولو لم يظهر في حياتنا إلا القليل من النقائص .

لا ننكر أن هناك أناساً قد حاولوا جاهدين أن يفعلوا الخير . ولكن جهادهم المتواصل لفعل الخير قد أعتبر برهاناً على وجود قدر معين من الطهارة، مما يدفعنا إلى الظن بأن الطبيعة البشرية ليست في جملتها فاسدة !! والأمر الصحيح هو أن الرب كبح جماح الطبيعة الفاسدة في هؤلاء الناس ومنعها من التفجر أو الاندفاع الصارخ . إن القيم والفضائل والمثل ليست عادية في الطبيعة البشرية ، بل هي فضل وإحسان من الله . ومع ذلك يظل مثل هؤلاء الناس يعوزهم العنصر الأساسي للبر ، (أعوزهم مجد الله) ، لأن الواجب الأول للإنسان هو إعلاء مجد الله .

إن إرادة الإنسان مكبلة بشدة بواسطة الخطية فلا تقدر أن تتحرك نحو الخير والصلاح ، بل إنها تجد أن التعلق بالصلاح كأمل ورجاء أمر أكثر صعوبة.

إن إرادة الإنسان مستعبدة للخطية . فإذا ما خطونا خطوة واحدة نحو الله ، فإن هذا يكون بفضل نعمة الله تماماً . يقول إرميا (على لسان افرايم) : " توبني فأتوب لأنك أنت إلهي " (ارميا ٣١ : ١٨) . ومع ذلك يظل الإنسان يمتلك إرادة . وعندما سقط الجنس البشري في الخطية أصبح الإنسان تحت ضرورة لإطاعة وخدمة الخطية إن إرادة الإنسان لم تنتزع منه لكنها أصبحت إرادة مريضة . إن الجنس البشري يمتلك القدرة الوظيفية للإرادة ، وإرادة فعل الشر تنتمي إلى طبيعتنا الفاسدة ، أما إرادة فعل الخير فهي تعطي لنا بواسطة نعمة الله .

لقد فقدت إرادة الجنس البشري حريتها وأصبح عليها – بالضرورة – أن تفعل الشر . هذا تقرير يصعب قبوله . لكن ، يجب أن نعرف أن هناك فرقاً بين الضرورة وبين الجبر (الإكراه) . ولنأخذ مثلاً لذلك: نتفق جميعاً على أن طبيعة الله بالضرورة خيرة وصالحة ، وأن صلاحه اللامحدود يجعل من المستحيل أن يفعل الشر . ومع ذلك فإن الله يحتفظ بحرية إرادته في ممارسة الخير والإحسان . وبنفس الطريق نجد أنه بالرغم من أن الإنسان تحت ضرورة بأن يخطئ لكنه ليس مجبراً ولا مكرهاً على ذلك . فالبشر يخطئون راغبين في الخطية وذهن الإنسان يتجه بشغف ولهفة نحو الخطية ليس لأنه واقع تحت إكراه جبري عنيف ، بل انطلاقاً من رغبته الخاصة .

النعمة وحدها تشفي فساد الطبيعة البشرية . إن نعمة الله العاملة فينا تنشئ فينا أيضاً الرغبة في طلب البر . وتستمر النعمة في عملها وتقوى فينا الرغبة في المثابرة على عمل البر والصلاح إلى النهاية . يقول بولس : " واثقاً بهذا عينه أن الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحاً يقدر أن يكمل إلى يوم المسيح " (فيلبي١: ٦) . ولا يقتصر عمل الله على مجرد مساعدة الإرادة الضعيفة بل إنه يغير إرادتنا . ويرينا الكتاب في " حزقيال " أن الإرادة البشرية تافهة ولا قيمة لها ولابد أن تتغير من قبل الله ، فيقول الله على لسان حزقيال : " وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديدة في داخلكم وأجعلكم تسلكون في فرائضي وتحفظون أحكامي وتعملون بها " . (حزقيال ٣٦ : ٢٦،٢٧) . فالإرادة لبشرية لا يتم إلغاؤها بل هي تجدد بتغييرها من الشر إلى الخير " لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من اجل المسرة " . (فيلبي٢ :١٣) .

وبعد أن تتجدد الإرادة البشرية ، بقدرة الله فحسب ، يستأنف الله عمل الصلاح فينا . ذلك أنه بعد تجدد الإرادة فإننا نظل بلا دور في إتمام الأعمال الحسنة ، لكن يجب علينا أن نستند على الله ليعمل من خلالنا . إن الله ينسب إلى نفسه كل ما

هو خير وصالح في إرادة الإنسان : " وأعطيهم قلباً واحداً وطريقاً واحداً ليخافوني كل الأيام .. أني لا أرجع عنهم لأحسن إليهم وأجعل مخافتي في قلوبهم فلا يحيدون عني " (إرميا ٣٢ : ٣٩،٤٠) .

أدرك كل من داود وسليمان ، أنه يحتاج إلى الله ليقوده إلى الصلاح والاستقامة وحفظ الوصايا ، فقال سليمان : " ليكن الرب إلهنا معنا .. ليميل بقلوبنا إليه لكي نسير في جميع طرقه ونحفظ وصاياه " (١ملوك ٨ : ٥٧ ، ٥٨) . ويطلب داود من الله قائلاً : " قلباً نقياً أخلق في يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي " (مزمور ٥١ : ١٠) . لقد أدرك داود أنه لا يمكن الحصول على النقاوة إلا من الله .

ويعلمنا المسيح هذه الحقيقة أيضاً بطريقة محدد وقاطعة فيقول : " كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة ، كذلك أنتم إن لم تثبتوا في . أنا الكرمة وأنتم الأغصان . الذي يثبت في وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير " (يوحنا ١٥ : ٤،٥) . وبنفس الوضوح يختم المسيح حديثه بالقول : " لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً " . (يوحنا ١٥: ٥) .

ويقول بولس الرسول : " لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة " (فيلبي٢ : ١٣) . فالعلة الأولى للعمل الصالح هي الإرادة لفعله والعلة الثانية أو العامل الثاني هو الجهد الفعال لإتمام العمل . إن الله هو صاحب السلطان في كلا السببين أو العنصرين (أن نريد ، وأن نعمل) ونحن نسلب الله عندما ننسب لأنفسنا إرادة الخير أو فعله . فالله هو الذي يبدأ وهو الذي يكمل .

في اختبار الاهتداء أو التجديد ، لا يعطي الله للإنسان خياراً بين الطاعة وعدم الطاعة . إن الإرادة المحددة يتم إعطاؤها باختيار الله . وليس لأن الإنسان اختار أن يطلبها أو التمس نوالها . إن الله بروحه القدوس ، يوجه ويُخضع ويضبط قلوبنا ، ويسود عليها ويملك فيها كما في مملكته الخاصة .

أما وقد أثبتنا أن أمر قبول أو رفض نعمة الله لا يتوقف على الإنسان ، فإن هناك حقيقة أخرى متفرعة من هذا الحق الثابت وهي أن الشخص المجدد يستمر في الحياة المسيحية ويُحفظ فيها بعد أن يختاره الله . هذه المثابرة وهذا الحفظ والثبات هو عطية الله وليس مكافأة على استحقاق بشري .

إن طريقة عمل النعمة ، ليس أن تزيل إرادة الإنسان بل أن تغيرها من إرادة شريرة إلى إرادة صالحة ، ثم تساعدها بعد ذلك بتغيير دوافع الإنسان لكي يطيع من القلب . إن النعمة لا تعطي لجميع الناس . والذين ينالون النعمة ، لا

يحصلون عليها كمكافأة على استحقاقهم أو أعمالهم . بل هي تعطي لهم كهبة مجانية ومعروف إلهي خالص . إن إرادة الإنسان لا تحصل على النعمة بالحرية ، بل تحصل على الحرية بالنعمة .

٤ – كيف يعمل الله يفي قلوب البشر

إن الإرادة البشرية تشبه الحصان إلى حد ما . فإما أن يركبها الله أو الشيطان . فعندما يكون الراكب هو الله ، فإنه يديرنا ويحولنا إلى اتجاه الصواب . أما إذا كان الشيطان هو الراكب فاتجاهنا يسير بالضرورة نحو الكارثة . إن الإنسان الطبيعي لا يكون مجبراً ولا مكرهاً على إطاعة الشيطان لكنه يكون مخدوعاً ، مفتوناً بواسطة مهارة الشيطان ، لدرجة أنه يستسلم بالضرورة ويطيع بمحض رغبته .

في سفر أيوب ، يُوصف عمل واحد بأنه عمل الله وعمل الشيطان وعمل الإنسان . كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ إن الكلدانيين قتلوا رعاة أيوب وسرقوا غنمه . كان هناك ثلاثة أهداف متباينة في هذا الفعل . كان الله يريد تدريب أيوب على الصبر ، وكان الشيطان يهدف إلى دفعه إلى حافة اليأس . والكلدانيون خططوا لتحقيق ثروة لأنفسهم عن طريق السرقة وقد تطابقت خطط الأطراف الثلاثة . سمح الرب للشيطان أن يبتلي أيوب ، وأن يستخدم الكلدانيين كأدوات للشيطان في هذا البلاء . وقد حفز الشيطان أذهان الكلدانيين الفاسدة أصلاً لارتكاب الجريمة ، ولذا اندفعوا إلى عملهم الشرير وصاروا مذنبين .

وعندما نقرأ في الكتاب المقدس أن الله قد قسى قلوب الأشرار لا يجوز تفسير ذلك بالقول بأن الله قد " عرف مسبقاً " ما كانوا سيفعلونه وعمل طبقاً له ، كما لا يجوز القول بأن الله " سمح " بشيء مناقض لإرادته الحقيقية . إن الإجابة الصحيحة على هذه المسالة تتكون من شقين :

(أ) أن الإنسان الذي يسحب الله منه النور ، يترك في الظلام . وبدون روح الله القدوس يكون قلب الإنسان قاسياً كالصوان ، لذا فإن القول بأن الله قد قسى القلب قول صحيح .

(ب) أن الله ينفذ أحكامه باستخدام الشيطان . والشيطان هو الذي يتحكم – بطريق غير مباشر – في إرادة الأشرار .

ومن السهل أن نظن – عندما نلقي نظرة حولنا – أن الإنسان يسيطر على مصيره الخاص . وقد رأينا أن الكتاب المقدس يثبت لنا خطأ هذا الظن . كما أنه

يعرفنا أن إرادة الإنسان يحكمها ويوجهها الله . فقد حرض الله المصريين على إعطاء شعب إسرائيل أثمن كنوزهم قبل مغادرة الإسرائيليين لمصر (خروج ١٢: ٣٥ ، ٣٦) . وكان يعقوب يعرف أن الله هو الذي يغير قلوب الناس بحسب مقاصده الخاصة ، فقال لأبنائه : " الله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل " (تكوين ٤٣ : ١٤) .

٥ – الرد على الحجج التي تقول بان للإنسان إرادة حرة

(أ) يقولون بأنه إذا كان الإنسان حتماً يخطئ ، فلا تكون مثل هذه الخطية ، خطية حقيقية ، فهي لا تعد خطية حقيقية إلا إذا كان للإنسان إرادة حرة لتجنب الخطية :

والرد على ذلك هو : ان الخطية لا يمكن تبريرها أو التغاضي عنها بالقول بأنها ضرورية . كما لا يجوز القول بأنه يمكن تجنب الخطية لأنها اختيارية، إن الخطية لا يمكن تبريرها عندما نتذكر أن إرادة الإنسان خاضعة للخطية ، ليس بسبب الطريقة التي خلقت بها الإرادة ، بل لأن إرادتنا قد أفسدت . إن آدم – طوعاً وعلى غير كره منه – استسلم للشيطان ، وقد ربط الجنس البشري بالخطية ، منذ ذلك الحين . هذه هي النقطة الأولى ، والنقطة الثانية من هذا الادعاء تخلط بين الرغبة عن طواعية ، وبين الحرية . وقد أوضحنا من قبل أن الأشياء يمكن أن تعمل عن رغبة ، من قبل الذين لا يملكون حرية الاختيار بين الخير والشر .

(ب) يقولون بأنه مادام الإنسان غير قادر على الاختيار بين الخير والشر فلا يكون من العدل عقابه أو مكافأته

والرد على ذلك هو : إنه من تمام عدل الله أن يعاقب الخطية مادام الخاطئ ملوماً على فعلته . فهو يخطئ طواعية وبرغبته ، لذلك فليس أمراً مهماً كونه يخطئ بفكر حر أو مستعبد . أما بالنسبة للمكافآت فنحن ندين بها للطف الله وإحسانه ، وليس لأي استحقاق فينا . ذلك أنه إذا كان لنا أن نحصل على استحقاقنا، سيننا القصاص . لكن الله يعطينا ، ليس العقاب المستحق ، لكن النعمة غير المستحقة .

(ج) يقول البعض بأن الإنسان يجب أن يكون لديه القدرة على أن يطيع وإلا لما أمكننا نصحه أو تحذيره .

وفي ردنا نوجه النظر إلى قول المسيح : " بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً " . ومع ذلك فالمسيح يوبخ الأعمال الشريرة ويحض على الأعمال الصالحة.

وقد وبخ بولس الكورنثيين على نقص محبتهم ، لكنه صلى بحرارة أن يعطيهم الرب محبة .

والنصائح والتحذيرات يكون لها فائدتها في اتجاهين :

الاتجاه الأول ، يتعلق بالخطاة ، عند كرسي الدينونة ، فتكون شاهداً ضد الذين رفضوها . وهؤلاء الأشرار لا يجب أن يلوموا إلا أنفسهم على قساوتهم . والاتجاه الثاني ، يتعلق بالمؤمنين ، وهنا تكون الفائدة إيجابية عظيمة ، لأن الله يستخدم كلمته ليعدنا لقبول النعمة اللازمة لإطاعة نصائحه وتجنب تحذيراته . ولاشك أن التحذيرات لها نفعها للمؤمنين في إدانة وتجريم إنسان الخطية كما انها تشجعنا على ان نرغب فيما هو خير ، وتنهضنا من كسلنا وتجعلنا نكره الخطية .

(د) يحتج البعض بأنه إما أن الله يسخر منا عندما يطلب منا القداسة وينهانا عن الخطية ، وإما ان يمنحنا القدرة على تنفيذ ما يطلبه .

والرد هو : إن هذا الخطأ الشائع ينبع من الجهل بطبيعة الناموس . إن كتابات بولس توضح لنا أنه على الرغم من عدم إمكانية حفظ الناموس ، إلا أنه أعطى لإقناعنا بخطيتنا . " الناموس قد زيد بسبب التعديات " ، " بالناموس معرفة الخطية " ، " لم أعرف الخطية إلا بالناموس " ، " وأما الناموس فدخل لكي تكثر الخطية " (غلاطية ٣ : ١٩ ؛ رومية ٣ : ٢٠ ؛ ٧ : ٧ ؛ ٥ : ٢٠) .

إن الناس ليسوا كالحجارة بلا أحاسيس . فهناك بعض الأهداف من إعطاء الناموس . على الأقل يتعلم منه الفجار أن الله يكره شهواتهم . وتكون فائدة الناموس كبيرة عندما يتعلم منه الناس أنهم لا يملكون القدرة على حياة البر فيلجأون إلى الاحتماء في نعمة الله . قال أوغسطينوس " إن الله يأمر بما لا يمكننا أن نقدمه ، لكي نعرف ما يجب أن نطلبه " . فالله قد يأمرنا نحن الذين له ، بأي شيء يريده ، لأنه قادر أن يعطينا ما يأمر به !

(هـ) التذرع بآيات كتابية تبدو وكأنها تشير إلى أن الإنسان يملك إرادة حرة ، مثل : " اطلبوا الخير لا الشر لكي تحيوا " (عاموس ٥ : ١٤) ، " وإن رجعت يا إسرائيل ، يقول الرب ، إن رجعت إلي .. فلا تتيه " (ارميا ٤ : ١) .

والحل هو : أنه من المؤكد أن الرأي السليم في تفسير هذه الأعداد هو أن الله يعمل بعدل عندما يخبر الأشرار أنهم لن يشتركوا في ألطافه واحساناته ما لم يتركوا طرقهم الشريرة . إنه سبب كاف للرب ليقول هذا حتى ولو كان مجرد إظهار عدالته باستبعادهم من البركات الخاصة بالعابدين الحقيقيين . أما عندما يضيف الرب وعداً بالبركة لأوامره ووصاياه لنا ، فذلك لكي ينشط طبيعتنا البليدة بحلاوة الوعد .

(و) يصف الكتاب المقدس أعمالنا الصالحة على أنها خاصة بنا ومن إنتاجنا نحن، والاحتجاج هو : مادام الله يعمل فينا ليجعلنا نفعل الصلاح ، فإن تلك الأعمال لا تكون أعمالنا نحن .

وفي ردنا على هذا الاحتجاج نقول مرة أخرى إن الله لا يعمل في الإنسان كما لو كان حجراً . نحن ننسب إلى الإنسان قدرات طبيعية كأن يوافق أو يرفض ، أن يكون راغباً أو غير راغب ، أن يتعاون أو يقاوم. فيمكنه الموافقة على الباطل ورفض الخير الحقيقي ، ويمكنه أن يكون راغباً في فعل الشر ، وغير راغب في فعل الصواب ، ساعياً للشر ، مقاوماً للبر . لكن عندما تتجدد إرادة الإنسان ، فإننا نقول بحق ، إنه يعمل ، عندما يعمل فيه روح الله . لأن إرادته تكون عندئذ هي نفس إرادة روح الله القدوس .

٦ – ينبغي على الإنسان الفاسد أن يسعى لنوال الخلاص في المسيح .

إن الجنس البشري برمته في حالة من الفساد التي لا يمكن إلا أن تجلب العار على البشر إلى أن يتغيروا بواسطة المسيح المخلص . لعلنا نعرف أن الله " أب " ، لكن من خلال موت المسيح يمكننا أن نصير أبناء " وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته " (يوحنا ١٧ : ٣) . لا احد يقدر أن يصير أبناً لله بدون تدخل المسيح " وأما كل الذين قبلوه، أي الذين آمنوا باسمه ، فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله " (يوحنا ١ : ١٢) .

وكان الناس – زمن العهد القديم – يتعلمون صراحة بأن ينتظروا ويتطلعوا إلى مجيء المسيا (المسيح) . وعن هذا الأمر نورد آيتين فقط : " ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل " (اشعياء٧ : ١٤) ، " وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها عبدي داود (أي المسيح نسل داود) هو يرعاها وهو يكون لها راعياً وأنا أكون لهم إلهاً " (حزقيال ٣٤ : ٢٣،٢٤) .

٧ – هدف الشريعة (الناموس)

إن العهد القديم في جملته ، بما في ذلك الشريعة ، قد أعطى لتشجيع الاشتياق إلى الله والسعي إليه . كان هذا العهد صورة للحق لكن صورة مؤقتة . إن الله في الواقع لم يكن يريد رائحة الشحم المحترق ؛ فإهراق دماء الحيوانات لا يمكنه في الحقيقة أن يزيل الخطية . وفي زمن مبكر يرجع إلى أيام صموئيل أخبر الناس بأن " الاستماع أفضل من الذبيحة والإصغاء أفضل من شحم الكباش " (١صموئيل ١٥ : ٢٢) . ويتنبأ إشعياء بأن جميع خطايانا ومعاصينا سيكفر عنها بذبيحة واحدة : " وهو مجروح لأجل معاصينا .. والرب وضع عليه إثم جميعنا " (إشعياء ٥٣ :

٥،٦) ، إذن فإن " غاية الناموس هي المسيح للبر لكل من يؤمن " (رومية ١٠ : ٤)
.

إن الشريعة الأدبية (الوصايا العشر) ، ترينا أننا مذنبون أمام الله . فإذا استطعنا أن نحفظها بالتمام ننال حياة أبدية ، لكن نقطة الضعف هي أنه لا يوجد إنسان مطلقاً يمكنه أن يحفظ الناموس كاملاً ، ولا حتى أعظم القديسين الذين أحبوا الله من كل القلب والقدرة والفكر ، قال سليمان : " لأنه لا إنسان صديق في الأرض يعمل صلاحاً ولا يخطئ " (جامعة ٧ : ٢٠ ، ملوك الأول ٨ : ٤٦) .

يوجد ثلاثة أهداف رئيسية للناموس الأدبي :

(أ) الهدف الأول : هو أن الناموس يظهر بر الله ، وعلى النقيض من ذلك فإن شر الإنسان يظهر أن الإنسان يستحق أن يدان . يقول بولس : " لم أعرف شر الخطية إلا بالناموس فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته " (رومية ٧ : ٧)، وقبل ذلك أوضح بولس الرسول إلى أهل رومية أنه " بالناموس معرفة الخطية " (رومية ٣ : ٢٠) أي أنه يشبه الناموس بمرآة نرى من خلالها كيف أننا ضعفاء ، وكيف أننا نميل نحو الخطية ، ثم يشرح بولس الرسول بعد ذلك أن " الله قد أغلق على الجميع معاً في العصيان " لا لكي يهلك الجميع بل لكي " يرحم الجميع " (رومية ١١ : ٣٢) .

(ب) والهدف الثاني للناموس أنه يكبح جماح الناس الذين لا يهتمون بما هو صواب وما هو خطأ إلا إذا أجبروا على ذلك ، إن قلوب هؤلاء لم تتغير بعد ، لكن الناموس يقمعهم ، ويمسكهم عن تنفيذ بعض شرورهم. كان من الضروري أن الله يكبح ، الناس بطريقة أو بأخرى وإلا أصبح العالم ميداناً للحروب والإضطرابات التي لا تنتهي .

(ج) والهدف الثالث : يتعلق بالمؤمنين الذين يحيا الله فيهم ويملك عليهم . الناموس يساعد المؤمنين يومياً ليتعلموا أكثر عن طيبة الله وإرادته ، الأمر الذي يشتاقون إليه . وفوق هذا ، فإن المؤمنين في حاجة إلى التشجيع بقدر حاجتهم إلى التعليم ، وعندما يقرأون ويدرسون ناموس الله ، يتشجعون على الطاعة ، ويتقوون في أذهانهم وأفكارهم حتى لا تزل أقدامهم بسهولة في طرق شريرة . كتب أحد المؤمنين مرة ، فقال : " ناموس الرب كامل يرد النفس ، شهادات الرب صادقة تصير الجاهل حكيماً ، وصايا الرب مستقيمة تفرح القلب ، أمر الرب طاهر ينير العينين " (مزمور ١٩ : ٧،٨) . " سراج لرجلي كلامك ، ونور لسبيلي " (مز١١٩: ١٠٥) .

٨ – الناموس الأدبي (الشريعة الأدبية)

يستخدم الله الناموس ليعطينا معرفة حقيقية عن مقاييس بره ؛ حتى نعبده بفكر متواضع عن أنفسنا . إن الله عندما يقرر حقه في أن يوصينا فإنه بذلك يدعونا إلى أن نعبده عبادة لائقة . وعندما يظهر لنا مقياس صلاحه وبره فإنه يظهر لنا عدم برنا وعجزنا عن فعل الصواب . بل إننا نتعلم كذلك أن الله يشتاق إلى أن يرانا نتبع البر . والخوف من الموت الأبدي – الجزء العادل لإثمنا – يجعلنا نتحول رجوعاً إلى الرب بمحبته ومواعيده الحلوة . إن كل ما عندنا هو منه وملكه ، فإذا ما أعطيناه أنفسنا ، فليس ذلك أكثر من وفاء دين علينا وإعادة الشيء إلى مالكه الحقيقي . لقد وعدنا الله بالإحسانات والبركات في هذا الدهر والدهر الآتي ، أما فاعلو الإثم فقد وعدهم الله بالأتعاب والضيقات في هذا العالم ، وبالموت الأبدي في العالم الآتي .

إن الناموس يتطلب منا البر الروحي ، كما يتطلب الصلاح الخارجي الذي يمكن ملاحظته بسهولة . بينما أي ملك أرضي تختلف أوامره عن ذلك ، ففي امكانه تحريم الزنى والقتل والسرقة ، لكنه لا يملك تنفيذ أوامره إلا على الأفعال الخارجية ، أما الله الذي يرى كل شيء ، فإنه عندما يمنع الزنى والقتل والسرقة ، فإن وصيته بالتحريم تمتد إلى الفكر والقلب مثل الشهوة والكراهية والطمع .

وينقسم الناموس (بشكل مقصود) إلى قسمين (خروج ٢٠) ، يتعامل القسم الأول مع علاقة الإنسان بالله ، التي هي أساس كل بر . ويتعامل القسم الثاني مع علاقة الإنسان بغيره من الناس . ويلخص المسيح الناموس كله في نقطتين اثنتين : " تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ، هذه هي الوصية الأولى والعظمى ، والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك ، بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء (متى ٢٢ : ٣٧ – ٤٠) .

القسم الأول من الشريعة الأدبية (الوصايا العشر)

الوصية الأولى : " أنا الرب إلهك الذي أخرجك من ارض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي " .

إن أحقية الله في السيادة والسلطان تكمن في كلمة " أنا الرب " فهو الواحد فوق الجميع ، الذي له وجود في ذاته ، وهو الضابط لكل شيء آخر في الوجود . وهو يشجع الطاعة بذكر الإحسانات والألطاف العظيمة التي صنعها ، ثم يطلب بعد ذلك العبادة الكاملة : الثقة ، الصلاة والشكران ، وكل ذلك حقه الذي يخصه كإله . وعبارة " أمامي " تشير بوضوح إلى الإهانة التي توجه إلى الرب بواسطة الأوثان .

إن من يضع إله وهمي أمام الله يثير غيرته بنفس الدرجة التي تثير بها امرأة ساقطة غيرة زوجها عندما تأتي بعشيقها في محضره .

الوصية الثانية : " لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن " .

إنها تمنعنا من محاولة إظهار الله الذي يفوق إدراكنا في أشكال مادية ، كما تمنعنا من تقديم العبادة أو السجود لأي تمثال أو صورة من أي نوع . إن إلهنا لن يسمح بأية منافسة .

الوصية الثالثة : " لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً "

نتعلم منها أن ننظر بمهابة ووقار إلى عظمة اسم الله وسمو قداسته . وأنه يجب علينا في كل وقت أن نفكر ونتكلم عن الله ، وعن الأسرار الإلهية بخشوع وإجلال .

الوصية الرابعة : " اذكر يوم السبت لتقدسه "

كان هناك ثلاثة أسباب لهذه الوصية :
(أ) حاجة الناس إلى شيء يذكرهم بضرورة التوقف عن عملهم الخاص والسماح لله بأن يعمل فيهم .
(ب) حاجتهم إلى يوم يجتمعون فيه معاً لسماع الناموس والتأمل في أعمال الله .
(ج) حاجتهم إلى يوم ينقطعون فيه عن مزاولة أعمالهم لفائدتهم وراحتهم الجسدية .
ولا نزال في أيامنا هذه في حاجة إلى يوم للراحة والعبادة .

القسم الثاني من الشريعة الأدبية (الوصايا العشر)

الوصية الخامسة " أكرم أباك وأمك "

إن الله يطلب منا أن نكرم والدينا ، وكذلك ينبغي علينا أن نطيع الذين وضعهم الله في مركز التوجيه والإشراف علينا ينبغي أن يطاعوا .

الوصية السادسة " لا تقتل "

وهذا يعني أنه يجب علينا ألا نؤذي أي إنسان آخر ، وليس هذا فقط بل نهتم ونعتني بسلامة الآخرين . كما يتضمن موقفنا الداخلي : " من يبغض أخاه فهو قاتل نفس " (١يو٣ : ١٥) .

الوصية السابعة : " لا تزن "

إن سيرة حياتنا كلها يجب أن تحكمها مبادئ العفة والطهارة والعيشة النقية النظيفة .

الوصية الثامنة : " لا تسرق "

إذا رغبنا في طاعة هذه الوصية ، يجب أن نكون قانعين بحالتنا وبوضعنا في الحياة ، مكتفين بما عندنا . ينبغي ألا نسعى إلى كسب أي شيء ما لم يكن الحصول عليه بطريقة كريمة وشريفة وشرعية .

الوصية التاسعة : " لا تشهد على قريبك شهادة زور "

إن الله هو الحق ، ويكره الزور والبهتان . ونحن كذلك يجب علينا دائماً أن نتعامل مع بعضنا البعض بصدق . لا ينبغي أن نؤذي قريبنا سواء بالافتراء أو ترديد الشائعات .

الوصية العاشرة : " لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ولا شيئاً ما مما لقريبك "

إن الله يمنعنا عن الانشغال بأي فكر يثير قلوبنا أو يحركها نحو الشر ويجعلنا نرغب في إيذاء قريبنا . ينبغي أن يتفق كل فكر وكل رغبه لنا مع أفضل شيء لخير القريب وفائدته .

هذه الوصايا تتطلب أن يصاغ الإنسان ، ويتم تشكليه وفقاً لقياس نقاوة الله ، لكي يمكننا أن نحب الله ونحب قريبنا . ويعطينا المسيح معنى واسعاً لكلمة " القريب " في مثل السامري الصالح ، الذي يعلمنا أن أقرباءنا ليسوا هم فقط بني جلدتنا أو مواطنينا ، بل أيضاً الغريب والأجنبي . كما علمنا المسيح قائلاً : " كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم ، لأن هذا هو الناموس والأنبياء " (متى ٧ : ١٢) . كان هذا تلخيص المسيح للناموس .

ويقدم بولس الرسول تلخيصاً آخر ، وكأنه يطالبنا بتركيز الانتباه والجهد، فيقول : " لأن كل الناموس في كلمة واحدة يكمل ، تحب قريبك كنفسك " (غلاطية ٥ : ١٤) ، وهذا ما علم به المسيح أيضاً .

بقى أمر واحد بحاجة لإيضاح ، ألا وهو أن البعض يعلم أن خطايا معينة– مثل فكر الشهوة العابرة – ليست على نفس الدرجة من السوء كالخطايا الأخرى،

وأن عقوبتها لا تصل إلى الموت . لكننا نقرأ في الإنجيل هذه الكلمات : " أجرة الخطية هي موت " (رومية ٦ : ٢٣) ، وهذا النص يعني بوضوح جميع الخطايا وليس مجرد بعضها . وقد علم المسيح في متى ٥ : ١٩ " من نقض احدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السموات " .

٩ – كان المسيح معروفاً في زمن العهد القديم ، لكن الإعلان عنه لم يكن كاملاً

كان قصد الله في تعليم شعب إسرائيل تقديم ذبائح عن الخطية ، أن يعلمهم بهذه الوسيلة أن يتطلعوا إلى الأمام ويترقبوا مجيء ذاك الذي سيكون الذبيحة النهائية عن الخطية ، وقد كان الأنبياء في القديم ينتظرون مجيء المسيا المخلص . وهذا ما تشير إليه رسالة بطرس الأولى : " الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء . الذين تنبأوا عن النعمة التي لأجلكم " وقال المسيح لتلاميذه : " طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع ، فإني الحق أقول لكم إن أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا ، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا " (متى ١٣ : ١٦،١٧) .

إن المواعيد الواردة في العهد القديم بشأن الغفران المجاني للخطايا تتطلع برجاء إلى مجيء البشارة السارة في العهد الجديد . إن الإنجيل هو " قوة الله ، الذي خلصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد والنعمة التي أعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية . وإنما أظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح " (٢تيمو ١ : ٨ – ١٠) . ويقول لنا بولس إن الله أعطانا في المسيح ما سبق أن وعد به .

إن الفرق بين ناموس العهد القديم وإنجيل العهد الجديد ، هو أن الناموس عبارة عن اتفاق مبني على أمر يقبل بالإيمان ، بدون أعمال الإنسان . لكن هذا لا يعني أن الناموس قد نقض أو ألغى ، بل انه في الواقع ثبت . والناموس الطقسي لم ينقض بعمل المسيح بل أكمل ؛ كانت الذبائح رمزاً لمحو وإزالة الخطية بسفك الدم ، لكن المحو الحقيقي والكفارة الحقيقية للخطية كانت بموت المسيح وسفك دمه المعروف سابقاً قبل تأسيس العالم . وهكذا حلت الحقيقة محل الرمز .

١٠ – أوجه التشابه بين العهدين القديم والجديد

ينادي كل من العهدين القديم والجديد برسالة واحدة . ومع ذلك هناك اختلاف في الطريقة التي يتم بها تقديم الرسالة . هناك ثلاثة مظاهر أساسية تتفق فيها معاملات الله لبني إسرائيل ، مع معاملات الله للمؤمنين في كل مكان ، وهي :

(أ) إن الاتفاق الذي به صولح الإسرائيليون مع الله لم يكن مبنياً على استحقاقاتهم الخاصة ، بل كان قائماً على رحمة الله الذي دعاهم . (وهناك مزيد من الضوء على هذه النقطة سيرد في حينه) .

(ب) كان الإسرائيليون يترقبون مجيء المسيا (المسيح) ويعرفونه على أنه الوسيط الذي به ينالون الخلاص . وقد أثبتنا هذا من قبل .

(ج) إن الهدف أو الغاية التي كانت موضوعة أمام اليهود هي نفس الغاية المقدمة لجميع المؤمنين ، هذه الغاية ليست السعادة الأرضية أو الثروة في الحياة الحاضرة بل رجاء الخلود .

ويقرر بولس بتحديد قاطع أن الإنجيل الذي يبشر به هو " إنجيل الله الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة " (رومية ١ : ٢) ثم يقول بعد ذلك إن بر الله الذي بالإيمان حسب تعليم الإنجيل ، كان " مشهوداً له من الناموس والأنبياء " (رومية ٣ : ٢١) .

كان اتفاق الله مع شعبه هو : " أنا أكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لي شعباً " (لاويين ٢٦ : ١٢) . فمادام شعب إسرائيل هو شعب الله ، فيكون له بالتالي نصيب في الحياة التي يعطيها الله وفي بركاته وخلاصه . إن الله لا يقصد أن يعطيهم نصيباً في السعادة الأرضية فحسب ، بل كان يقصد أن يخلص شعبه من الموت ويحفظه برحمته الأبدية . هذا ما آمن به الأنبياء وكتبوا عنه بإرشاد روح الله . فقد قال اشعياء : " الرب قاضينا ، الرب شارعنا ، الرب ملكنا هو يخلصنا " (اشعياء ٣٣ : ٢٢) ، إذن فقد أدرك اشعياء أن له أن يتوقع الخلاص الأبدي من الله . وعرف حبقوق أيضاً أن الله يعطي حياة أبدية ، فقال : " ألست أنت منذ الأزل يا رب إلهي قدوسي ؟ لا نموت " (حبقوق ١ : ١٢) .

وإذا تأملنا في حياة بعض الآباء والقادة ، فلن نتمكن من الظن بأن شعب إسرائيل لم يكن يتطلع إلا إلى بركة أرضية ، فمن الثابت أن " إبراهيم " رغم البركات التي حصل عليها ، إلا أنه لم يشعر بأنه قد وصل إلى الحالة الأفضل التي أعدها الله له ، فقد ذكر الكتاب أن إبراهيم " تغرب في أرض الموعد كأنها غريبة، ساكناً في خيام مع اسحق ويعقوب الوارثين معه لهذا الموعد عينه ؛ لأنه كان ينتظر المدينة التي لها الأساسات التي صانعها وبارئها الله " (عبرانيين ١١ : ٩،١٠) ، وتستمر رسالة العبرانيين في الحديث عن عدد كبير من قادة الشعب القديم قائلة : " في الإيمان مات هؤلاء أجمعون ، وهم لم ينالوا المواعيد ، بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض .. يبتغون وطناً أفضل

أي سماوياً ، لذلك لا يستحي بهم الله أن يدعى إلههم لأنه أعد لهم مدينة " (عبرانيين ١١ : ١٦،١٣) .

فمن المؤكد إذن أن الله وعد شعبه ، ليس فقط بالطعام والمسرات والثروة والقوة في العالم الحاضر – بل وعدهم أيضاً بالحياة الأبدية .

١١ – أوجه الاختلاف بين العهدين القديم والجديد

إن العهد القديم والعهد الجديد ، كليهما إعلان عن نعمة الله ، لكن يوجد بعض الاختلافات بينهما ، وهي اختلافات في وسائل تدبير الله لنعمته :

(أ) في العهد القديم وجه الله أفكار شعبه نحو ميراثهم السماوي عن طريق وعدهم ببركات أرضية كعينة أو مقدمة لهذا الميراث ، أما الآن وقد أعطانا الإنجيل ، فيمكننا أن نتطلع مباشرة إلى البركات السماوية دون أن يكون لنا صور أرضية عنها .

(ب) في العهد القديم توجد رموز وأشكال عن أمور عتيدة بأن تأتي . إن رمز الذبيحة في الهيكل قد أكمل وتحقق بموت المسيح كحمل الله ذبيحة كفارية . ومن هنا فإنه بينما يحتوي العهد القديم على أشكال ورموز ، فإن العهد الجديد يقدم تحقيقاً لها . فنحن الآن نملك حقائق لا رموز .

(ج) كان الناموس في العهد القديم مكتوباً على ألواح حجرية ، وكان مجرداً ومستحيلاً ، بمعنى أنه كان غير شخصي ، ولا يمكن الوفاء بمطالبيه . أما العهد الجديد فشريعته شخصية ، مكتوبة في قلوبنا بواسطة الرب نفسه ، والرب هو الذي يعطي نعمة للسير بمقتضاها . وهذا ما تنبأ عنه إرميا قائلاً : " ها أيام تأتي يقول الرب ، وأقطع مع بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهداً جديداً .. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها في قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً ، ولا يعلمون بعد، كل واحد صاحبه ، وكل واحد أخاه قائلين : اعرفوا الرب ؛ لأنهم كلهم سيعرفونني.. " (إرميا ٣١ : ٣١ – ٣٤) .

(د) العهد القديم هو عهد العبودية ، أما العهد الجديد فهو عهد الحرية ، هذا ما يقوله لنا بولس في رسالة رومية : " إذ لم تأخذوا روح العبودية للخوف ، بل أخذتم روح التبني " إن الناموس يغرس الرعب والخوف في الضمير ، لكن الإنجيل أو البشارة السارة في العهد الجديد تطلق سراح الضمير وتحرره وتملأ القلب فرحاً .

(هـ) قبل مجيء المسيح في الجسد ، كانت معاملات الرب مقصورة على أمة واحدة مختارة ، الأمر الذي يفسره موسى لشعب إسرائيل في (تثنية ١٠ : ١٥) قائلاً : "

ولكن الرب إنما التصق بآبائك ليحبهم فاختار من بعدهم نسلهم الذي هم انتم فوق جميع الشعوب " . إن الله أعطى شعب إسرائيل عهده مع كثير من الإمتيازات ، بل أعطاهم أيضاً حضوره الخاص . وعامل إسرائيل كابن محبوب مدلل بينما عوملت شعوب أخرى كأعداء ولم يسمح لهم بالاقتراب منه . لقد قدس إسرائيل من الله بينما ترك الآخرون في خطيتهم .

لكن عندما تجسد المسيح ، كوسيط بين الله والناس ، وأكمل العمل الذي جاء من أجله نقض حائط السياج وزالت العداوة ، ولم يعد هناك شيء يفصل الأمم الأخرى عن الله ، فقد زال الحاجز الذي يمنعها من الدخول في البركة وأعلن الله السلام للأمم التي كانت بعيدة عنه . ومن ذلك الوقت فصاعداً لم يعد هناك فارق بين اليهود والأمم . فقد صار الاثنان واحداً في المسيح وتمت المصالحة لكليهما مع الله ، ونموا معاً وصاروا شعباً واحداً . إن المسيح لم يأذن للأمم بالدخول إلى ملكوته السماوي كمواطنين من الدرجة الثانية ، لكنه منحهم نفس الإمتيازات ، حتى لم يعد هناك أي اعتبار لكون الإنسان يهودياً أو اممياً " ليس يهودي ولا يوناني ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر وأنثى ؛ لأنكم جميعاً واحداً في المسيح يسوع " (غلاطية ٣ : ٢٨) .

ولا يجوز لنا أن نتهم الله بالتقلب أو عدم الثبات ، بسبب أنه يستعمل طريقة معينة في التعامل مع الناس ثم يعود فيستخدم طريقة أخرى . فكما أن الفلاح يعمل عملاً معيناً في الشتاء ، ثم يعمل عملاً آخر في الصيف ، فهكذا الله – تبارك اسمه – له أن يعمل بطرق ووسائل مختلفة في أحوال مختلفة . فلابد أن تصير " الأمم ميراثاً له وأقاصي الأرض ملكاً له " ، ولابد أن " يملك من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض " (مزمور ٢ : ٨ ؛ ٧٢ : ٨) .

١٢ – كان من الضروري أن يصير المسيح إنساناً لكي يكون وسيطاً

إن الشخص الذي يتوسط بين الله والإنسان ، كان يجب أن يكون إلهاً وإنساناً معاً .

كانت خطايانا مثل سحابة كثيفة تفصلنا عن الله ، وتبقينا خارج ملكوته ، لذلك كان الأمر يحتاج إلى وسيط لا تعوقه أو تمنعه سحب الخطية . ولما كان الإنسان لا يمكنه الوصول إلى الله ، لذلك صار ابن الله إنساناً ، بلا خطية ، فكان قادراً على الوصول إلى الله والوقوف أمامه كإنسان طاهر نقي .

كانت حالتنا ميئوس منها ، وتطلب الأمر معجزة لبناء جسر فوق الهوة أو الفجوة الهائلة بين نجاستنا بين نقاوة الله اللامحدودة ، تلك هي معجزة التجسد التي اتحدت فيها الألوهية بجسم بشريتنا .

وحتى لو كان الإنسان لم يخطئ ، فإن مركزه كان منخفضاً جداً حتى أنه لم يكن ليقدر على الاقتراب إلى الله . لكن الإنسان أيضاً كان له من فساده الموروث وحياته الملطخة بالخطية ، ما يحرمه تماماً من الدخول إلى محضر الله . فياله من أمر عجيب مبارك أن يوجد وسيط قادر على الاقتراب إلى الله ليمثل الجنس البشري " يوجد وسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح " (١تيمو ٢ : ٥) . ويزداد الأمر وضوحاً بما جاء في عبرانيين ٤ : ١٥ " لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا ، بل مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية " .

كان عمل الوسيط ذا طابع غير عادي . إن هذا الوسيط لم يصالحنا مع الله وحسب ، بل ضمنا أيضاً إلى عائلته وأهل بيته ، وذلك بأن جعلنا – نحن البشر الذين نؤمن به – أن نصير أبناء الله . إن يسوع المسيح ، ابن الله وابن الإنسان في وقت معاً ، كان بالطبع الشخص الوحيد الذي يمكنه القيام بدور الوسيط . ولأن المسيح ، بموته ، قد جعل من شعب الله أخوة له ، لذلك كان له أن يقول : " إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم " (يوحنا ٢٠ : ١٧) . وتأسيساً على ذلك تبرز أمامنا حقيقة مجيدة وهي أننا ورثة ملكوت الله ، لأن ابن الله ، صاحب هذا الملكوت ، قد جعلنا أخوة له . ويترتب على كوننا أخوة له ، أن نكون أيضاً شركاء الميراث " فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً ، ورثة الله ووارثون مع المسيح" (رومية ٨ : ١٧) .

كان أمراً أساسياً أن يصير المسيح إنساناً ؛ لأن الجنس البشري قد خرب ودمر بسبب العصيان . كان المسيح قادراً – كإنسان – على إطاعة الله وإرضاء عدل الله ، وتسديد عقوبة الخطية عن الجنس البشري . فلو كان المسيح هو الله فحسب ، دون أن يكون إنساناً أيضاً ، لما كان ممكناً أن يقاسي الموت . لكن الموت كان عقاباً لخطية الإنسان فأراد المسيح أن يحمله عنا . ولو كان المسيح إنساناً فحسب ، دون أن يكون إلهاً أيضاً ، لما استطاع أن ينتصر على الموت ، لذلك كان الحل هو إدخال الطبيعة البشرية في اتحاد مع الطبيعة الإلهية . وهكذا فإن المسيح – في طبيعته البشرية – تألم وذاق الموت ، وفي قوة طبيعته الإلهية قهر الموت وأحرز النصر عليه ، من أجلنا .

على أن هناك أسباباً أخرى هامة ، تجعل تجسد المسيح أمراً أساسياً لفدائنا ، باعتبار كونه الشخص الفريد الذي هو إله وإنسان في وقت واحد . فالمسيح هو

الحياة ، وعلى ذلك كان يملك القوة على ابتلاع الموت ، والمسيح هو البر ، وعلى ذلك كان يملك القدرة على هزيمة الخطية ، والمسيح أقوى من العالم ومن جميع قوات الهواء ، وعلى ذلك كان يمتلك القدرة على الانتصار على قوات هذا العالم والشيطان .

إن الذين يقولون بأن المسيح كان إنساناً فحسب أو إلهاً فحسب ، هم أناس منحرفون ، مذنبون ، واقعون تحت ضلال خطير . لأن القول بأنه كان إلهاً فحسب دون أن يكون إنساناً أيضاً ، يسلب المسيح عطفه ولطفه وحنانه العظيم ، (واختباره لآلام البشر) . إن الذين يعملون بعقيدة خاطئة كهذه ، يحرمون الناس من القاعدة الأساسية للإيمان . أنه لا يمكننا نوال الغفران من الخطية ، بدون المسيح الإله والإنسان في وقت واحد .

١٣ – اتخذ المسيح جسداً بشرياً حقيقياً

سبق أن أوردنا البراهين القاطعة على أن المسيح – الظاهر في الجسد – هو الله . والآن علينا أن نتأمل في حقيقة أنه صار إنساناً لكي يكون وسيطاً .

حدث في وقت من الأوقات أن ظن بعض الناس أن جسد المسيح الأرضي كان مجرد طيف أو خيال ، أي أنه لم يأخذ جسد إنسان على الإطلاق : كما ظن آخرون – بالتأمل الخاطئ في بعض العبارات الكتابية ، مثل " صائراً في شبه الناس " ، " وجد في الهيئة كإنسان " (فيلبي ٢ : ٧،٨) – ظنوا أن هذه العبارات تشير إلى أن جسد المسيح كان جسداً إلهياً وليس جسد إنسان . بالطبع هذه العبارات كما قلنا ، قد فسرت تفسيراً خاطئاً ، فبولس لا يتحدث هنا عن طبيعة جسد المسيح ، بل كان يوضح أن المسيح ، الذي كان له الحق في إظهار مجد طبيعته الإلهية ، أظهر نفسه بتواضع كإنسان .

وتوجد فقرات كثيرة في الكتاب المقدس نتعلم منها أن المسيح كان إنساناً حقيقياً ، فإننا نعرف من الكتاب ان المسيح ولد من رحم عذراء ، وأنه جاء إلى العالم كطفل عادي كسائر البشر ، وأن نسبه ارتبط بسلسلة نسب الإنسان " ابن داود ، ابن إبراهيم " (متى ١ : ١) . " الذي صار من نسل داود من جهة الجسد " (رومية ١ : ٣) ، كما وصف المسيح نفسه مراراً كثيرة بأنه " ابن الإنسان " .

ويخبرنا الرسول بولس أن " الله أرسل أبنه مولوداً من امرأة ، مولوداً تحت الناموس ، ليفتدي الذين تحت الناموس " (غلاطية ٤ : ٤،٥) . فالناس المطلوب فداؤهم كانوا تحت الناموس ، وكان يجب أن يصير المسيح أيضاً تحت الناموس لكي يفتديهم ، ومن ثم صار إنساناً . ونفس التعليم نراه في رسالة العبرانيين

٢ : ١٤ " فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم ، اشترك هو أيضاً كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت " .

وعرفنا في البند السابق (ثاني عشر) أن الوسيط بين الله والناس ينبغي أن يكون إنساناً وإلهاً في وقت واحد ، وذلك يعد برهاناً آخر على أن المسيح كان إنساناً حقيقياً . وبكل وضوح يقول بولس : إن الله عندما أرسل " ابنه في شبه جسد الخطية ، ولأجل الخطية ، دان الخطية في الجسد " (رومية ٨ : ٣) . ففي الجسد البشري فقط يستطيع الله أن يدين الخطية البشرية ، لذلك اتخذ المسيح جسداً حقيقياً لكي يعاني آلام هذا الحكم .

وقد اعترض بعض الكتاب بأنه لو أن المسيح قد ولد بالحقيقة كإنسان ، فإنه يكون قد تلطخ بالفساد الذي شمل الجنس البشري كله منذ خطية آدم . لكن المعجزة هي أن المسيح ، شاركنا في كل شيء ما عدا الخطية ، وبالتالي كان قادراً على تحرير الجنس البشري من الخطية ، " فإذاً كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة ، هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الخطاة " (رمية ٥ : ١٨) .

١٤ – الطبيعتان في شخص الوسيط

في يوحنا ١ : ١٤ نقرأ أن الكلمة صار جسداً ، وهذا لا يعني أن الكلمة قد تغير وتحول إلى جسد ، ولا يعني أيضاً أن ابن الله قد امتزج بالجسد . لكنه يعني أن المسيح اختار جسداً بشرياً كهيكل لنفسه أو كمكان يسكنه . وقد اتحدت طبيعتاه (دون امتزاج) بطريقة احتفظ معها بطبيعته الكاملة كإله ، لكنه احتفظ أيضاً بطبيعته الكاملة كإنسان ، بينما ظل هو الشخص الواحد ، المسيح .

إن من الصعب أن نجد شيئاً على الأرض يمكن أن يتخذ مثلاً لهذه الحقيقة الخفية المبهمة ، الخاصة بوجود طبيعتين في شخص واحد . لكن يمكننا أن نجد مثلاً جيداً في الإنسان نفسه . فالإنسان يتكون من جزئين متميزين هما الجسد والنفس ، لكنهما وضعاً معاً في الإنسان نفسه ، بحيث أن امتلاك الإنسان لجسد مادي لا يمنع من أن يكون له نفس ، وامتلاكه للنفس لا يعني أن النفس لا يمكنها أن تسكن في جسد مادي . إنه يمكن أن يقال عن النفس أموراً لا يمكن أن تصدق على الجسد ، وبالمثل يمكننا أن نقول عن الجسد أموراً لا يجوز أن تنسب إلى النفس . ومع أننا نستطيع أن نتحدث عن جزئي الإنسان ، كل جزء على حدة ، إلا أنه لا يزال شخصاً واحداً ، وبطريقة مشابهة ، امتلك المسيح – الشخص الواحد – طبيعتين .

ونستطيع أن نكون على يقين بأن المسيح لم يكن مجرد إنسان ، عندما نقرأ فقرة كتابية مثل : " بكر كل خليقة ، فإنه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى .. الكل به وله قد خلق " (كولوسي ١ : ١٥ – ١٧) ، وكذلك عندما نقرأ ما قاله المسيح عن المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم (يوحنا ١٧ : ٥) .

وبالمثل نستطيع أن نكون على يقين بأن المسيح لم يكن إلهاً فقط دون أن يكون إنساناً أيضاً ، من الفقرات الكتابية التي تشير إلى طبيعته البشرية والتي لا يمكن أن تكتب عن الله . فالكتاب يتحدث عن طبيعته البشرية هذه ، عندما يشير إلى المسيح على أنه " عبد للرب " (اشعياء ٤٢ : ١) وعندما يقال عنه أنه كان ينمو في الحكمة والقامة عند الله والناس ، وعندما يتحدث عن اليوم الأخير والساعة الأخيرة بأنه لا يعلم بهما احد ، ولا الابن إلا الآب (مرقس ١٣ : ٣٢) وعندما ينسب السلطان الذي يتكلم به الآب .

وهناك بعض الفقرات الكتابية التي تتحدث عن الطبيعتين معاً في وقت واحد ، وهذا يكشف لنا بأكثر وضوح الحق المتعلق بشخص المسيح . إن هذه الفقرات الكتابية تنسب إلى المسيح قدرات وإمكانات ، وتطلق عليه ألقاباً لا يمكن أن تعطي لإنسان إلا إذا كان هذا الإنسان أعظم وأسمى بكثير من مجرد كونه إنساناً ، أي أن يكون إلهاً إلى جانب كونه إنساناً . فنقرأ أن المسيح له القدرة والسلطان على مغفرة الخطايا وعلى إعطاء البر والقداسة ، وعلى دينونة العالم . ونقرأ أن له نفس المجد الذي للآب . ويعطيه الكتاب ألقاباً مثل : نور العالم ، الراعي الصالح ، والباب الوحيد ، والكرمة الحقيقية . والحق أن الله وحده هو القادر أن يكون هكذا ، وأن يفعل هذه الأشياء .

١٥ – المسيح لنا : النبي والكاهن والملك

في أيام العهد القديم ، أرسل الله كثيرين من الأنبياء في أوقات متعددة ، لكي يكون لشعب إسرائيل على الدوام من يعلمهم عن الله . لكن كل فرد من الشعب كان يعرف أن التعليم الكامل سيكون على يد المسيا عندما يجيء ، حتى السامريون كانوا يؤمنون بهذا ، فقالت السامرية : " أنا أعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء " (يوحنا ٤ : ٢٥) . والوعد عن المسيا في نبوة اشعياء يشير إليه على أنه المشرع والمشير لكل الشعوب : " هوذا قد جعلته شارعاً للشعوب رئيساً وموصياً للشعوب " (اشعياء ٥٥ : ٤) . وبعد سلسلة طويلة من الأنبياء جاءنا معطي النبوات ، الملهم الأعظم وهكذا فإن " الله بعدما كلم الآباء

بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة ، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه " (عبرانيين ١ : ١،٢) .

والمسيح أيضاً ملك ، لكن ملكوته ليس ملكوتاً مادياً بل روحياً ، ولأنه ملكوت روحي ، فهو كذلك ملكوت ابدي ، إنه أبدي لكل من الكنيسة والمؤمن الفرد . وقبيل تسليم المسيح مباشرة قال : " مملكتي ليست من هذا العالم " (يوحنا ١٨ : ٣٦) . هناك تجارب تواجهنا في أثناء حياتنا ، لكن معرفتنا بأننا ننتمي إلى ملكوت سماوي لا يزول ، ينبغي أن تجعلنا نفرح ونبتهج برجاء الخلود والحياة مع المسيح .

ودور المسيح ككاهن دور حيوي في أمر خلاصنا . عرفنا من قبل أن المسيح وسيطنا ، والكاهن وسيط بين الله والناس . وكان هذا الكاهن (المسيح) قادراً على إتمام عمله على الوجه الأكمل ، لأنه كان متحرراً من كل أدران الخطية ، خلواً من أية شائبة ، فاستطاع – بقداسته الخاصة – أن يصالحنا مع الله. كان الناموس في العهد القديم يحرم دخول الكاهن إلى الهيكل ، بقصد الاقتراب إلى الله في قدس الأقداس ، بدون دم ذبيحة وذلك كان لتعليم الشعب أنه بدون ذبيحة عن الخطية لا يمكن أن يقبلهم الله . وهو الكاهن الذي كنا في حاجة إليه لكي يأتي ويقدم الذبيحة الوحيدة الحقيقية التي بها يرفع عنا خطايانا ويطهر حياتنا ويصالحنا مع الله ويفتح الطريق أمامنا للقدوم إلى الآب (افسس ٢ : ١٨) ، بعد أن كنا قد فقدنا أي حق في المثول أمام الله بسبب خطيتنا .

والشيء الفريد في عمل المسيح ككاهن من اجلنا ، هو أنه كفر عن خطيتنا ليس بذبيحة حيوانية ككبش أو ثور أو تيس بل بذبيحة نفسه . وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تقديم ذبيحة واحدة لا تتكرر بل تدوم إلى الأبد. ذلك أنه مع كونه كاملاً بلا خطية ، مات من أجل الخطية . وحيث أن ذبيحته أبدية فانه قادر أن يشفع فينا إلى الأبد ككاهن لنا أمام الله . وبذلك فهو يضمن لنا أن نجد لدى الله العطف والقبول . وبناء على ذلك فقد كان المسيح هو الكاهن وهو الذبيحة. ولا تقدر أية ذبيحة أخرى أو أي ذبيح آخر أن يزيل غضب الله على خطيتنا . كما لا يوجد كاهن آخر يستحق ذلك الشرف العظيم ، شرف تقديم الابن الوحيد ذبيحة لله ، سوى الابن ذاته . وهنا تجدر الإشارة إلى خطأ يقع فيه البعض، عندما يقولون إن الكاهن الأرضي يقدم المسيح كذبيحة متكررة ، كلما اجتمعوا " للقداس " أو لشركة عشاء الرب . هذا أمر يخالف تماماً تعليم الكتاب المقدس .

وكانت الشريعة تعلم شعب إسرائيل ضرورة مسح قادتهم بالدهن كعلامة على تكريسهم لمهمة مقدسة . وقد منح الوسيط الموعود به لقب المسيا (المسيح)

بمعنى الممسوح ، وكان كل من النبي والكاهن والملك يمسح بدهن المسحة ، والمسيا ، مسيحنا ، هو كل هؤلاء الثلاثة : نبي وكاهن وملك .

١٦ – عمل المسيح الخاص بالفداء

عرفنا أننا في المسيح نلتمس النجاة والحياة والخلاص ، حيث كنا واقعين تحت الدينونة ؛ أمواتاً وهالكين . " وليس بأحد غيره الخلاص ، لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغي أن نخلص " (أعمال ٤ : ٢١) ، والمسيح قد دعى اسمه يسوع " لأنه يخلص شعبه من خطاياهم " (متى ١ : ٢١) ، فالمسيح هو طريقنا الوحيد للخلاص .

(أ) المصالحة

نعرف من الكتاب المقدس ، أن الله كان غاضباً على البشر ، إلى أن تمت مصالحتهم معه بواسطة موت المسيح . فقد قدم الله لنا رحمته مجاناً ، مع أننا كنا أعداء بسبب خطيتنا .

ويخبرنا الكتاب بوضوح أننا عندما جلبنا على أنفسنا غضب الله كان لابد أن يؤدي ذلك إلى موتنا الأبدي ، وإلى أن تغلق كل أبواب الرجاء في وجوهنا ، وحيث صرنا عبيداً للشيطان وأسرى للخطية ، كان مصيرنا الهلاك الرهيب . لكن– في رحمته العظمى – تدخل المسيح ليحامي عنا ولحمل القصاص الذي نستحقه ، فكفر بدمه عن شرنا ، ذلك الشر الذي جعل الإنسان مكروهاً في نظر الله . وبكفارته ، وضع المسيح أساس السلام بين الله والناس . وعندما ندرك المصير المرعب الذي خلصنا منه سنكون على وعي وإدراك أكثر برحمته مما لو قيل لنا ببساطة : " الله يحبنا ولن يتركنا منفصلين عنه " . إن الله قد أحبنا ونحن بعد خطاة .

عندما كنا في أعمق درجات الخطية ، لم يكن الله راغباً في أن يهلك أي واحد من خاصته . إنه في إحسانه ورحمته أحبنا . إننا خليقته ، وهو خلقنا للحياة. هذه حقيقة لا تزال صادقة ، وفي وقت لم يكن فينا شيئاً يحب أو يجذب النظر إلينا، دبر الله بمحبته ورحمته أن يعيدنا مرة أخرى إلى شركته ورعايته . لكن إثمنا لم يكن يتفق أو يتصالح مع بر الله ، فالاثنان لا يتعايشان معاً . ولهذا تدخل الله عن طريق ذبيحة المسيح الكفارية ليحررنا من الإثم والشر الذي فينا ويعاملنا كأبرار ومقدسين ، وهكذا يزيل كل الأسباب التي تفصلنا عنه .

ولأن الله أحبنا أولاً ، فقد صالحنا لنفسه – من خلال عمل المسيح قال أوغسطينوس : " الله قد أحبنا بطريقة إلهية عجيبة ، حتى عندما كان يبغضنا ، وقد نظر إلينا فرأي عمل أيدينا جدير بالبغض ، وعمل يديه جدير بالمحبة " .

(ب) الطاعة

إن المسيح صالحنا مع الله بطاعته الكاملة في حياته وموته . " لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة ، هكذا أيضاً بإطاعة الواحد جعل الكثيرون أبراراً " (رومية ٥ : ١٩) . فالحق أن المسيح قد بدأ في تسديد الثمن من أجلنا ، منذ الوقت الذي أصبح فيه عبداً . لكن الثمن لم يسدد على نحو كامل ومحدد إلا بموته على الصليب . فهو قد جاء " ليبذل نفسه فدية عن كثيرين " . متى ٢٠ : ٢٨) ، " والمسيح مات من أجل خطايانا " (١كو ١٥ : ٣) ، " هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم " (يوحنا ١ : ٢٩) . إن التزام الطاعة في حياته وفي موته ، يظهر بوضوح من خلال ما نتعلمه في رسالة فيلبي عن المسيح وأنه " أخلى نفسه ، آخذاً صورة عبد ، صائراً في شبه الناس ، وإذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت ، موت الصليب " (فيلبي ٢ : ٧،٨) .

لم يكن المسيح – كذبيحة – منزوع الإرادة والسلطان ، ولم يقدم نفسه على كره منه ، بل قدم نفسه طواعية واختياراً . والذبيحة التي لا تقدم بهذه الطريقة أي بكامل حريتها لا يمكن أن تبررنا ، وقد قال المسيح عن حياته : " ليس أحد يأخذها مني ، بل أضعها أنا من ذاتي " (يوحنا ١٠ : ١٨) . ولو لم يكن المسيح قد حمل على كاهله دينونتنا ، وأنجز في نفسه عقوبتنا ، فإننا كنا سنقضي حياتنا في رعب من دينونة الله العادلة .

(ج) صار لعنة

كان لموت المسيح مصلوباً دلالة على جانب كبير من الأهمية . فقد كان الصليب ملعوناً في نظر الإنسان وكذلك في نظر الله (انظر تثنية ٢١ : ٢٣) . صار المسيح ملعوناً عندما رفع على خشبة . إن اللعنة التي كنا نستحقها وقعت عليه ، " الرب وضع عليه إثم جميعنا " ، وكان الصليب إشارة إلى انتقال الخطية منا إليه . " المسيح افتدانا من لعنة الناموس ، إذ صار لعنة لأجلنا ، لأنه مكتوب ملعون كل من علق على خشبة " (غلاطية ٣ : ١٣ ، ١٤) . بالإيمان نتعلم أن اللعنة التي وضعت عليه ، قد أنتجت البركة لنا .

(د) الموت

عندما مات المسيح أخذ مكاننا . وقد كنا تحت حكم الموت بسبب الخطية. والمسيح وضع نفسه تحت حكم الموت لكي ينقذنا منه ، و " ذاق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد " (عبرانيين ٢ : ٩) . وعلى ذلك فإنه يمكن القول بحق إنه مات لكيلا نموت نحن ، وأنه بموته اشترى حياتنا اشترك المسيح في الموت ، " لكي

يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت ، أي إبليس ، ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية " (عبرانيين ٢ : ١٤،١٥)

(هـ) الدفن

هناك دلالة هامة وراء حقيقة دفن المسيح . فالرمز هنا أنه في الإمكان أيضاً دفن الحياة القديمة الخاطئة ، وحيث أننا نعتبر ، بمعنى ما ، مدفونين مع المسيح لذلك ، ينبغي أن نترك حياة الخطية وراءنا .

(و) النزول

في قانون الإيمان الرسولي ، الذي يردده الكثيرون منا ، عبارة تقول : إن المسيح نزل إلى " الهاوية " ، فلنتأمل إذن في هذا النزول . لقد قطع المسيح في تنازله شوطاً طويلاً من مجده السماوي إلى حالة أصبح فيها ملعوناً من أجل الجنس البشري . وكان عليه أن ينزل إلى مستوى أدنى ، ليدخل في معركة مع قوات الجحيم ، ليحارب ويهزم الموت الأبدي . لذلك ، فليس علينا الآن أن نرتعب من أهوال قوات الجحيم ، عندما نموت ، لأن المسيح هزمها من أجلنا .

(ز) القيامة

إن عمل المسيح في المصالحة والطاعة والموت والدفن والنزول ، يصبح لنا أيضاً رجاء حي . إن حياة المسيح بعد القيامة أظهرت بوضوح أنه قاهر الموت ، ويترتب على معرفتنا لهذه الحقيقة بالإيمان أننا ننتظر ونتوقع بثقة أن ننتصر على الموت من أجل أنفسنا . والواقع أنه لو كان الموت هزم المسيح ، لما استطاع أن يحقق لنا النصر على الموت .

إن ارتباط تجدد حياتنا والسلوك في جدة الحياة ، بقيامة المسيح ، أمر يقرره بولس الرسول فيقول : " كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب ، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة . لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته ، نصير أيضاً بقيامته " (رومية ٦ : ٤،٥) ، " فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق ، حيث المسيح جالس عن يمين الله . اهتموا بما فوق لا بما على الأرض. لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله " (كولوسي ٣ : ١ – ٣) . إن قيامة المسيح هي أكثر الوعود ثباتاً ورسوخاً بأننا سنقوم أيضاً معه . " قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين " (١كو ١٥ : ٢) .

(ح) الصعود

بدأ مجد المسيح بقيامته ، لكن المسيح لم يدخل إلى مجده إلا بعد صعوده إلى السماء . فقد " صعد أيضاً فوق جميع السموات لكي يملأ الكل " (أفسس ٤ : ١٠) . وهنا نرى تناسقاً جميلاً بين فقرتين كتابيتين على فم المسيح : " أما أنا فلست معكم في كل حين " (يوحنا ١٢ : ٨) . ويعني بهذا أن جسده لن يكون دائماً مع البشر ، لكنه يقول في الفقرة الثانية " ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر " (متى ٢٨ : ٢٠) . والحقيقة المباركة وراء الفقرتين أن المسيح يقدم لنا وعداً بأن يتحقق لنا حضور وقوة روحه القدوس .

(ط) التتويج (الجلوس على العرش)

إن في جلوس المسيح عن يمين الله دلالة على تسلمه كل السلطان لحكم السماء والأرض . وأن تتويجه في السماء قد فتح الطريق أمام الخطاة إلى الله . ولأن المسيح قد دخل السماء بطبيعتنا ، فإننا به نكون قادرين على أن نمثل في حضرة الله . المسيح محامينا ، لذلك نستطيع بشفاعته أن نقترب من عرش النعمة دون أن يملأنا الرعب . إن قوة المسيح كملك كافية تماماً لمنحنا القدرة التي نحتاج إليها ضد قوات الظلام .

(ي) المجيء الثاني

يملك المسيح الآن على الأرض ، لكن ملكه مخبوء ومخفي إلى حد ما . أما في اليوم الأخير سينزل من السماء بهيئة مرئية ، وستراه كل عين ، وسيرى الناس قدرته غير المحدودة ، وعظمة ملكوته ، وبهاء سرمديته ، وسلطان ألوهيته. ويخبرنا الكتاب بأن نرتقب ونتطلع إلى ذلك اليوم الذي فيه يتم الفصل والفرز للجنس البشري . لكي يفصل الذين قد اختارهم عن أولئك الذين قد رفضوا .

(ك) الدينونة

إن المسيح هو الذي سيدين العالم ، وهذه الحقيقة مصدر خوف ورعب لأولئك الذين لا يتبعونه ، لكننا نحن المؤمنين باسمه ، يعزينا أن نعرف أن الدينونة كلها قد سلمت إليه . ومن المؤكد أنه لن يدين الذين عينهم لكي يشتركوا معه في الحكم ، والمسيح كسيد وملك رحيم لن يدين رعيته أو يبعثر جسد الكنيسة . من الأمور المتيقنة عندنا أن محامينا لن يديننا ، نحن موكليه وتابعيه .

وفي ختام حديثنا عن العمل الخلاصي ، يجب أن نؤكد أن كل جزء في عملية خلاصنا يتم بكامله بواسطة المسيح ، فإن منه وحده تأتي كل بركات الخلاص

: مواهب الروح القدس ، كما تأتي القوة والتعزية والتحرير والتبرير والنجاة وتجديد الحياة ، والميراث السماوي ، والثقة في قضائه ، وفيض وافر من جميع البركات .

١٧ – أنجز المسيح لنا بكفارته استحقاق النعمة

قال بعض الناس ، إن استخدام كلمة " استحقاق " يحجب ضياء نعمة الله المجانية لنا . لكن عندما نتكلم عن الاستحقاق يجب أن يكون واضحاً أمام عيوننا أمران هما نعمة الله لنا ، وعمل المسيح (أو استحقاقه) الذي أحضر لنا هذه النعمة. إن نعمة الله أرسلت المسيح لكي يقوم بالعمل الاستحقاقي الذي يمكن أن يقدم لنا الخلاص . ليس هناك أي تناقض بين نعمة الله المجانية وبين طاعة المسيح . وهذه الحقيقة واضحة جداً في الكتاب المقدس : " في هذا هي المحبة ، ليس أننا نحن أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا " (١يو٤ : ١٠) . لقد أعد الله أن تكون طريقة الخلاص بواسطة المسيح ، لكي لا يقف شيء في طريق محبته . إن الكفارة هي الكلمة الصحيحة ، لأنها تشير بطريقة يصعب شرحها ، إلى أن الله كان غاضباً منا في نفس الوقت الذي فيه أحبنا .

عندما نعلن أن استحقاق المسيح هو الذي حصل لنا على النعمة ، فإننا نعني أن دمه طهرنا وأن موته كان كفارة لخطايانا " دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية " (١يو ١ : ٧) ، " هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا " (متى ٢٦ : ٢٨) . إن خطايانا قد رفعت عنا كاهلنا، لأن المسيح – على حساب حياته – أرضى عدل الله . هذا ما أعلنه يوحنا المعمدان بوضوح : " هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم " (يوحنا ١ : ٢٩) .

ونفس الحقيقة تعلم بها طقوس الناموس اليهودي . " فبدون سفك دم لا تحصل مغفرة " (عبرانيين ٩ : ٢٢) ، وتتوسع رسالة العبرانيين في هذه النقطة ، فتقول : "إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش على المنجسين ، يقدس إلى طهارة الجسد ، فكم بالحري يكون دم المسيح ... يطهر ضمائركم من أعمال ميتة" (عبرانيين ٩ : ١٣،١٤) . بل انها كانت حقيقة ثابتة منذ زمن اشعياء " تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا " (اشعياء ٥٣ : ٥) .

ونقرأ عن كل من " النعمة " و " الكفارة " في عددين متواليين من الإصحاح الثالث في رومية ٣ : ٢٤،٢٥ وهما فقرة واحدة : " متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح . الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه " . ومن أجل الابن سكن غضب الآب : " قد غفرت لكم الخطايا من أجل اسمه " (١يو ٢ : ١٢) .

الجزء الثالث

وسائل نوال نعمة المسيح

ونتائج ذلك

الجزء الثالث
وسائل نوال نعمة المسيح ونتائج ذلك

١ – نوال فوائد إنجيل المسيح من خلال العمل الخفي للروح القدس

إن عمل المسيح الخلاصي يكون بلا فائدة لنا إذا لم نتحد بالمسيح . فلايمكننا أن ننال بركات الله التي يضمنها عمل المسيح إلا من خلال الروح القدس: " اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا " (١كو ٦ : ١١) . فالروح القدس هو الرابطة التي تربطنا بالمسيح بل هو رباطة اتحادنا بالمسيح .

وقد أعطي للروح القدس في الكتاب المقدس ألقاب كثيرة :

(أ) فهو يسمى **" روح القداسة "** لأن عمل الروح القدس ينشيء فينا بداية الحياة السماوية ومن هنا تنبأ الأنبياء بانسكاب عظيم للروح القدس في ملكوت المسيح .

(ب) ويسمى أيضاً **" روح الآب " و " روح الابن "** في نفس الوقت ؛ وقد جاء ذكر هذين اللقبين في آية واحدة في رومية ٨ : ٩ " وأما أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح الله ساكناً فيكم ، ولكن إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له " .

(ج) وهو **" روح التبني "** ، لأنه يشهد بالدليل الواضح على صنيع الله ونعمته المجانية التي بها دعانا لنكون أبناء له . والروح القدس يعلمنا أن يكون لنا ثقة أمام عرش النعمة ، وفي التطلع إلى الله باعتباره أباً لنا .

(د) وهو **" عربون ميراثنا "** ، من السماء وفينا ، يحرك الروح القدس كياننا الباطن مؤكداً لنا أن خلاصنا يقيني وثابت .

(هـ) وهو **" ماء الحياة "** ، أسكب ماء على العطشان وسيولاً على اليابسة ، أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذريتك " (اشعياء ٤٤ : ٣) .

(و) و **" دهن المسحة "** ، " وأما أنتم فلكم مسحة من القدوس " ، " ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد ، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء " (١يو ٢ : ٢٠،٢٧) . فالروح القدس يفرزنا على اعتبار أننا المتعلمون من الله .

(ز) و **" نار "** : فالروح القدس يحرق ما فينا من زغل وشوائب قذرة ، ويضرم في قلوبنا حب الله وحب التقوى " هو سيعمدكم بالروح القدس ونار " (لوقا ٣ : ١٦) .

إن العمل الخصوصي للروح القدس هو منحنا الإيمان الذي يأتي بنا إلى نور الإنجيل . ونتعلم من بشارة يوحنا أن " كل الذين قبلوه ، أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله ، الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله " (يوحنا ١ : ١٢،١٣) . هذه المقابلة بين الله وبين الجسد والدم تشير بوضوح إلى أن القوة التي بها نقبل المسيح هي هبة علوية تعطي للمؤمنين من فوق ، ولو لم تعط لهم لظلوا غير مؤمنين . وهي نفس الحقيقة التي نتعلمها من كلام الرب لتلاميذه : " وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكن فيكم " (يوحنا ١٤ : ١٦،١٧) .

٢ – الإيمان وصفاته المميزة

لقد سبق فأوضحنا ثلاث نقاط هامة هي :

(أ) أن هناك قصاصاً رهيباً قد وقع علينا بسبب كسرنا للشريعة التي أعطاها الله.

(ب) أنه من المستحيل على الإنسان الذي سقط بسبب الخطية أن يحفظ أو يتمم الشريعة ، وإذا اتكلنا على أنفسنا فلن يكون لنا أي أمل في الهروب من الموت الأبدي .

(ج) لا يوجد إلا طريق واحد لإنقاذنا من هذه الكارثة الرهيبة ، هو طريق الفداء والحرية التي بالمسيح . وقد وعد الآب السماوي بهذا الفداء وهذه الحرية ، للذين يتكلون على رحمته ، في المسيح ، بإيمان حقيقي ورجاء وطيد .

والآن علينا أن نتأمل في معنى هذه الكلمة " إيمان " . هناك الكثيرون من الناس لا يعني الإيمان بالنسبة لهم أكثر من التصديق بأن حياة المسيح حقيقة تاريخية . وحتى لو قالوا بأن الله هو موضوع الإيمان فإنهم لن يقتربوا من فهم معنى الكلمة . لأن الله ساكن في نور لا يمكن لأي إنسان أن يدنو منه ، والمسيح وحده هو الذي يرينا الطريق إليه . فالمسيح – كما يقول عن نفسه – نور العالم (يوحنا ٨ : ١٢) وهو أيضاً " الطريق والحق والحياة " ، " لأنه لا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له " . (يوحنا ١٤ : ٦ ، لوقا ١٠ : ٢٢) .

ويشهد بولس الرسول بأن مجد الله إنما يرى في شخص ابن الله ، وأن إنارة معرفة مجد الله تشرق في قلوبنا في وجه يسوع المسيح (٢كو ٤ : ٦) . فإيماننا الذي ينبغي أن يكون في الإله الحقيقي وحده ، ينبغي أيضاً أن يستند على يسوع

المسيح الذي أرسله . (يوحنا ١٧ : ٣) فإن لم يشرق علينا نور المسيح ، يظل الله محجوباً عنا تماماً .

لا يوجد شيء يسمى بالإيمان الضمني ، فإن وجد فإنه يعني بصراحة الجهل المطبق . إن مجرد أن يفعل الشخص ما تأمر به الكنيسة دون فهم لا يعد إيماناً . فالإيمان ليس هو الجهل ، بل هو معرفة الله ومعرفة إرادة الله . إن الإيمان يتكون من معرفة الله والمسيح ، وليس مجرد احترام الكنيسة . إن كل الكتاب يعلم بأن الإيمان الحقيقي يكون مصحوباً بالفهم المستنير .

كذلك ينبغي أن ندرك أنه لا يمكن معرفة المسيح ، موضوع إيماننا ، إلا من خلال بشارة الإنجيل . فإيماننا يجب أن يستند على كلمة الله . يقول يوحنا إن بشارة الإنجيل قد كتبت " لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه (يوحنا ٢٠ : ٣١) . والواقع أن الإيمان الذي لا يتأسس على الكتاب المقدس ، يكون أشبه بقصص الخرافات والضلالات .

وقد نتعجب ماذا في كلمة الله حتى إن إيماننا يجب أن يرتكز عليها . إن الإيمان ليس مجرد معرفة إرادة الله ، بل هو معرفة إرادة الله الصالحة ورحمته الكريمة . نحن في حاجة إلى وعد الله بالنعمة الذي يظهر لنا فيه أنه الآب الرؤوف. ومن هنا يكون التعريف الصحيح للإيمان كما يلي : إن الإيمان هو معرفة ثابتة أكيدة عن إرادة الله الصالحة من نحونا ، معرفة مؤسسة على صدق وعد الله الكريم في المسيح ومعلنة لأفهامنا ومختومة على قلوبنا بالروح القدس .

استخدامات مختلفة لكلمة " إيمان " :

لا نود أن نربك أنفسنا بالطرق المختلفة التي بها تستخدم هذه الكلمة . لذلك نكتفي بانتقاء بعض المعاني ونميز فيها بين الصحيح وغير الصحيح .

(أ) يرى البعض أن هناك شيئاً يقال عنه الإيمان غير المحدود أو الإيمان الغامض. ويطلقون هذا التعريف على إيمان الناس الذين قد يؤمنون بصدق الكتاب المقدس دون أن يكون لهم أي توقير أو احترام لله . لكن بولس يقول : " لأن القلب يؤمن به للبر " (رومية ١٠ : ١٠) . فإذا ما وصل إيمان ما إلى الرأس فقط دون القلب فلا يعد إيماناً حقيقياً على الإطلاق . وفوق ذلك فإن الإيمان هو معرفة المسيح الذي لا يمكن معرفته بدون قوة روحه القدوس ، القادر على تقديس وتطهير القلب والحياة .

(ب) ويعتقد كثيرون بوجود الله وبصحة النسيج التاريخي للكتاب ، وقد يبذلون محاولات لإطاعة الوصايا ، لكن إذا لم يكن لديهم طاعة حقيقية خالصة لإرادة الله،

فإن إيمانهم لا يكون إيماناً حقيقياً ، فإنه لا إيمان بغير طاعة حقيقية . قد يظنون أن لهم إيماناً لأنهم ينظرون إلى كلمة الله باحترام ووقار . لكنهم مع الأسف ليس لهم إيمان حي مثمر ودائم .

(ج) وقد تستخدم كلمة إيمان بمعنى التعليم الصحيح أو العقيدة السليمة ، وخير مثال على ذلك حديث بولس لتلميذه تيموثاوس : إن الخادم الصالح ليسوع المسيح يجب أن يكون " متربياً بكلام الإيمان الحسن الذي تتبعته " (١تيمو ٤ : ٦) .

طبيعة الإيمان الحقيقي

عندما حددنا معنى الإيمان بأنه " المعرفة الثابتة الأكيدة " فنحن لا نعني ذلك النوع من المعرفة التي تكون لدينا عن الأشياء باستخدام حواسنا الطبيعية ، لكننا نعني معرفة فائقة أسمى وأعلى من فكر الإنسان . يكتب بولس الرسول عن المعرفة الفائقة فيقول : " ..وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة " (أفسس ٣ : ١٩) . ويتكلم الرسول يوحنا ، بحق ، عن الإيمان كمعرفة ، عندما يشهد بأن المؤمنين يعرفون أنهم أبناء الله " الآن نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو " (١يو ٣ : ٢) ، فالمعرفة التي تقود إلى الإيمان تحتوي على اليقين أكثر من احتوائها فقط على الفهم .

إن الإيمان يتطلب اليقين الكامل ويسعى إليه ، مع أن عدم الإيمان متأصل في قلوبنا ، لدرجة أنه لا يوجد إنسان يصل إلى الاقتناع التام بالإيمان بالله دون صراع عنيف . ولعلاج مرض عدم الإيمان هذا ، فإن الروح القدس يتكلم بكلمات سامية عن سلطان كلمة الله ، فيقول : " قول الرب نقي ، ترس هو لجميع المحتمين به " (مزمور ١٨ : ٣٠) .

هناك كثيرون من الناس غير متيقنين من رحمة الله نحوهم . هم يرون رحمة الله على أنها عظيمة وكاملة ، لكنهم يشكون في إمكانية التمتع بها . لذلك تراهم في اضطراب مستمر بسبب عدم التأكد واليقين . أما نحن فنملك التأكيد واليقين من الكتاب المقدس ، فنحن بالمسيح " لنا جراءة وقدوم بإيمانه عن ثقة " (أفسس ٣ : ١٢) . فالمؤمن يملك يقيناً وتأكيداً ثابتاً بأنه قد صولح مع الله ، وأن الله هو أبوه المحب الشفوق الرحوم . إن المؤمن الحقيقي يقول بثقة مع بولس : " فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة ، ولا ملائكة ولا رؤساء ، ولا قوات ، ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ، ولا علو ولا عمق ، ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا " (رومية ٨ : ٣٨،٣٩) .

كثيرون يختبرون تذبذباً في التأكد من رحمة الله ، وهذا أمر متوقع . وبالرغم من أننا نشعر بصراعنا المستمر لكي نثق ، ضد مقاومتنا الذاتية ، لكن المؤمن الحقيقي لا يطرح مطلقاً ثقته الثابتة في رحمة الله . ويعد داود مثلاً حياً على هذه الحقيقة . كان داود رجلاً يملك إيماناً ثابتاً في الله ، ومع فقد عاني صراعاً قوياً ضد عدم الإيمان ، حتى صرخ قائلاً : " لماذا أنت منحنية يا نفسي ، ولماذا تئنين في ، ترجي الله لأني بعد أحمده " (مزمور٤٢ : ١١؛ ٤٣ : ٥) . إنه أمر مبارك أن إيمان الشخص التقي في مثل هذه التجارب والتساؤلات ، يحرز انتصاراً على الصراع ويتشدد بالرب : " انتظر الرب ، ليتشدد وليتشجع قلبك " (مزمور ٢٧ : ١٤) .

ويمكننا أن ندرك السبب وراء هذه الصراعات الداخلية ، عندما نتذكر أننا سبق أن تعلمنا – في هذه الدراسة – أن المؤمن يتكون من جسد ونفس . يكون المؤمنون سعداء بمعرفة صلاح الله ووعده بالخلاص ، لكنهم يكونون تعساء بمعرفة كثرة إثمهم . فالمؤمن أثناء وجوده على الأرض لا يكون إيمانه قد اكتمل بعد ، فهذا الكمال أمر نظل نرتقبه إلى أن نصل إلى السماء . لكن يمكننا أن نظل أيضاً على يقين بأنه حتى ولو اهتز إيماننا فإننا لن نفقده تماماً . " هذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا " (يوحنا ٥ : ٤) .

وهناك نوع آخر من الخوف ، هو في الواقع خوف نافع إيماننا إن المؤمنين عندما يرتعدون وهم يتأملون في أمثلة عقاب الله للأشرار ، فإنهم يتعلمون أن يحذروا وينتبهوا لأي موقف قد يغضبون الله فيه بأفعالهم الخاطئة " إذن من يظن أنه قائم فلينظر ألا يسقط " (١كو ١٠ : ١٢) . إن بولس بهذه العبارة يحذرنا من الثقة الزائدة في أنفسنا تلك الثقة التي تستند على قدراتنا الذاتية . عندما نقرأ قول الكتاب في فيلبي ٢ : ١٢ " تمموا خلاصكم بخوف ورعدة " لا يمكن أن تكون لنا أية ثقة في أنفسنا على الإطلاق .

إن إيماننا يستند على إرادة الله الصالحة للخلاص والحياة الأبدية . إن طبيعة محبة الله تعني أن خلاصنا مضمون ومحفوظ حفظاً مطلقاً . لو أن هناك رجلاً غنياً غير متأكد من أن الله يحبه ، فإنه يبقى تعيساً وعلى العكس ، فإن إنساناً فقيراً متأكداً من محبة الله له ، يبقى على يقين وتأكيد بأن الله لن يتركه أو يتخلى عنه .

قلنا في تعريفنا للإيمان : أن الإيمان هو المعرفة المؤسسة على الوعد الكريم لله . وذلك لأن من الثابت أن الإيمان ينمو عن طريق الوعود غير المشروطة

أكثر من نموه عن طريق الأوامر والتهديدات . إن وعود الله موجودة في الكتاب المقدس ، لكن الإنسان لا يكون قادراً على قبولها إلى أن يستنير بعمل الروح القدس ، بل إن الإنسان في حاجة بعد ذلك للروح القدس ليقوي قلبه وإرادته. إن قبول كلمة الله بالذهن فقط ليس كافياً لأنه يجب أن يقبلها الإنسان بالإيمان ، وعلى ذلك فإنه يجب قبول كلمة الله بكل كيان الإنسان : بالقلب والعواطف والإرادة ، حتى يمكن للإنسان أن يحيا منتصراً فلا يبطل مفعول الكلمة عندما يهاجمها العدو الشرير .

هذا الإيمان الحي يجب بالضرورة أن يكون مصحوباً برجاء الخلاص الأبدي . فلو كان لنا إيمان ، فإننا نثق بأن الله هو الإله الحقيقي وأنه سيكون أميناً لوعده ، وسيعاملنا كأولاد له . فإذا لم يكن لدينا هذا الرجاء الأكيد ، رجاء الخلاص ، فمعنى ذلك أنه ليس لدينا إيمان .

ومع ذلك فإن الإيمان كاف في حد ذاته ، بمعنى أنه لا يوجد أساس مزدوج من الإيمان والأعمال الصالحة ، فنحن نستند على محبة الله ورحمته وحدها .

٣ ــ التوبة الحقيقية

يوجد عنصران أساسيان في تعاليم الإنجيل ، وهما التوبة ومغفرة الخطايا . وكلاهما أعطيا لنا بواسطة المسيح ، ويحصل عليهما من خلال الإيمان. وسنتأمل أولاً في التوبة .

إن التوبة تتبع الإيمان ، وهي أيضاً ناتجة عن الإيمان . لا يمكن للإنسان أن يتوب ما لم يقبل نعمة الإنجيل ، ولا يمكنه أن يقبل نعمة الإنجيل إلا بالإيمان . فمادام قد قبل الإنجيل ، فإنه بالضرورة سيتخلى عن طرقه الشريرة ، بمعنى أنه سوف يتوب . إن التوبة والإيمان مرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقاً ، لكنهما مع ذلك ليسا شيئاً واحداً . فالرسول بولس يكتب بطريقة تفصل بين الكلمتين فيقول : " شاهداً .. بالتوبة إلى الله ، والإيمان الذي بربنا يسوع المسيح " (أعمال ٢٠ : ٢١).

إن المعنى العبري لكلمة " توبة " يعني تغيير الاتجاه والاهتداء ، بينما المعنى اليوناني لها يعني تغيير الفكر والهدف . لذلك فإن تعريفنا للتوبة يشتمل على كلا المعنيين ، فنقول : إن التوبة هي الاهتداء الحقيقي لحياتنا إلى الله ، كنتيجة للخوف الصادق من الله . التوبة تشمل أولاً إماتة الجسد ، وثانياً تجديد روح الذهن (أفسس ٤ : ٢٢ ــ ٢٣) . وهناك ثلاث نقاط في هذا التعريف جديرة بالدراسة هي :

(أ) أن الاهتداء إلى الله ينبغي أن يعني ما هو أكثر من التغيير في الأفعال الخارجية ، فالقلب نفسه يجب أن يتغير ، وهذا هو السبب في أن حزقيال عندما كان يحث الناس على التوبة تحدث عنها على أنها مسألة تتعلق بالقلب ، فقال : " اطرحوا عنكم معاصيكم التي عصيتم بها واعملوا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة " (حزقيال ١٨ : ٣١) . فإن لم يستبعد الشر من القلب لا تكون التوبة حقيقية.

(ب) أن التوبة هي نتاج الخوف الصادق من الله . والخاطئ لن يفكر في التوبة ولا حتى في حاجته إليها حتى يعرف أولاً أنه معرض للدينونة ، وعندما يعرف ان الله سيدينه فإن ضميره يجعله منزعجاً ويدفعه إلى تغيير اتجاهه في الحياة، ومن ثم يتوب . فالتوبة الحقيقية تبدأ بخوف من الخطية وكراهيتها " لأنكم حزنتم للتوبة .. لأن الحزن الذي بحسب مشيئة الله ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة " (٢كو ٧ : ٩،١٠) .

(ج) قلنا إن التوبة تتضمن أولاً ، إماتة الجسد . هذا يرى بوضوح في آيات كتابية مثل : " حد عن الشر واصنع الخير وأطلب السلامة واسع وراءها " (مزمور ٣٤: ١٤) ، " اغتسلوا ، تنقوا ، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني ، كفوا عن فعل الشر" (اشعياء ١ : ١٦،١٧) . ومن الضروري أن نفعل هذا " لأن اهتمام الجسد هو موت ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام " (رومية ٨ : ٦) .

أما الجزء الثاني من التوبة وهو تجديد روح الذهن ، فيظهر في الثمر الذي ينبت في حياة الشخص المتجدد (انظر ثمر الروح في غلاطية ٥ : ٢٢،٢٣ ؛ فيلبي ٤ : ٨) . هذه الأشياء كلها نحصل عليها أو تأتي إلينا وتتم فينا نتيجة الإتحاد بالمسيح ؛ لأنه إذا اشتركنا حقاً في موته فإننا نصلب طبيعتنا القديمة ، وبالتالي نشترك في قيامته ، وهكذا نحيا ونتنعش في حياة جديدة . ومثل هذه التوبة لا تكون مجرد لحظة أو يوم أو سنة ، بل تدوم مدى الحياة . فالولادة الجديدة تعني أن المؤمن لم يعد تحت سلطان الخطية ، رغم أنه يظل يقاتل ويصارع طبيعته الخاطئة . فالمؤمن لا يفقد طبيعته القديمة ، وهذا ما يجعل لديه رغبة في أمور شريرة . ولا يمكن أن يتحرر من هذه الرغبات الشريرة تحرراً كاملاً إلى أن يموت . إن الله عندما يمحو الخطية فإنه يزيل جرم وعقوبة الخطية ، ولا يزيل وجود الخطية . لكنه يفعل شيئاً مباركاً يسبب لنا انتصاراً عظيماً ، ذلك أن يزودنا بقوة الروح القدس للانتصار على الخطية . فيجب أن نذكر دائماً ضعفنا الخاص وحاجتنا إلى الاتكال على الروح القدس . في (رومية٧) يتحدث بولس عن اختباره بعدما أصبح مسيحياً ، ويرينا بوضوح أن الخطية تبقى فينا بعد أن نتجدد (٧ : ٢٣) ، وهو يعرف أنه لا

يسكن في جسده شيء صالح (٧ : ١٨) وأن في داخله معاناة وشقاء من الصراع المستمر بسبب الخطية التي فيه (رومية٧ : ٢٤) .

إن بعض الناس يعلمون بأن أولاد الله يولدون ولادة جديدة بالخلاص ، أي يرجعون إلى حالة من البراءة والطهارة ، ولذا فمهما أخطأوا فإنهم في نظر الله أبرياء وأطهار وأنقياء ، لأن الذي يسكن فيهم هو الروح القدس ، ويستمرون في هذا الادعاء فيقولون إنه لا حاجة لأولاد الله بعد الآن أن يقمعوا شهواتهم . ومهما فعلوا فعملهم لا يعد خطية ، لأن هذا الفعل – مهما كان – يتم بواسطة الروح القدس **!!** فياله من تعليم منحرف **!** فأي روح هذا ؟ ومن أي نوع هو ؟ لكن ينبغي علينا أن نكون واثقين بأن الروح القدس لا يشجع القتل أو الفجور أو الكبرياء أو الطمع أو الغش . فالروح القدس هو مصدر المحبة والفضيلة والتواضع والسلام والصدق . الروح القدس يعطي لنا لكي يقودنا إلى بر الله .

في (كورنثوس الثانية ٧ : ١١) يتكلم بولس عن علامات تظهر أن الإنسان قد تجدد (في إشارته إلى التوبة لخلاص بلا ندامة) ، وهذه العلامات هي :

(أ) الاجتهاد : الذي به يسهر على حماية نفسه ضد مغريات الخطية .
(ب) الاحتجاج : الذي به يوضح ويشرح موقفه باذلاً الجهد لتقديم برهان عملي على إخلاصه واحترامه لله .
(ج) الغيظ : وبه يغضب على نفسه عندما يرى إثمه الشخصي وعدم عرفانه بصنيع الله .
(د) الخوف : الذي يشعر به عند تفكيره في القصاص الذي يستحقه من هذا الإله البار .
(هـ) الشوق : ولعل المقصود به الرغبة الشديدة في إطاعة الله .
(و) الغيرة : وبها يحاول أيضاً أن يعرف ميله الشخصي للخطية مما يجعله أكثر حماساً إطاعة الله .
(ز) الانتقام : الذي به يعامل نفسه معاملة قاسية ، ويتألم من الخجل الداخلي الذي يشعر به عندما يفكر في دينونة الله العادلة على خطيته والعقاب الذي كان واقعاً عليه . وبالإجمال يمكن القول بأن التوبة في الحياة ، هي الطاعة لله والمحبة للناس في حياة مقدسة ونقية .

تتكون بشارة الإنجيل من أمرين هما : التوبة ومغفرة الخطايا . كانت مناداة يوحنا المعمدان هكذا : " توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات " (متى ٣ : ٢) . وكان تعليم المسيح كذلك : " توبوا وآمنوا بالإنجيل " (مرقس ١ : ١٥) .

يعلم الكتاب المقدس بأن التوبة هي عطية من الله ، وليست شيئاً يمكن أن نحدثه في أنفسنا . إذ يرد الحديث في أعمال ١١ : ٨ عن التوبة على أنها شيء أعطاه الله : " إذا أعطى الله الأمم أيضاً التوبة للحياة " ونرى نفس المعنى في تيموثاوس الثانية ٢ : ٢٥ " عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق " . الله يحذر ويحض جميع الناس على التوبة ، لكن هذا التحذير أو التشجيع لا يكون فعالاً ، إلا حينما يحضر الروح القدس الإنسان إلى حياة جديدة ، بالولادة الجديدة .

وإذا شئنا الدقة نقول : ليست التوبة هي سبب الخلاص ، لكن الخلاص والتوبة بينهما ارتباط وصلة وثيقة كما لو كانا غير منفصلين . والكتاب المقدس يخبرنا عن بعض الذين استنيروا إلى درجة كبيرة ورأوا الكثير من نور حق الله ، بحيث لا يمكنهم التذرع بالجهل ، ويرينا إنهم ، عندما يقسون قلوبهم بمحض اختيارهم ويرفضون بازدراء نعمة الله ، فإنهم في الواقع يحتقرون دم المسيح ويصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويشهرونه (عبرانيين ٦ : ٦) ، إن مثل هؤلاء المرتدين لا يمكن أن يتوبوا ، وبالتالي لا يمكن أن يخلصوا . وخطيتهم هذه تسمى الخطية التي لا تغفر ، أو خطية التجديف على روح الله القدوس .

٤ ــ فحص التعليم الكاثوليكي الخاص بعقيدة التوبة

يقول الكاثوليك : إن التوبة هي البكاء على خطايا الماضي ، وعدم العودة إلى فعلها ، وهي عقاب النفس بالحزن على الخطية . إنهم يظنون أن التوبة تدريب شاق يهدف إلى قمع الجسد ، وأنها نوع من العقاب . ولا يقولون شيئاً عن التجديد الداخلي للشخص ، وإعادة تشكيل حقيقي للحياة .

إن مسألة غفران الخطايا على جانب كبير من الأهمية . ينبغي أن نتأمل فيما يعلمه الكاثوليك ، ونفهم وجه الخطأ فيه . يقولون إن التوبة تتكون من :

(أ) حزن على الخطية يحس به القلب .

(ب) اعتراف بالخطية عن طريق الفم .

(ج) إرضاء أو تعويض عدل الله بالأعمال الصالحة . ويرون أننا لكي نحصل على مغفرة الخطايا يجب أن نتمم هذه الشروط الثلاثة :

(أ) الحزن على الخطية :

يقول التعليم الكاثوليكي إن الحزن ضروري ، ويجب أن يكون حزناً كافياً وكاملاً . لكن ، كيف يمكن للإنسان أن يعرف أن حزنه صار كافياً لسداد الدين الذي عليه لله ؟ نحن نتفق على أن الإنسان يجب أن يكون حزيناً على خطاياه، لكننا لا

نقول إن الإنسان يمكنه أن ينال الغفران لمجرد أنه حزن . الحزن على الخطية ، ليس سبب الغفران ، ورجاء الخاطي ليس في دموعه بل في رحمة الله .

(ب) الاعتراف بالفم :

يعلم الكاثوليك أن الخاطي يجب أن يعترف بخطاياه للكاهن ، الذي يكون عندئذ قادراً على إزالتها ، ويستخدمون بعض الفقرات من الكتاب المقدس استخداماً خاطئاً لتدعيم نظريتهم . فيقولون أن المسيح أرسل البرص إلى الكاهن ، والبرص رمز للخطية التي يجب أن يؤتى بها إلى الكاهن . لكنهم ينسون أن المسيح أرسلهم إطاعة للشريعة التي تقرر أنه إذا شفي أبرص عليه أن يعرض نفسه على الكاهن للحصول على شهادة بالشفاء . وهناك استخدام خاطيء لما ورد في رسالة (يعقوب ٥ : ١٦) " اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض " ، لكن هذا لا يعني تخصيص إنسان بعينه لكي يعترفوا إليه . إن هذه الآية الكتابية تتكلم بوضوح عن الاعتراف المتبادل والصلاة المتبادلة . ولا وجود فيها للعلاقة بين التائب والكاهن . والواقع أنه لا أساس للحجة التي تقول إن الاعتراف أمر تنص عليه شريعة الله ، فالاعتراف للكاهن لا وجود له في الكتاب المقدس ، بل إنه لم ينص عليه في قانون الكنيسة الكاثوليكية إلا منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي.

يعلم الكتاب المقدس أنه ليس أحد يزيل الخطايا إلا السيد الرب وحده . فهو القادر أن ينسى الخطايا وأن يمحوها . وحيث أننا أخطأنا إليه فعلينا أن نذهب إليه لنحصل على السلام . الرب يدعو الخطاة إلى عرش رحمته ، فعلينا أن نتجه إليه طلباً للرحمة . يوجه داود اعترافه إلى الرب قائلاً : " أعترف لك بخطيتي ولا أكتم اثمي ، قلت أعترف للرب بذنبي ، وأنت رفعت آثام خطيتي " (مزمور ٣٢ : ٥) . لأنه " إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم " (١يو١ : ٩) .

(ج) إرضاء (أو تعويض) عدل الله بالأعمال :

يقولون في هذا التعليم إن الإنسان التائب يمكنه أن يحصل على رحمة الله بواسطة الدموع والصوم ، والعطايا المالية وتقديم الصدقات للآخرين . ويظنون أنه بذلك يكون التائب قد أوفى الدين الذي عليه لعدالة الله ، وقدم تعويضاً عن خطاياه ، فكسب الغفران لنفسه . وفي رأي المعلمين بذلك ، أن الله رغم أنه يغفر الذنب إلا أنه لابد أن يعاقب الإنسان على سبيل التأديب ، والإنسان يمكنه تفادي هذا التأديب باسترضاء عدل الله وتعويضه بالأعمال . لكن : لو صح هذا لكان خلاصنا غير مستند على رحمة الله وحدها بل على الأعمال الصالحة أيضاً . والحق الكتابي عكس

ذلك تماماً ، فالكتاب يعلم بأن الغفران مجاني : " لا بأعمال في بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس " (تيطس ٣ : ٥) . إن كلمة " يغفر " تعني يلغي أو يمحو ، وتشير إلى أن هذا الغفران هبة خالصة . فإذا قلنا إن دائناً ألغى دينا على مدين له ، فمعنى هذا أنه قد شطبه ومحاه ، ولم يعد يتبقى شيء يدفع أو يسدد . وهذا بعينه ما يقوله الرب : " أنا هو الماحي ذنوبك من أجل نفسي ، وخطاياك لا أعود أذكرها " (اشعياء ٤٣ : ٢٥) .

ويرى الكاثوليك أيضاً : أن الخطايا تزول وتمحى بالمعمودية أما التي تحدث بعد العماد فيجب أن يكفر عنها بأعمال حسنة على سبيل التعويض استرضاءً لله . لكن الرسول يوحنا يقول بطريقة محددة قاطعة : " يا أولادي أكتب إليكم لكي لا تخطئوا وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار " (١يو ٢ : ١) . فالمسيح هو شفيعنا الدائم المستمر الذي تعيدنا وساطته وشفاعته الدائمة إلى رضا وإحسان الآب . قال المعمدان : " هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم " (يوحنا ١ : ٢٩) فيسوع وحده هو حمل الله بمعنى أنه الذبيحة الوحيدة أو القربان الوحيد عن الخطية .

كذلك لديهم تعليم آخر عن الخطايا ، ينبغي أن نفنده وندحضه . إنهم يتوهمون أن بعض الخطايا غير مميتة (أي تجلب الموت والهلاك) ، والذين يعلمون بهذا يقولون إنه يمكن التعويض أو العمل على رفع الخطايا غير المميتة بترديد الصلاة الربانية والرش بالماء المقدس وغير ذلك من الطقوس . لكن هذا مناقض لتعليم الكتاب المقدس الذي يدين الخطية دون تمييز بين أنواعها فيقول : " أجرة الخطية هي موت " (رومية ٦ : ٢٣) ، والمؤمن حين يخطيء فهذا لا يؤدي إلى موته الروحي ، وإن كان يستحقه ، لأن الله رحوم أمين وعادل ولا يهلك الذين هم في المسيح يسوع .

وتوجد حجة تستخدم لتدعيم التعليم المتعلق بالاسترضاء أو التعويض من أجل الخطايا ، هذه الحجة مؤسسة على ما حدث مع داود عندما غفر الله خطيته ضد أوريا وبتشبع ، لكنه عاقبه بموت ابنه . لكن علينا أن نعرف أن الله يعاقب بنوعين من العقاب هما : التأديب ، والانتقام العادل . وكان موت ابن داود من قبيل التقويم أو الإصلاح التأديبي على يد الرب ، وليس من قبيل صب جام اللعنة الإلهية عليه .

٥ ــ بعض التعاليم الكاثوليكية الأخرى

إن التعليم الخاص بالمسامحة الكنيسة أو الحل الكنسي ، هو أحد التعاليم التي نرفضها تماماً . يقول هذا التعليم : إنه يوجد استحقاقات للمسيح والرسل

والشهداء ، مخزونة بمثابة كنز للكنيسة ، ويمكن للبابا والأساقفة أن يوزعوا ويمنحوا من هذه الاستحقاقات لأناس آخرين . ولو أن هذه عقيدة صحيحة لأصبحت هناك إمكانية لمغفرة الخطايا باستحقاق الرسل والشهداء ، بينما الكتاب يقول : " دم يسوع المسيح ابنه يطهر من كل خطية " (١يوحنا ١ : ٧) . ويقول الكتاب أيضاً : " أنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدسين " (عبرانيين ١٠ : ١٤) . إن مغفرة الخطايا لا يمكن مطلقاً أن تستند على دم الشهداء .

أما المطهر : فهو التعليم الذي يقول إنه بعد موت الشخص يجب أن يعمل مزيداً من التعويض عن خطاياه قبل أن يكون مقبولاً لدى الله . وقد سبق فأوضحنا أن دم المسيح هو الوسيلة الوحيدة لمغفرة الخطايا ، وأنه ليس هناك حاجة إلى مزيد من الأعمال لإرضاء عدل الله حتى ينال الخاطيء خلاص المسيح. وعلى ذلك فلا وجود ولا مجال للمطهر وبالتالي لا ضرورة ولا حاجة للصلاة على الموتى ، لأن موقفهم قد تحدد من قبل الله بالقبول أو الرفض . وليس هناك تعليم في الكتاب المقدس بوجوب الصلاة على الموتى أو من أجلهم .

٦ – الحياة المسيحية

هذا موضوع كبير . وأرى أن أكتفي في هذا البحث بالإشارة إلى الطريقة التي يجب على الإنسان المؤمن أن يحيا بها . من بين أهداف الكتاب المقدس أن يعلمنا أن نحب البر ، ويعرفنا القواعد التي ترشدنا في حياتنا لكي نتجنب الخطأ ونحفظ من الزلل .

يعلمنا الكتاب قائلاً : " تكونون قديسين لأني قدوس الرب إلهكم " (لاويين ١٩ : ٢ ؛ ١بط ١ : ١٦) . جدير بالقداسة أن تكون الرباط الذي يربطنا في شركة مع الله . ولا يعني ذلك أننا نستحق الشركة مع الله بواسطة قداستنا ، لكن ينبغي أن نكون قديسين لأن الله قدوس ، وحاشا له أن يوجد في شركة مع النجاسة والدنس .

يقدم الكتاب المقدس لنا المسيح على أنه مثلنا الأعلى ليشجعنا على المضي في طريق القداسة . الواقع أننا نعد مذنبين في أعمق درجات الجحود والنكران إذا رغبنا في أن ندعو الله " أبانا " بغير أن نكون راغبين في أن نسلك بطريقة تليق بأبناء لله .

وهناك أسباب قوية جداً تجعل من واجبنا أن نحيا حياة مقدسة للرب . إن المسيح بذل دمه عنا لكي نغتسل ونتطهر ، فكم نكون مخطئين ومذنبين عندما نلوث أنفسنا بمزيد من الوسخ والدنس . إن الروح القدس جعلنا هيكلاً لله ، فيجب أن نحفظ

هيكله طاهراً نقياً . إن نفوسنا وأجسادنا مهيأة للخلود ، لذلك علينا أن نحرص على حفظها بلا لوم إلى ذلك اليوم .

إن من يدعو نفسه مسيحياً مؤمناً ، ولا يبذل أي جهد للسلوك في حياة مكرسة مقدسة ، ليس على حق في هذا الادعاء . يقول الرسول بولس عن مثل هؤلاء أنه يجب عليهم أن " يخلعوا .. الإنسان العتيق الفاسد حسب شهوات الغرور ويتجددوا بروح ذهنهم ويلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق " (افسس ٤ : ٢٢ – ٢٤) . نحن لا نقول إن المؤمن " كامل " أو يشترط أن يتوافر فيه الكمال المطلق ، لأنه لو كان الأمر كذلك لما أستطاع أحد أن ينضم إلى الكنيسة ، إنه من غير الممكن لأي إنسان أن يصل إلى هذا المقياس . لكن يجب أن يكون هذا المقياس من القداسة هدفنا الذي نسعى إليه في الحياة .

٧ – المسيحي وإنكار الذات

إن الله يريد منا أن " نقدم أجسادنا كذبيحة حية مقدسة مرضية عنده " ، وأن هذه هي " عبادتنا العقلية " (رومية ١٢ : ١) فنحن لم نعد ملك أنفسنا ، ولم يعد يليق بنا أن نسمح لإرادتنا وعقولنا أن توجه أفعالنا . ينبغي أن نترك جانباً تفكيرنا الخاص ونقبل قيادة الله لنا ، لأننا إذا حاولنا أن نسلك بحسب نور عقولنا فقط ، فإننا سنتعرض للدمار . أما إذا خضعت عقولنا للروح القدس ، فلن نعود نحيا لأنفسنا بل المسيح يحيا فينا (غلاطية ٢ : ٢٠) . إن خضوع عقولنا على هذا النحو يمكننا من أن نحقق ما يطلبه من تلاميذه من إنكار للذات . إن تسليم زمام قيادتنا لروح الله هو العامل الأساسي المرشد والموجه للحياة ، وهو الذي يمكننا من قهر وطرد كل طمع وكل انغماس في الشهوات أو استسلام للملذات .

ويلخص الرسول بولس هذا التعليم في رسالته إلى تيطس قائلاً : " لأنه قد أظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس ، معلمة إيانا أن ننكر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقل والبر والتقوى في العالم الحاضر ، منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح " (تيطس ٢ : ١١ – ١٣) وفي الآية التالية يرينا الهدف من الخلاص والفداء فيقول " ليطهر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً في أعمال حسنة " (تيطس ٢ : ١٤) . في هذه الآيات يلجأ الرسول إلى تشجيع محبتنا لله إذ يخبرنا عن نعمة الله . ثم يزيل من أمامنا عقبتين من العقبات التي تعوقنا عن محبة الله وخدمته ، وهما الفجور والشهوات العالمية . ثم يصف الحياة المسيحية بثلاث صفات هي : التعقل والبر والتقوى . ويشتمل التعقل على الطهارة والتعفف وضبط النفس والأمانة واستخدام كل ما منحه الله لنا بحرص

وعناية . ويقصد بالبر ، الصفاء والعدالة والاستقامة في كل معاملاتنا مع الآخرين . أما التقوى فهي الصفة التي تميزنا عن أهل العالم وتشدنا إلى الله في رباط القداسة .

إن الذين يتطلعون إلى بركة الرب ، أكثر من تطلعهم إلى ما يقدمه العالم من نجاح أو رخاء ، هؤلاء لا يتكلون على مهارتهم الذاتية ، ولن يكونوا في نهم وجشع نحو الثروة والجاه ، بل يطلبون من الله أن يعطيهم في حياتهم ما تسمح به إرادته . هذا هو إنكار الذات الحقيقي .

٨ – حمل الصليب

في (متى ١٦ : ٢٤) يطلب منا الرب أن نحمل الصليب . ويقصد بهذا أن هناك حملاً ، يتعين علينا أن نحمله ، يتمثل في شدة أو ضيق أو مهنة شاقة أو محنة أو بلوى . إن ابن الله كان عليه أن يحمل مثل هذه المصاعب والضيقات . ويجب على المؤمنين أيضاً أن يتعلموا ويتدربوا وينموا بواسطة مثل هذه الضيقات؛ " عالمين أن الضيق ينشيء صبراً والصبر تزكية ، والتزكية رجاء " (رومية ٥ : ٣،٤) . والرب قد وعد أن يكون معنا في الضيق ، وأولئك الذين يعانون من ضيقة خاصة يبرهنون على حضور الله ورفقته لهم . وهكذا فإن الصليب الذي علينا أن نحمله ، يعلمنا ألا نتكل على أنفسنا بل على الله .

إن الاحتياج إلى أن نتعلم الثقة بالله هو الدرس الأساسي الذي ينشا عن الألم ، لكن هناك دروس أخرى . يرسل الرب أحيانا مشقات أو صعوبات ليمتحن علانية الألطاف والإحسانات والنعم التي أعطاها . ولهذا السبب طلب من إبراهيم أن يقدم ابنه إسحق ، ابن الموعد ، ذبيحة . إن هذه الامتحانات الصعبة للإيمان ، تشبه الامتحان كما بنار " لكي تكون تزكية إيمانكم وهي أثمن من الذهب الفاني مع أنه يمتحن بالنار توجد للمدح والكرامة والمجد " (١بطرس ١ : ٧) . فإذا كانت لنا وفرة من الأشياء الطيبة وفيض من الخيرات في هذه الحياة ، فإن هذا قد يدفعنا إلى التعالي والكبرياء ، فنشعر أننا لسنا بحاجة إلى الله . لذلك فإن الله في حنانه يؤدبنا من حين لآخر ليصحح مسارنا حتى تأخذ حياتنا في التقدم والنمو . وفي الرسالة إلى العبرانيين يقول لنا الرب : " يا ابني لا تحتقر تأديب الرب ولا تخر إذا وبخك . لأن الذي يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله " (عبرانيين ١٢ : ٥،٦) . إلى جانب هذا ، فإن الضيق الذي علينا أن نحمله قد يكون اضطهاداً من أجل البر . وياله من شرف عظيم أن نتألم من أجل البر ومن أجل المسيح ، " طوبى للمطرودين من اجل البر " (متى ٥ : ١٠) .

٩ – التطلع إلى الحياة الآتية

إن ميولنا الطبيعة تتجه نحو محبة العالم الذي نعرفه . لكن الله لا يريد منا أن نتشبث بهذا العالم ، وهو يرينا دائماً كيف أن هذا العالم باطل ، وذلك عن طريق الضيقات والآلام . وهذا التأديب يكون نافعاً لنا عندما نعرف أنه لا مجال لسعادة حقيقية في هذه الحياة ، وأن خيرات هذا العالم زائلة . ينبغي أن ننتظر حتى ندخل إلى السماء فنجد الأشياء الباقية التي لا تفنى .

وعلى الرغم من أنه يجب علينا ألا نعطي الحياة الحاضرة قيمة كبيرة أو اهتماماً ، إلا إنه من الواجب علينا في نفس الوقت ألا نكرهها . إن الحياة بركة معطاة لنا من قبل الله .

من حق المؤمنين أن يتطلعوا بفرح إلى الحياة السماوية الآتية . إن الحرية الحقيقية سنشعر بها عندما نترك هذا العالم ، أما في أثناء وجودنا على الأرض فنحن " متغربون عن الرب " (٢كو ٥ : ٦) . لكن هناك ، يالها من سعادة بالغة وهناء غامر أن نتمتع بحضور الرب إلى الأبد . لاشك أنه أمر طبيعي أن يرتجف الإنسان من الموت . أما بالنسبة للمؤمن فهناك نور يعطيه قدرة يتغلب بها على هذا الخوف ؛ بهذا يتمكن المؤمن أن يوجه تفكيره إلى الحياة والأمجاد التي بعد الموت .

١٠ – الاستخدام الصحيح للحياة الحاضرة

ليست الأرض داراً لنا ، ولا هي مقرنا الأخير . من حقنا أن نستخدم الأشياء الطيبة هنا لتكون عوناً لنا في سياحتنا . إن بعض الناس الأفاضل عرفوا أن هذه الخيرات الأرضية يمكن أن تستخدم استخداماً سيئاً ، فحرموا أنفسهم من التمتع بها . لكن هذا أمر ينطوي على تقشف وحرمان أكثر صرامة مما يجب . وفي نفس الوقت ينبغي علينا أن نتجنب الإسراف والإفراط في التمتع بهذه الخيرات .

والكتاب يعطينا قواعد عامة لإرشادنا في هذه الأمور . إن خيرات الله وعطاياه يجب أن تستخدم استخداماً صحيحاً ولأهداف سليمة ، سامية . إن الله لا يمنعنا من أن نستخدم احساناته لفائدتنا ، وهو " يمنحنا كل شيء بغنى للتمتع " (١يتمو ٦ : ١٧) ولا يدعونا إلى أن نقتر على أنسفنا أو على الآخرين ، بينما هو يعطي بغنى . فإذا رأى الله أن من فائدتنا أن نحرم من بعض هذه الخيرات ، فهذا لا يدعونا إلى التذمر .

١١ – التبرير بالإيمان

عندما أعطانا الله ، في محبته ، ابنه يسوع المسيح ، فإن هذا الصنيع المبارك اشتمل بركتين رئيسيتين هما : التقديس والتبرير . وقد تأملنا من قبل كيف

أن الروح القدس يقدسنا ويقودنا إلى طهارة الحياة . والآن نتأمل بشيء من التوسع في حقيقة التبرير . إننا قد صولحنا مع الله بموت ابنه ، ومن أجل البر الذي ضمنه المسيح لنا بموته لم يعد الله قاضياً أو دياناً لنا ، بل أباً عطوفاً .

إن التبرير أمام الله ، يعني أن الله ينظر إلى الإنسان (الذي سترت خطيته بدم المسيح) على أنه بار ولذلك يقبله . وهذا عكس المعاملة التي يعامل بها الخاطيء مادام ينظر إليه كخاطيء . لن الخطية بغيضة جداً لدى الله حتى أنها تستوجب غضبه ودينونته العادلة . المذنب الواقف أمام محكمة بشرية لا يمكن أن يعتبر بريئاً إلا إذا ثبتت براءته . أما المذنب أمام محكمة الله فيعتبر باراً عندما تستر خطيته . والمؤمن إنسان سترت خطيته بدم المسيح .

قد يكون في الإمكان أن نقول إن الإنسان يتبرر بالأعمال ، لو أن الإنسان كان طاهراً ومقدساً إلى الدرجة التي يستحق معها أن يدعوه الله باراً . لكننا نعلم من الإختبار ومن الكتاب المقدس أن مثل هذا الإنسان لم يوجد مطلقاً ولن يوجد (راجع الكتاب الثاني – البند الأول) . لكن الإنسان يمكنه أن يتبرر بالإيمان ، إذا هو بالإيمان تمسك ببر المسيح المعطى بالفداء ، كغطاء له عندما يقف أمام الله . إن التبرير يشتمل على غفران الخطايا وعلى حسبان بر المسيح لنا.

وهذا التعليم ليس تعليماً بشرياً أو عقيدة بشرية . لكنه مستمد مباشرة من الكتاب المقدس : " متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح ، الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهاره بره من اجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله . " لإظهار بره في الزمان الحاضر ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع " (رومية ٣ : ٢٤ – ٢٦) " لأنه جعل الذي لم يعرف خطية ، خطية من أجلنا ، لنصير نحن بر الله فيه " (٢كورنثوس ٥ : ٢١) . إن الكتاب المقدس لا يعلم بأن التبرير يكون جزئياً بالإيمان وجزئياً بالأعمال ، فالإيمان والأعمال أمران متضادان يتعارض أحدهما مع الآخر . فإذا كان لنا إيمان في رحمة الله ، سندرك أن أعمالنا بلا جدوى في حصولنا على الخلاص . يقول كاتب من العصور السابقة: " إن الله لأنه يخطيء ، أما الإنسان فيصبح باراً عندما يقبل غفران الله وعفوه ".

١٢ – عرش القضاء الإلهي

إننا ندرك بوضوح حاجتنا إلى تبرير مجاني ، عندما نتأمل بإمعان في أن دينونتنا ليست أمام محكمة بشرية ولا بمقتضى قانون أرضي ، بل أمام عرش القضاء الإلهي . إن مقاييس البشر لا يمكنها بأي حال أن تطاول ارتفاع وسمو مقاييس الكمال الإلهي . إن الله قاض قدوس بدرجة تفوق إدراكنا حتى أن "

السموات غير طاهرة بعينيه " ، و " وإلى ملائكته ينسب حماقة " (أيوب ١٥ : ١٥، ٤ : ١٨) ، وهو " لن يبرئ إبراء " (خروج ٣٤ : ٧) ، وإن كان السيد الرب يراقب الآثام ، فمن يقف ؟ (مزمور ١٣٠ : ٣) . إن بر الله وصلاحه يعلو كثيراً عن مستوى أفهامنا . وإن كنا لا نخلص إلا بإطاعة كل أوامر الناموس ، وجب علينا أن نرتعد الآن من الخوف ، لأنه " ملعون كل من لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به " (غلاطية ٣ : ١٠) .

من يظن انه قادر على تحقيق خلاصه ؟ يمكن أن تظن أنك طيب مثل الآخر، ولست أقل منهم إن لم تزد عنهم . لكن ليس هذا هو المطلوب فمقاييس الله هي القداسة الخالصة . قال المسيح للذين كانوا يظنون في أنفسهم أنهم أبرار " انتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس ، ولكن الله يعرف قلوبكم . إن المستعلي عند الناس هو رجس قدام الله " (لوقا ١٦ : ١٥) . وكان صاحب المزمور يملك فهماً حقيقياً عندما قال : " لا تدخل في المحاكمة مع عبدك فإنه لن يتبرر قدامك حي " (مزمور ١٤٣ : ٢) . عندما نتأمل في آثامنا ومعاصينا الخاصة سنصاب باشمئزاز من أنفسنا ، حتى أننا لن نعود نظن في أن لنا أية فرصة في كسب الاستحقاق بأعمالنا الحسنة بل نلقي بأنفسنا على رحمة الله . " لأن الله يقاوم المستكبرين ، أما المتواضعين فيعطيهم نعمة " (١بط ٥ : ٥ ، يعقوب ٤ : ٦) .

١٣ – ينبغي إعطاء المجد كله لله

إذا أمكن للإنسان أن يدعى أنه يكسب خلاصه بنفسه ، فإنه بذلك يدعى لنفسه شيئاً من المجد الذي هو من حق الله وحده . يقول ارميا على لسان الرب : " لا يفتخرن الحكيم بحكمته ولا يفتخرن البار بجبروته ، ولا يفتخرن الغني بغناه ، بل بهذا يفتخرن المفتخر : بأنه يفهم ويعرفني أني أنا الرب " (ارميا ٩ : ٢٣ ، ٢٤) . فإذا افتخر الإنسان بنفسه فإنه يسرق أو يسلب شيئاً من المجد المستحق لله .

لكن الإنسان لا يمكنه أن يختبر السلام الحقيقي للعقل والقلب في محضر الله ، إلا إذا قبل بر الله كهبة مجانية ، لأن " من يقول إني زكيت قلبي تطهرت من خطيتي ؟ " (أمثال ٢٠ : ٩) . إن ضميره سيقول لنفسه إنه لا يستحق السلام مع الله . والمناص الوحيد هو أن يتحد بالمسيح بالإيمان ، وهكذا يتبرر مجاناً .

١٤ – التبرير الحقيقي

يمكن تقسيم البشر إلى أربعة أنواع هم :

(أ) أناس يعبدون آلهة مزيفة ولا يعرفون الإله الحي الحقيقي .
(ب) أناس يدعون أنهم مؤمنون لكنهم يحيون حياة غير طاهرة .

(ج) أناس مراؤون ، يتظاهرون بالمسيحية لتغطية شرورهم .
(د) أولئك الذين ولدوا ثانية بروح الله القدوس ، ويتطلعون إلى القداسة .

في النوع الأول ، يمكننا أن نجد شريحتين : أناس أشرار تماماً ، وآخرون يحاولون أن يحيوا حياة صالحة لكنهم لا يعرفون الله الواحد الحقيقي . لاشك أنه أمر جيد أن يحيا الإنسان حياة صالحة . إن الله يعطي لمثل هؤلاء بركات في بعض الأحيان ، هنا على الأرض . وذلك ليس على سبيل المكافأة ، بل ليظهر موافقته على الحياة الطيبة ، لكن هؤلاء ما لم يعترفوا بالمسيح ، بأنه الله الظاهر في الجسد ، وأنه الابن الذي بذل نفسه لخلاص العالم فإنهم لن ينالوا تبريراً: " من له الابن فله الحياة ، ومن ليس له الابن فليست له الحياة " (١يو٥ : ١٢) لأنه " بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه " (عبرانيين ١١ : ٦) .

والنوعان الثاني والثالث يمكن التأمل فيهما معاً . فالإنسان الذي يحيا حياة شريرة لم يولد بعد ولادة ثانية من الروح القدس . وأي شخص لم يولد ولادة جديدة لا يمكن أن يكون له إيمان ، وبالتالي لا يمكنه الحصول على المصالحة ، ولا ينال التبرير . وذلك بصرف النظر عن أن الكثيرين من هؤلاء الناس يظنون أنهم قادرون على أن يفعلوا أموراً يقبلها الله ، ولا يعترفون بأنهم لا يملكون أي بر.

وفي المجموعة الرابعة نرى أولئك الذين لا يدعون في أنفسهم أنهم أبرار، لكن البر قد حسب لهم بالمصالحة مع الله والحصول على غفرانه لخطاياهم. إن روح الله القدوس يسكن فيهم وينقي حياتهم ويقدسهم ويقودهم إلى الطاعة . بل إن الطاعة تصبح رغبة أساسية لهم إلى جانب إعلاء مجد الله . لكن، حتى هؤلاء الناس يوجد فيهم عدم الكمال ؛ " لأنه لا إنسان صديق في الأرض يعمل صلاحاً ولا يخطيء " (جامعة ٧ : ٢٠) . وأتباع الرب يعرفون أنه لا يجوز لهم أن يتكلوا على الأعمال الصالحة التي يحاولون القيام بها ، كما لا يجوز لهم أن يثقوا في أي صلاح ذاتي . لكنهم ينظرون إلى أعمالهم الصالحة على أنها مجرد هبات مستمدة من صلاح الله ، وعلامات على صدق دعوة الله العليا لهم .

١٥ ـ مجد الله وثقتنا في الخلاص

كذلك فإن الأعمال الحسنة التي من صنع الإنسان تعد نجسة ولا يمكن احتسابها بمثابة استحقاق أمام الله . والحق أننا عندما نعمل أعمالاً حسنة ، فإنها لا تكون بقوتنا الذاتية ، لكنها تتم من خلال نعمة الله . إن أي شيء فينا يستحق المدح ينسب إلى نعمة الله ، لذلك فالمجد من حقه وحده . ومع ذلك لا يجوز لنا أن نظن أن الله لا يسر بأعمالنا الحسنة ، ذلك أنها تمجده ، وهو يكافئنا عنها بسخاء .

إن التعليم الزائف الذي يقول بأن الناس يمكنهم أن يجدوا الخلاص عن طريق أعمالهم الصالحة ، تعليم قديم ، يرجع إلى أجيال كثيرة . ومع ذلك يحق لنا أن نرفضه تماماً ، لأن الكتاب يقول بوضوح قاطع : " كل من ليس من الإيمان فهو خطية " (رومية ١٤ : ٢٣) . وأنه لمن العار القول بأن المسيح عندما أكمل عمله على الصليب لم يفعل أكثر من إتاحة الفرصة لنا لنكسب خلاصنا بأنفسنا . بينما يسجل الكتاب أن الذين يؤمنون به ، هم وحدهم الذين ينالون تبريراً : " من له الابن فله الحياة " (١يو٥ : ١٢) ، " إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني ، فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة ، بل قد أنتقل من الموت إلى الحياة " (١يو ٥ : ٢٤) .

لو كان الخلاص بالأعمال ، لصرنا دائماً مضطربين وقلقين لئلا يكون ما فعلناه ليس كافياً . لكن المؤمنين – قبل وصولهم إلى السماء – يكون لهم نصيب في حياة المسيح ، ويختبرون الجلوس معه على جبال الشركة المقدسة المفرحة . لقد نقلوا الآن من سلطان الظلمة إلى ملكوت ابن محبته ، ويتمتعون الآن بالخلاص. " الآن نحن أولاد الله " (١يو ٣ : ٢) .

١٦ – جدل ومناقشات حول التبرير بالإيمان

يقول البعض بأن تعليمنا عن التبرير بالإيمان يلغي الأعمال الصالحة، ويشجع الناس على الاستمرار في الخطية .

فيما يتعلق بالشق الأول من هذا الادعاء ، نؤكد أن تعليمنا – على عكس ما يقولون – يشجع على الأعمال الصالحة . نحن لا نبشر بإيمان فارغ المحتوى ، خال من الأعمال الحسنة. فالأعمال الحسنة ترتبط بالإيمان . نحن نحصل على بر المسيح بالإيمان ، لكن لا يمكننا أن نصنع البر دون أن نحصل في نفس الوقت على قداسة المسيح . فالمسيح هو الذي " صار لنا حكمة من الله وبراً وقداسة وفداء" (١كو ١ : ٣٠) . نحن إذن لا نعد مبررين بدون أعمال صالحة ، لكننا لا نتبرر بالأعمال الصالحة . وهناك دوافع قوية تشجعنا على صنع الأفعال الحسنة ، إذ أننا نكون في الدرجة القصوى من الجحود وعدم العرفان إن لم نحب الرب الذي أحبنا أولاً ، وإذا لم نرغب في طاعته وخدمته .

وفيما يتعلق بالشق الثاني : هل حقاً ما يقولون بأن تعليمنا يشجع الناس على الاستمرار في الخطية ؟ إننا نعلم بأن غفران الخطايا كان أمراً مكلفاً جداً لدرجة أن الناس يعجزون عن شرائه . إن بر الله مجاني هذا حق ، لكنه لم يكن أبداً رخيصاً . إن الغفران قد كلف المسيح دمه الثمين وحياته . والذين تبرروا بدم المسيح يعرفون أنهم عندما يفعلون الخطية يكونون مذنبين ، كم يقوم باهراق ذلك الدم الثمين

مرة أخرى . وحقيقة مرعبة كهذه تؤدي إلى الخوف والرعدة من الخطية بدرجة أعظم مما لو ظن الناس أن الخطية يمكن أن يكفر عنها بمزيد من الأعمال الصالحة .

١٧ ــ حول مكانة الناموس (الشريعة)

يقولون : أين موقع الشريعة ؟ ويتهموننا بأننا نتصرف وكأن ناموس العهد القديم قد أعطى عبثاً ، وفيه من المواعيد مثل : " ومن أجل أنكم تسمعون هذه الأحكام وتحفظون وتعملونها ، يحفظ لك الرب إلهك العهد والإحسان اللذين أقسم لآبائك " (تثنية ٧ : ١٢) . لكننا في حاجة إلى أن نتذكر أن اللعنة قد وقعت على جميع الذين لم يحفظوا الناموس بكامله . وبناءً عليه ، وبمقتضى هذا المقياس، قد أدين الجميع وصاروا مجرمين " لأن من حفظ كل الناموس وإنما عثر في واحدة فقد صار مجرماً في الكل " (يعقوب ٢ : ١٠) . والملاذ الوحيد هو التحرر من الناموس ، وهذا التحرر يأتي بالإيمان ببر الله ورحمته في المسيح .

ويدعى البعض أن الرسول يعقوب قد علم بأن إبراهيم تبرر بالأعمال . إن بولس قد قال إن إبراهيم تبرر بالإيمان ! لكن يعقوب عندما كتب رسالته كان في الكنيسة أناس يفتخرون بأن لهم إيماناً عظيماً ، ومع ذلك فقد أظهروا ، بإهمالهم الأعمال الحسنة ، بأنه ليس لهم إيمان حقيقي . فيعقوب إذن يشير إلى عدم جدوى ثقتهم . وهو يستخدم كلمة إيمان ، لا ليعني الإيمان الحقيقي ، بل ليعني وجهة نظرهم عن الإيمان . إن الرسول يعقوب بالتأكيد لا يقصد أنه " إذا كان للإنسان إيمان بدون أعمال " بل يقصد " إذا تظاهر أو ادعى إنسان بأن له إيماناً ومع ذلك يهمل الأعمال " . وهو يشير بعد ذلك إلى أن إيمان هؤلاء كان ناقصاً فيقول : " أنت تؤمن أن الله واحد ، حسناً تفعل ، والشياطين يؤمنون ويقشعرون " بمعنى أنه إذا لم يكن في إيمانك أكثر من هذا فلن تفرق عن الشياطين ، فلا عجب إن كان مثل هذا الإيمان الناقص لا يبرر . إن التعليم الحقيقي ليعقوب هو : أن الذين يتبررون حقاً بالإيمان ، يبرهنون على برهم بالطاعة والأعمال الصالحة ، وهذا ما يؤيده الرسول بولس .

١٨ ــ المكافآت

توجد فقرات كتابية تؤكد أن الله يعطي كل إنسان بحسب أعماله . لكن هذه الفقرات لا تتعارض مع حقيقة التبرير بالإيمان . إن الله يخلص الإنسان بمقتضى رحمته فقط ، لكن يأتي بعد ذلك التقديس الذي يتضمن بالطبع الأعمال الصالحة . لذلك يقول الرب للمؤمنين : " اعملوا .. للطعام الباقي للحياة الأبدية " (يوحنا ٦ :

٢٧) ، في نفس الوقت يقدم الله وعوداً بإعطائهم كل هذا . فالعمل هنا ليس بديلاً عن النعمة بل نتيجة أو ثمر لعمل النعمة في المؤمن . وعلى ذلك فإن استخدام كلمة " مكافأة " في الكتاب المقدس لا يعني أن الخلاص مكافأة عن الأعمال الصالحة . بل يعني أن في السماء مكافآت للمؤمنين ، ترجع ببساطة إلى الله الذي يسكب على شعبه بركات فائضة . إن الله لا يعطي مكافآت لأنه مدين بها للذين يحاولون أنه يعملوا أعمالاً صالحة ، بل إنه يعطي لنا مكافآت لأنه قد وعد بها . والمهم هنا هو ترتيب هذه المسائل التي أشرنا إليها .

١٩ – الحرية المسيحية

هنالك ثلاثة أمور تتشكل منها الحرية المسيحية :

(أ) أن المؤمنين يكونون متأكدين من أمر خلاصهم عندما يكفون عن أية محاولة للوصول إلى البر القائم على الأعمال وعلى طاعة الناموس . فلا يمكن لأي إنسان أن يكون باراً طبقاً لمقياس الناموس الأدبي . ولذلك فالإنسان إما أن يكون مداناً من الناموس أو يتحرر من سلطانه . لكن الكتاب يعلمنا أن نتحول عن الناموس ونلجأ إلى يسوع المسيح وحده كواسطة للبر . والمسألة ليست كيف يمكن أن نكون أبراراً ، بل كيف يمكن أن نحسب أبراراً . ومع ذلك يظل للناموس دور يلعبه في حياتنا ، لأنه يذكرنا بواجبنا ، ويقودنا في طريق التقديس .

(ب) توجد في حياتنا بعض الأمور لا يأمر بها الكتاب المقدس ولا ينهي عنها . وفي هذه الحالة لا يحتاج المؤمنون أن يقعوا فريسة للشكوك وليسوا في حاجة إلى التقيد بشرائع من صنع البشر . إن ضمائر المؤمنين ارتاحت في المسيح ولها أن تطرح الشكوك الوهمية . ومن هنا ففي امكانهم أن تكون لهم الحرية فيما يتعلق بالمأكل والملبس والأيام المقدسة وما إلى ذلك من الأمور طبقاً لما تمليه عليهم ضمائرهم التي نالت الراحة في المسيح . قال بولس : " إني عالم ومتيقن في الرب يسوع أن ليس شيء نجساً بذاته ، إلا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس " (رومية ١٤ : ١٤) . هذه الكلمات تعطينا حرية استخدام جميع الأشياء إلى المدى الذي تسمح به ضمائرنا .

(ج) ينبغي أن نمتنع عن كل ما من شأنه أن يسبب الإساءة أو الأذى للآخرين ، لكن بضمير صاف نقي . يقول الرسول بولس : " إن قال لكم أحد هذا مذبوح لوثن، فلا تأكلوا من أجل ذلك الذي أعلمكم والضمير .. ليس ضميرك بل ضمير الآخر " (١كو ١٠ : ٢٨ ، ٢٩) . إن في امكاننا أن نستخدم كل عطايا الله بدون حيرة أو شك أو وخزات ضمير ، شريطة أن يكون استخدامها طبقاً لما أعدها الله له .

٢٠ ـ الصلاة

نحن نملك من خلال الصلاة طريقاً يؤدي بنا إلى الكنوز المخزونة والمحفوظة لنا عند الآب السماوي ، الذي طلب منا أن نصلي من أجل كل ما نرجوه . إن الصلاة أمر أساسي ونافع في آن واحد .

ويتذرع البعض بأن الله يعرف كل احتياجاتنا ، وبالتالي ليس علينا أن نصلي من أجلها . والرد هو : ان الله بكل تأكيد يرعانا ويهتم بنا ويعطينا في بعض الأوقات أشياء قبل أن نسأل . لكن عندما نسعى إليه باجتهاد ونطلبه بإلحاح، عندئذ فقط نتعلم أن ننتظره كالمعين الوحيد لنا في وقت الضيق .

وهناك قواعد أربع ضرورية لكي تكون صلواتنا صحيحة ، وهي :
(أ) أن تكون أفكارنا متواضعة وقلوبنا منكسرة عندما نصلي إلى الإله الواحد الحقيقي .

(ب) الإحساس الصادق بأننا نحتاج إلى الأشياء التي نتوسل من أجلها .

(ج) ألا يكون فينا غرور ما أو ثقة ذاتية أو اتكال على الذات ، لأن كل المجد والكرامة من اختصاص الله وحده .

(د) أنه رغم اتضاعنا وانكسارنا وتذللنا في الصلاة ، علينا أن نتشجع فإن الله يصغي ويستجيب . وقد أوصانا المسيح قائلاً : " كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم " . (مرقس ١١ : ٢٤) .

لا يوجد إنسان مستحق أن يمثل في محضر الله . لكن الله أعطانا ابنه الحبيب لكي يكون وسيطنا ، لنتمكن من الاقتراب إليه بكل اليقين . ولنا ثقة أن كل ما نطلبه في اسم الابن الحبيب يعطي لنا . لأن الله لا يرفض وساطة ابنه .

والبعض يصلون إلى القديسين الذين ماتوا . ولو أن القديسين الراحلين لا يزالون يصلون ، فإنه يمكنهم رفع صلواتهم الخاصة بهم فقط عن طريق المسيح الوسيط الوحيد . لذلك فإن العقل لا يقبل أن نطلب شفاعة القديسين ونتجاهل الشفيع والوسيط المعطي لنا .

شرح الصلاة الربانية :

الكلمات الأولى في الصلاة الربانية تذكرنا بأن المسيح هو طريقنا الوحيد للإتيان إلى الله . لأن الله لا يصبح " أبانا " إلا بموت المسيح من أجلنا لننال التبني ونصير أخوة له ، ومن هنا يكون أبو ربنا يسوع المسيح هو أبونا أيضاً . يقول

يوحنا " وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله " (يوحنا ١ : ١٢) . وعندما يقال عن الله إنه " في السموات " فلا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن الله تحده حدود معينه فسليمان يقول : " هوذا السماوات وسماء السموات لا تسعك " (١ملوك ٨ : ٢٧) .

الطلبة الأولى في هذه الصلاة هي : **" ليتقدس اسمك "** . ويا له من عار على الجنس البشري أن يكون محتاجاً إلى تقديس اسم خالقه . هذه الطلبة توجب على الناس أن يقدموا التقديس والمجد اللائقين بالله ، وأن يفكروا فيه ويتكلموا عنه بأقصى درجات الهيبة والوقار .

والطلبة الثانية " ليأت ملكوتك " . وهي تمثل رجاء بعيد المدى . إن الله " يملك " على الذين ينكرون ذواتهم ويتبعون البر . وبناء عليه فإننا في هذه الطلبة نلتمس من الله أن يصحح رغباتنا الخاطئة ، وأن يعيد تشكيل طبيعتنا حتى نطيعه. لذلك فإن الطريقة الصحيحة لهذه الطلبة هي أن يبدأ المرء بنفسه : " ليأت ملكوتك في " ، متضرعاً أن يحرره الله من كل ما يشوش على نظام ملكوت الله في داخله. ثم نستطيع بعد ذلك أن نصلي من أجل امتداد ملكوت الله ، وهزيمة أعداء الله . إن ملكوت الله سيأتي بالكامل عند مجيء المسيح ثانية ، ويصير الله الكل في الكل .

والطلبة الثالثة " لتكن مشيئتك " على الأرض كما في السماء " وهي تستند على الطلبة السابقة وتلقى مزيداً من الضوء على الكيفية التي سيملك بها الله على العالم . ومن الشق الأول لهذه الطلبة " لتكن مشيئتك " نتعلم أن نصلي وأفكارنا محصورة في مجد الله ، فلا نفكر في ذواتنا . ومن الشق الثاني ، نتعلم أن نسلم أنفسنا لله في كل أمورنا اليومية .

والطلبة الرابعة ، تتمثل في الصلاة من اجل الخبز اليومي . وهي لا تتعلق بالطعام فقط بل تتضمن أيضاً كل الأشياء المادية التي نحتاج إليها من الله يوماً فيوماً . لذلك فإننا باختصار نسلم أنفسنا لعناية الله من أجل الغذاء والحماية والحفظ .

أما الطلبتان الخامسة والسادسة ، فتشتملان على تضرع إلى الله من أجل ما نحتاج إليه للحصول على الحياة الأبدية : غفران الذنوب ، والنجاة من التجربة والانتصار عليها . وكلمة " ذنوبنا " في الأصل تعني أيضاً " ديوننا " ، لأننا مديونون بتسديد عقوبة هذه الذنوب . لكن بما أننا نعجز عن السداد ، فلابد أن يتم ذلك عن طريق الغفران . " ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير " ، هذه صلاة من أجل أن تكون لنا قوة الله تقودنا للنصرة على أعدائنا . إن النجاة من

الشرير هنا تعني النجاة من العدو الشرير كما تعني أيضاً النجاة والتحرر من الشر والخطية ، لأن الخطية هي السلاح الذي يستخدمه عدونا الشيطان ضدنا .

إن هذا الشرح للصلاة الربانية ، لا يعني أن تقتصر صلواتنا على استخدامها حسب نصها الدقيق ، وكأنها الصلاة الوحيدة التي يجب أن ترفع إلى الله. هناك صلوات كثيرة متنوعة في الكتاب المقدس . وكلمات كثيرة مختلفة موحى بها بالروح القدس الواحد . لكن يجب أن نأخذ في الاعتبار أن هذه الصلاة تعد مثالاً لنوعية الأشياء والاهتمامات التي يليق أن نصلي من أجلها .

٢١ – الاختيار (التعيين السابق)

من الواضح أن الله لم يقم باختيار كل الناس للخلاص . إن الإنجيل لم يبشر به في كل أجزاء العالم حتى الآن (كتب كلفن ذلك عام ١٥٣٦) . وفي الأماكن التي يجرى التبشير فيها لا يقبله الجميع . يجب علينا أن نؤمن أن الله يعين وينتخب ويختار بعض الناس . إن الله لا يأتي بكل الناس – دون استثناء – إلى الخلاص . إن ما يعطيه للبعض ينكره على البعض الآخر . إن المقابلة هنا بين الضدين تنشر أشعة الضياء على نعمة الله وتبرزها بالكشف عن اختياره المحب للبعض .

كتب بولس : " قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة . فإن كان بالنعمة فليس بعد الأعمال " (رومية ١١ : ٥،٦) لقد شعر بولس بأن هناك حاجة إلى تذكيرنا بأمر اختيارنا ، لكي يوضح لنا أن الخلاص بالنعمة وحدها . والذين يرفضون عقيدة الاختيار ، إنما يرفضون الإتضاع . لأن الأمر يتطلب تواضعاً حقيقياً لندرك أنه لا يمكننا حتى أن نبدأ في تحويل أنفسنا لتتجه نحو الله . إن الكفار والفجار يحتقرون هذه العقيدة ، لكن هذا لا يجب أن يكون سبباً يجعلنا نخفي هذه الحقيقة .

وقد علم بعض المعلمين بأن اختيار الله يتوقف بتمامه على علمه السابق، بمعنى أنه يختار فقط الذين سبق فعرف أنهم سيتحولون رجوعاً إليه . لكن مع أننا نؤمن إيماناً راسخاً بعلم الله السابق ، فإن تعليمنا هو أن اختيار الله أبعد مدى من ذلك بكثير . إن الحياة الأبدية قد عينت سابقاً للبعض ، أي أنهم اختيروا لهذا الهلاك . وهكذا يكون جميع الناس قد عينوا إما للحياة أو للموت .

إن الله يعين أو يختار جنساً ما أو أمة ما بنفس الطريقة التي يختار بها الأفراد . ولدينا مثال في طريقة الله في الاختيار فيما قاله موسى لشعب إسرائيل ، موضحاً أن السبب الوحيد لاختيار الله لهم هو محبته المجانية : " ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم ، لأنكم أقل من سائر الشعوب.

بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم " (تثنية ٧ : ٧، ٨) وعندما نرى أن الله قد اختار شعباً واحداً لمجرد أن يظهر محبته وإحسانه عليهم رغم عنادهم ، لا يكون لنا أي حق في مناقشة حكمه عندما يسر بأن يظهر رحمته للأفراد .

كما يجب أن نأخذ في الاعتبار أن الله لا يكتفي بمجرد تقديم الخلاص للأفراد ، بل إنه يضمن قبولهم لهذا الخلاص ، ويجعله أمراً مؤكداً وثابتاً . إن المختارين قد تم اختيارهم في المسيح قبل تأسيس العالم . لذلك فإن أعضاء عائلة المسيح هم عرض وإظهار رائع لعظمة نعمة الله لأنهم بمجرد اتحادهم بالمسيح لم يعد ممكناً أن يفقدوا خلاصهم مطلقاً .

٢٢ – مزيد من الإيضاح حول عقيدة الاختيار :

يعلم كثيرون بأن الله عرف مسبقاً أن البعض سيكونون مستحقين لنعمته واختار هؤلاء كأولاد له . لكن بولس يقول : " اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة " (أفسس ١ : ٤) فلم يكن الله يتعامل معنا بحسب استحقاقنا . وعندما اختارنا لنكون قديسين لم يختارنا لأنه سبق فرأى أننا سنكون قديسين .

إن حقيقة الاختيار يعلمها الرب يسوع نفسه بوضوح قائلاً : " كل ما يعطيني الآب فإلي يقبل ومن يقبل إلي لا أخرجه خارجاً " ، هذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير " (يوحنا ٦: ٣٧،٣٨) ، " لا يقدر أحد أن يقبل إلي إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني " (يوحنا ٦: ٤٤) .

يقول البعض ، حيث أن رسالة الإنجيل معلنة للجميع ، فإن الله يكون كمن يناقض نفسه إذا دعا جميع الناس ليأتوا إليه ولم يقبل منهم بعد ذلك سوى قلة مختارة . لكن جميع الناس – بمقتضى بشارة الإنجيل – مدعوون إلى التوبة على أن روح التوبة والإيمان لم يعط للجميع . إن هبة الإيمان نادرة ، لكن هذا لا يقلل من شأن عدم الإيمان . وفي رومية ٩ : ٢٠،٢١ نرى أن بولس ، يسكت أولئك الذين يقولون بأن هذا الأمر غير عادل ، فيقول ، : " من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله ؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتني هكذا ؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناءً للكرامة وآخر للهوان ؟ " ، وفي نفس الإصحاح التاسع من رومية وصل الرسول بولس بالتعليم عن الاختيار إلى تحديد واضح وقاطع فقال عن إبني اسحق : " لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً لكي يثبت قصد الله

حسب الاختبار ، ليس من الأعمال بل من الذي يدعو ... كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو " (رومية ٩ : ١١ – ١٣) .

وهناك ثلاث حجج تستخدم في مهاجمة التعيين الإلهي السابق أي الاختيار ، نلتزم هنا بالإجابة عليها فنقول :

(أ) الحجة الأولى :

كيف يظهر الله عطفه وإحسانه ، بعدم تعامله مع جميع الناس على قدم المساواة ؟ والرد هو : إن كل الناس مذنبون ، وان الله له الحق بمقتضى عدله أن يوقع عليهم حكم الدينونة لكنه في رحمته ، خلص البعض منهم .

(ب) الحجة الثانية :

إن الإيمان بعقيدة الاختيار يؤدي إلى إهمال الأعمال الحسنة ، إذ يمكن للناس الادعاء بعدم أهمية أعمالهم مادام الله قد عين من قبل ما إذا كانوا مختارين أم مرفوضين ! والرد هو : إن تعليم الكتاب المقدس كله يقف ضد مثل هؤلاء الأشرار (الذين يثبتون بذلك عدم اختيارهم) .

(ج) الحجة الثالثة :

لا حاجة للتبشير بأن يعيش الناس حياة صالحة لأن الصلاح لن يغير من الأمر شيئاً . والرد أننا قد رأينا بولس يعلم عن الاختيار بكل قوة ووضوح ، ومع ذلك لم يكن أقل قوة وحماساً في مناشدة المؤمنين بكافة السبل أن يحيوا حياة مقدسة.

وفي تعليمه للناس قال أغسطينوس بفطنة :

(حيث أننا لا نعرف من هم المختارون ، فإنه من الحكمة أن تكون لدينا رغبة أمينة في خلاص الجميع . وهكذا يكون لنا اشتياق في أن نجعل كل من نقابله شريكاً لنا في السلام . لكن ونحن نقوم بتوصيل الرسالة ، سيستقر سلامنا على أبناء السلام) .

٢٣ – القيامة

إن السعادة الكاملة الوحيدة هي في الإتحاد بالمسيح ، وهذا أمر يمكن للمؤمنين أن يعرفوه حتى وهم على الأرض ، " فإن سيرتنا نحن هي في السماوات التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده " ٠فيلبي ٣ : ٢٠ ، ٢١) . إن مسألة قيامة الأموات مسألة حيوية . لأنه إن لم تكن قيامة أموات فتعاليم الكتاب المقدس كلها تصير زائفة وباطلة (١كورنثوس ١٥ : ١٤ – ١٩) وقد نجده أمراً صعباً أن تقوم

الأجساد الفاسدة ثانية ، لكن الكتاب المقدس يقدم لنا نقطتين في هذا المجال لمساعدتنا وتشجيع إيماننا ، وهما :

١ – أن المسيح هو الضمان اليقيني الأكيد لحقيقة القيامة بعد الموت ، لأنه أخذ طبيعة بشرية وعاش حياته على الأرض ، ومن خلال الموت وصل إلى حياة الخلود والمجد الدائم . " فإن لم تكن قيامة أموات فلا يكون المسيح قد قام " (١كو ١٥ : ١٣) . لقد قام المسيح كرأس للحياة الجديدة ، وباكورة لما سيكون لجميع المؤمنين .

٢ – إن الله كلي القدرة ، لذلك فهو قادر على إنجاز ما يعد به ، " الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده ، بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء " (فيلبي ٣ : ٢١) . إذا تأملنا في عجائب العالم حولنا ، وتذكرنا أن إلهنا المجيد يجري العجائب والمعجزات ، لا يعود أمر القيامة صعب التصديق .

إن الملحدين الفجار سيقومون ثانية أيضاً ، شأنهم في ذلك شأن المؤمنين. لكن غير المؤمنين سيتعرضون لانتقام إلهي رهيب ، يصفه الكتاب بكلمات بالغة الشدة والقسوة ، ويتحدث عن هذا الانتقام على أنه تعذيب مادي وجسدي ومعنوي . وفي هذا دلالة واضحة على هول ما ينتظر غير المؤمنين . لكن العقاب الأكثر هولاً من العذاب الجسدي ، هو في الانفصال عن الله . يكتب عن ذلك الرسول بولس بلهجة جادة وحاسمة حين يقول : " عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته ، في نار لهيب معطياً نقمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون انجيل ربنا يسوع المسيح ، الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب ومن مجد قوته " (٢تسالونيكي ١ : ٧ – ٩) .

" من يعرف قوة غضبك ، وكخوفك سخطك . إحصاء أيامنا هكذا علمنا فنؤتي قلب حكمة " (مزمور ٩٠ : ١١،١٢) .

الجزء الرابع

الكنيسة

الجزء الرابع
طبيعة الكنيسة وملامحها وفرائضها

(كيف يدعونا الله إلى الشركة مع المسيح وكيف يحفظنا فيها)

١ -الكنيسة الحقيقية
(وجوب الحفاظ على الوحدة معها باعتبارها الأم لجميع أولاد الله)

(أ) عرفنا أن المسيح يضمن بالإيمان نصيبنا المبارك في الخلاص والفرح الأبدي. لكن لكي نأتي إلى الإيمان الحي نحتاج – بسبب جهلنا وعجزنا – إلى قدر عظيم من المعونة الإلهية التي تهبنا الإيمان وتنميه فينا لذلك فإن الله قد كفل لنا عوناً وتشجيعاً كافياً بأن سلم إنجيل نعمته للكنيسة ، وعين الرعاة والمعلمين لبنيان شعبه (أف ٤ : ١١) ومنحهم مكانة خاصة ، واهتم بكل ما يلزم لوحدانية الإيمان والتنظيم السليم لكنيسته . وأسس الفرائض التي نعرف بالاختبار الشخصي أنها ذات قيمة عظمى ليس لها مثيل في تقوية إيماننا . لأننا مرتبطون بجسد بشري ، ولم نصل بعد إلى المرتبة الملائكية . إن الله في رحمته جعل لنا – نحن البعيدين عنه – طريقاً يقربنا به إليه .

والكنيسة هي الأسرة الإلهية على الأرض ، هو تعالى يعيلها ويطعمها كما تطعم الأم أطفالها ، وبالتالي يمكن أن تقودهم وتوجههم بأمومتها المعتنية الحانية ، إلى أن يشبوا إلى الرجولة في إيمان ناضج . " فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان " (مرقس ١٠ : ٩) . والذين لهم الله أباً ينبغي أن تكون الكنيسة لهم أماً . كان هذا صحيحاً في حقبة العهد القديم ، وهو صحيح كذلك بعد أن جاء المسيح ، إذ يؤكد لنا الرسول بولس إننا ننتمي لأورشليم الجديدة السماوية (غلاطية ٤ : ٢٦).

(ب) إن لقب " أم " يؤكد لنا حاجتنا لأن نعرف شيئاً عن الكنيسة المنظورة . لا يوجد طريق يقودنا للحياة ، سوى أن يحمل بنا في رحمها ونولد ونعطى لبنها . ويجب أن نبقى تحت سلطانها إلى أن نموت فنصبح كملائكة الله (متى ٢٢ : ٣٠). إن ضعفنا كفيل بإبقائنا تلاميذ في هذه المدرسة كل أيام حياتنا . ولا يكون لنا رجاء في غفران خطايانا وخلاصنا خارج نطاق الكنيسة . هذا الأمر يوضحه بجلاء إشعياء (٣٧ : ٣٢) ويوئيل (٢: ٣٢) ، ويوافق عليه حزقيال ضمناً ، عندما يعلن قائلاً : " في مجلس شعبي لا يكونون ، وفي كتاب بيت إسرائيل لا يكتبون .. " (حز

١٣ : ٩) . إن أسماء أولئك الذين يتبعون طريق القداسة الحقيقية قيل عنهم إن أسماءهم مكتوبة وسط رعايا أورشليم . لذلك يقول صاحب المزمور :
" اذكرني يا رب برضا شعبك ، تعهدني بخلاصك ، لأرى خير مختاريك، لأفرح بفرح أمتك ، لأفتخر مع ميراثك " (مز ١٠٦ : ٤،٥) في هذه العبارات نرى أن المحبة الأبوية لله ، وبرهان الحياة الروحية ينحصران في شعبه الخاص . من هنا يصبح هجران الكنيسة أمراً مميتاً .

(ج) لعل رأينا بشأن الكنيسة المنظورة قد صار واضحاً . ويتحدث الكتاب المقدس عن الكنيسة من زاويتين : فيشير إليها – كما هي بحق أمام الله – الكنيسة التي لا يسمح بالدخول فيها إلا للذين نالوا التبني وصاروا أبناء الله ، وأعضاء حقيقيين في المسيح بتقديس الروح ، وضمن هؤلاء يدخل القديسون الموجودون على الأرض ، وجميع المختارين الذين تواجدوا منذ تأسيس العالم . وكثيراً ما تشير كلمة كنيسة أيضاً إلى جميع الذين يعترفون بعبادة إله ومسيح واحد في كل مكان من العالم . أولئك الذين اعتمدوا في الإيمان ، ويشتركون في عشاء الرب ، ويعترفون بالوحدة في العقيدة والمحبة . ويتفقون تماماً في الإيمان بكلمة الله ، ويطيعون الخدام الذين يقومون بخدمة التبشير بها . في هذه الكنيسة يوجد عدد كبير من المرائين الذين لا يملكون من المسيح شيئاً سوى اسمه . يبدو مظهرهم من الخارج على ما يرام ، لكنهم في الواقع أناس يتصفون بالطموح الخاص والجشع والحسد ، ويتكلمون بالشر . بل إن البعض منهم يحيون حياة أسوأ من ذلك . إلا أنهم جميعاً يواجهون بالتسامح إلى حين ، إما لأنه من الصعب الإمساك بدليل اتهام ضدهم ، أو بسبب عدم وجود نظام تأديب قوي.

(د) لقد ميز الله الكنيسة بعلامات أو رموز خاصة لأن من المهم لنا أن نتعرف على هذه الكنيسة . لاشك أنه امتياز خاص بالله أن يعرف الذين هم له ، كما يقول بولس (٢تي ٢ : ١٩) . وهذا يكبح جماح الثقة الزائدة عن الحد ، مادمنا ندرك بوضوح إلى أي مدى تعلو أحكامه عن افهامنا . حتى إن وجود الرب يمكن أن يتسع لأشر الناس الذين لا أمل لنا فيهم فيستعيدهم إلى الحياة . وذلك في نفس الوقت الذي يمكن أن يسقط أشخاص حسب الظاهر ثابتون . يقول أوغسطينوس (اللاهوتي العظيم) : " فيما يتعلق بالتعيين السري السابق لله ، يوجد الكثير من الغنم في الخارج ، والكثير من الذئاب في الداخل " . يعلم الله ، وله ختمه سواء على الذين يعرفون أنفسهم أو الذين لا يعرفون . فعيناه وحده هي التي يمكنها أن تميز بين الذين يلبسون شارته ، الأشخاص المقدسين حقيقة ، الذين سيستمرون إلى النهاية في مثابرة لابد منها لكي يكتمل خلاصهم . بيد أن الله يدرك مع ذلك ، أننا في حاجة إلى أن نعرف ، إلى حد

ما ، الأشخاص الذين يعتبرهم أبناء له ، وبالتالي يتيح لنا ذلك بدرجة ما ، وحيث إن التأكد المطلق – في ذلك – ليس أمراً أساسياً ، فقد وضع الله مكانه تقديراً رقيقاً أو تخميناً محبباً ، به نقبل كل شخص كعضو من أعضاء الكنيسة ، الذين بالإقرار بالإيمان واستقامة السلوك والاشتراك في الفرائض ، يتحدون معنا في نفس الاعتراف بالله وبالمسيح . وحيث إن معرفة جسده – الكنيسة – أمر ضروري جداً لخلاصنا ، فقد أوضح الله ذلك بعلامات محددة جداً .

(هـ) لذلك فالكنيسة المنظورة موجودة في جميع أنحاء العالم لكي ترى فحيثما يبشر بكلمة الله الحية ويصغي إليها بإخلاص ، وحيثما تمارس الفرائض بحسب مبادئ المسيح ، يمكننا أن نتيقن أن كنيسة الله موجودة ، لأنه وعد قائلاً : " حيثما إجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم " (متى ١٨ : ٢٠) . خلاصة القول: إن الكنيسة الجامعة تتكون من جماهير من الناس من كل الأمم ، يتفقون في الحق المختص بالتعليم الإلهي ، ويتحدون في إيمان مشترك . وهي تتضمن كنائس فردية وأشخاص منفردين بقدر ما تتضمن الجسد العام ، مادامت الكلمة المقدسة والفرائض تلقى قبولاً وطاعة .

(د) لا يمكن أن يكون هناك تبشير بكلمة الله وطاعة للفرائض في أي مكان دون أن يكون لهما ثمر ونجاح بفضل البركة الإلهية . لا نقول أنه من المحتم أن نرى نتائج مباشرة أينما يبشر بالكلمة ، بل نقول : حيثما تجد الكلمة الإلهية قبولاً فهناك دائماً البركة . عندما يستمع إلى بشارة الإنجيل بوقار ، والفرائض تطاع ، فمن الممكن رؤية الكنيسة على حقيقتها بوضوح . ولا أحد يمكنه – دون عقاب – أن يرفض سلطان الكنيسة أو يتجاهل توبيخها أو يزدري بحكمها دون أن يكون بذلك كمن يتمرد عليها علناً ويدمر وحدتها .

يعطي الرب هذا القدر الكبير من الأهمية لشركة كنيسته ، حتى إن جميع الذين يقطعون أنفسهم – برؤية وتعمد – عن أي جماعة مسيحية تؤمن بالإنجيل وتؤيد بإخلاص خدمة الكلمة الإلهية والفرائض المقدسة ، فإن الله ينظر إليهم على أنهم منشقون . يستودع الله كنيسته سلطاناً عظيماً ويهتم بها جداً حتى إنه إذا لحقتها إهانة ما ، فإنه يعتبر ذلك إهانة لسلطانه الخاص " بيت الله " و " عمود الحق وقاعدته " (١تي ٣ : ١٥) . يرينا في هذه الكلمات أن الكنيسة هي حارسة الحق حتى لا يبطله العالم . وقد اختار الله أن يستخدم الكنيسة لكي تبشر بكلمته المقدسة في كل نقائها وصفائها . وبهذا يعلن نفسه لنا كأب يطعمنا بالغذاء الروحي وبكل ما نحتاج إليه من أجل الخلاص . يا له من امتياز هائل للكنيسة أن يختارها المسيح

ويفرزها كعروس له ، بلا دنس ولا غضن أو أي عيب آخر (أف ٥ : ٢٧) . ومن هنا فإن التمرد على الكنيسة يعد رفضاً لله والمسيح . ولا غرو فالتمرد هنا مساو لمحاولة تدمير حق الله ، مما يتعين علينا أن نشعر إزاءه بملء قوة غضب الله . ليس هناك جريمة أسوأ من التجديف على الله ، ومن العار أن نفصم رباط الزوجية المقدس ، الذي تنازل ابن الله الوحيد ليعقده معنا .

(ز) علينا أن نتعرف على السمات التي تميز كنيسة الله ، وأن نراها من خلال عينيه هو . فليس أحب إلى قلب إبليس من أن يتخلص من هذه السمات بالتشويش حولها والعمل على ازدرائها بإقناع الناس بعدم احترامها بل وتحريضهم على التمرد العلني على الكنيسة . يحاول الشيطان بحيله وألاعيبه أن يوهم الناس بأن التبشير بكلمة الرب قد اختفى منذ قرون . وهو يعمل الآن ، في سبيل تحقيق هذا الغرض الشرير على تمزيق الخدمة والإطاحة بها . لقد شيد الله كنيسته بحيث لو أمكن إزالة هذه الخدمة لانهار البناء كله . نرجو أن يكون قد أصبح واضحاً الآن أن محاولة إغرائنا بفصل أنفسنا عن الشركة التي تؤكد على السمات المميزة التي اختارها الرب لكنيسته ، أمر خطير مدمر وقاتل ، مما يجعلنا نحتاج إلى فطنة حقيقية وبصيرة ثاقبة . لا يجب أن يخدعنا الاسم " كنيسة " ، إذ ينبغي أن توضع تحت الفحص كل جماعة تدعى هذا الاسم . فإن كانت تحافظ على ممارسة المبادئ التي أسسها الرب في الكلمة والفرائض المقدسة ، فلا مجال للخديعة والاحتيال وبالتالي يمكننا أن نحترمها في طمأنينة وأمان . أما إذا لم تتوافر هذه العلامات المميزة ، فينبغي أن نتجنب هذا الزيف والاحتيال .

(ح) عندما نقول إن نقاوة خدمة كلمة الله ، والممارسة النقية للفرائض تعد علامات كافية للتعرف على الكنيسة ، فإننا نعني بذلك أنه لا يجوز أن نشطب على كنيسة ما ، طالما وجدت هذه العلامات ، حتى ولو كان يشوبها بعض الأخطاء الأخرى . وربما وصل الأمر إلى أن يكون هنالك بعض مواطن القصور والضعف في توجه وإدارة الكلمة والفرائض المقدسة ، إلا أن هذا يجب ألا يفصلنا عن شركة الكنيسة.

ليست جميع المسائل العقيدية على درجة واحدة من الأهمية ، فبعضها أساسي وجوهري للإيمان ، مثل : أن الله واحد ، وأن المسيح هو الله وابن الله ، وأن خلاصنا يستند على نعمة الله .. وهكذا . وهناك مسائل أخرى يمكن أن تكون محل نقاش أو جدل لكنها لا تحطم وحدة الإيمان . من أمثلة ذلك : أهو أمر خطير أن يعتقد إنسان ما بأن النفس عندما تترك الجسد تطير إلى السماء ، بينما يقول آخر : إن كل ما يعرفه على وجه اليقين أنها تكون مع الرب ؟!

يقول الرسول : " فليفتكر هذا جميع الكاملين (الناضجين) منا ، وإن افتكرتم شيئاً بخلافه ، فالله سيعلن لكم هذا أيضاً " (في ٣ : ١٥) . والتطبيق هو إن تلك المسائل غير الجوهرية لا ينبغي أن تكون أساساً للحوار بين المسيحيين . ليس من شك في أن الأفضل أن يكون لنا الاتفاق التام ، لكن حيث إن المعرفة الكاملة غير متاحة أو ميسرة لكل إنسان ، فإننا نكون أمام خيارين : إما أن لا يكون لنا كنيسة على الإطلاق ، وإما أن نعفو عن الخطأ في الأمور التي لا تقوض أساس الخلاص .

نحن لا نتغاضى عن الخطأ مهما كان تافهاً ولا نشجعه ، لكننا نحاول أن نقول : إنه لا ينبغي بسبب غلطة صغرى أن نترك الكنيسة ، شريطة أن يكون لها العقيدة الصحيحة في الأمور الأساسية ، وفي ممارسة الفرائض التي وضعها الرب. إذن فمن واجبنا أن نحاول أن نغير ما هو خطأ . وعن هذا يتحدث بولس فيقول : " ولكن إن أعلن لآخر جالس فليسكت الأول " (١كو ١٤ : ٣) . فكل عضو من أعضاء الكنيسة عليه أن يبذل أقصى ما في وسعه لمصلحة الأغلبية ، فلا يهجر الكنيسة ، ولا يمكث فيها بلا هدف سوى أن يعكر صفوها ويفسد سلامها.

(ط) علينا أن نكون أكثر تسامحاً فيما يتعلق بأخطاء السلوك . فكل منا هنا معرض للسقوط في أحد فخاخ العدو . من السهل جداً أن نعطي انطباعاً مزيفاً عن قداسة سامية ، كما لو كنا في ذلك الحين ملائكة ، ونتجاهل كل الرفقاء الذين تبدو بشريتهم في تقصيرا تهم .

وهنالك آخرون قد يخطئون بسبب الغيرة الحمقاء أكثر منه بسبب الكبرياء . فعندما يرون أن الناس بعد سماعهم بشارة الإنجيل لا تتشكل حياتهم بحسب معتقداتهم ، فإنهم يصلون إلى نتيجة مفادها أنه لا وجود للكنيسة على الإطلاق .

نحن لا نبرر – بالطبع – الحياة المسيحية السطحية ، قليلة العمق ، التي هي شائعة جداً ، والرب قادر أن يصححها لاسيما عندما تسبب الإساءة إلى ذوي الضمائر الضعيفة . لكنها خطية أيضاً أن يكون الإنسان غير محب وقاسياً بغير ضرورة . إن الذين يميلون إلى القسوة بغير محبة ، يتخيلون أنه لا وجود لكنيسة معينة ما لم يكن هناك طهارة وقداسة كاملة وأمانة تامة في السلوك . وحيث أنهم يكرهون الشر ، تراهم ينسحبون من كنيسة حقيقية صادقة ، متصورين أنهم يتجنبون شركة غير المؤمنين ، مؤكدين بإصرار على ضرورة أن تكون كنيسة الله مقدسة . بيد أن مثل هؤلاء يحتاجون إلى أن يدركوا أن الكنيسة تضم أخلاطاً من الأخيار والأشرار . وعليهم أن يستمعوا جيداً إلى المثل الذي ضربه مخلصنا وفيه يشبه "

الكنيسة " بشبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل أنواع السمك ، ولا يتم الفصل بين الأنواع الجيدة والأنواع الرديئة إلا بعد أن تحضر الشبكة إلى الشاطئ (متى ١٣ : ٤٧ – ٥٠) . كما تشبه الكنيسة أيضاً بحقل زرع بالبذار الجيدة ، جاء إليه عدو وزرع زواناً ، ولا يتم الفصل بين الزوان والحنطة إلا عند الحصاد (متى١٣ : ٢٤ – ٣٠) . ويااليتهم أيضاً ينظرون إليها على أنها " بيدر " تختبئ فيه الحنطة بين التبن ، إلى أن يتم فصلهما بالمذراة والغربال وتنقية البيدر وجمع القمح إلى المخزن (متى ٣ : ١٢) . فإن كان الرب نفسه يعلم بأن الكنيسة ستعاني من ثقل خطاة بلا عدد إلى يوم الدينونة ، فإنه من العبث التطلع إلى كنيسة خالية تماماً من الأخطاء .

(ي) لكن بعضاً من الصادقين المخلصين ، كثيراً ما يخدعون ويتأثرون بتلك الغيرة المفرطة من أجل البر ، رغم أنها كثيراً ما تكون ناتجة عن الكبرياء أو عن فكرة غير سليمة عن القداسة . إن الذين يتزعمون التحريض على هجر الكنيسة لا يشغلهم سوى استعراض تفوقهم الخاص ، عن طريق احتقار الآخرين . وفي هذا يقول اللاهوتي العظيم أوغسطينوس :

" رأينا أن دواعي التقوى وأسلوب التأديب الكنسي ، لابد أن يدخلا في اعتبار حفظ وحدانية الروح برباط السلام ، إذ يأمرنا الرسول بأن نصون هذه الوحدة باحتمال بعضنا بعضاً . أما أولئك الأردياء الذين يتصرفون من منطق غيرتهم على صراعاتهم ومنافساتهم الخاصة ، وليس بسبب عدم رضاهم عن شرور الآخرين ، فإنهم يبذلون جهدهم في جذب أو تفريق الأخوة الضعفاء المأخوذين ببريق اسمهم ، بينما هم منتفخون بالكبرياء، مهيجون للفتن ، متسربلون بعباءة التجهم والصرامة حتى لا ينكشف تجردهم من نور الحق " .

ينصح أوغسطينوس الإنسان الفاضل الصادق الولاء بأن يصحح ما يقدر عليه بلطف ، وأن يتحمل ما لا يمكن تغييره بصبر . وقد يترتب على هذا نوع من الألم ، لكن علينا أن نعرف أن الله قادر أن يغير الأوضاع في هذه الحياة أو يقتلع الحشائش الغريبة ويذري العصافة عند الحصاد النهائي . قد يعتبر الإنسان نفسه بطلاً غيوراً على البر ، ومع ذلك يتمرد على ملكوت السموات ، المملكة الوحيدة للبر . لقد رتب الله أن يكون الحفاظ على شركة كنيسته في المجتمع الإنساني أمراً ضرورياً ، وإن أي شخص يحاول كسر ربطها بحجة كراهيته للأشرار ، إنما يدفع بنفسه إلى منزلق وعر ، يكمن فيه الخطر الجسيم في أن يقطع نفسه من شركة القديسين . ولابد لنا جميعاً أن ندرك أنه في جماعة كبيرة ، قد يوجد الكثيرون ممن لا يلفتون النظر ، الذين هم في عيني الرب أبرار بحق ومغفورو الأثم . بل إنه بين الذين يبدون بعيدين عن الطهارة والنقاوة ، قد يوجد كثيرون غير راضين عن

أنفسهم ، وقد يتغيرون ، بواسطة الرب – إن عاجلاً أو آجلاً – إلى أمانة أعظم . من ثم فليس من حقنا أن نصدر حكماً بالإدانة على أي إنسان من أجل عمل واحد ، فأقدس إنسان معرض للسقوط فيما هو أسوأ . دعونا نذكر أيضاً أنه في خدمة الكلمة وشركة الفرائض المقدسة ، نرى القوة التي تجمع الكنيسة أعظم بكثير من إمكان قلة من الأشرار على ابطال تأثيرها . أخيرا فنحن نعلم أنه في مجال الحكم على الكنيسة ، يكون رأي الله أكثر أهمية من رأي الإنسان بما لا يقاس .

(ن) ولما كانت الكنيسة تدعى مقدسة بحق ، فمن الضروري إذن أن نحلل هذه القداسة . بعبارة أخرى ، لو رفضنا أن نعترف بعدم وجود كنيسة كاملة تماماً فلن يكون لدينا كنيسة على الإطلاق . يقول بولس بحق : إن المسيح " أحب الكنيسة وبذل نفسه لأجلها ، لكي يقدسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة ، لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك ، بل تكون مقدسة وبلا عيب " . (أف ٥ : ٢٥ – ٢٧) . لكنه أمر حقيقي أيضاً أن الرب يعمل يومياً على صقل هذه التجاعيد وإزالة البقع وتنقية الشوائب . من هنا نرى أن قداسة الكنيسة ليست بعد كاملة . إنها تتقدم باستمرار لكن لم تصل بعد إلى غايتها. لذلك فإن الأنبياء عندما يتطلعون إلى الأمام قائلين : " تكون أورشليم مقدسة لا يجتاز فيها الأعاجم فيما بعد " . (يوئيل ٣ : ١٧) وسوف " يقال لها الطريق المقدسة ، لا يعبر فيها نجس " (اش ٣٥ : ٨) فهم لا يقصدون بذلك أنه لن تكون هناك أخطاء في أعضاء الكنيسة ، لكن المعنى المقصود هو أن هؤلاء الأعضاء سوف يسعون بصدق وإخلاص نحو القداسة والنقاوة الكاملة . أي أن الرب في جوده يحسب لهم ما لم ينالوه بعد .

أيضاً نقول إنه رغم أن القداسة الحقيقية نادرة تماماً ، فإن علينا أن ندرك أن الرب لم يكن يوماً بدون كنيسته ، ولن يكون بدونها يوماً إلى نهاية الدهر . وعلى الرغم من أن كل الجنس البشري قد فسد بخطية آدم ، إلا أن الرب قد كرس وقدس البعض دائماً ، كأواني للكرامة ، لكي لا يكون هناك جيل بدون اختبار لرحمة الرب الذي أعطى وعوداً واضحة في هذا الصدد ، مثل :

- " قطعت عهداً مع مختاري . حلفت لداود عبدي . إلى الدهر أثبت نسلك ، وأبني إلى دور فدور كرسيك " (مز ٨٩ : ٣،٤) .

- " لأن الرب قد اختار صهيون ، اشتهاها مسكناً له . هذه هي راحتي إلى الأبد ، ههنا أسكن لأني اشتهيتها " (مز ١٣٢ : ١٣،١٤) .

- " هكذا قال الرب الجاعل الشمس للإضاءة نهاراً ، وفرائض القمر والنجوم للإضاءة ليلاً ، الزاجر البحر حين تعج أمواجه ، رب الجنود اسمه . إن كانت هذه الفرائض تزول من أمامي يقول الرب ، فإن نسل إسرائيل يكف من أن يكون أمة أمامي كل الأيام " (ارميا ٣١ : ٣٥،٣٦) .

(ل) إن غفران الخطايا هو القاعدة التي نستند عليها في بداية دخولنا إلى الكنيسة كما إنه أيضا القاعدة التي على أساسها يحفظنا الرب فيها . لن يكون هناك فاعلية عظمى في قبول غفران ليس له قيمة بعد ذلك ، وبالمثل تكون رحمة الله زائفة وبلا جدوى لو أنها كانت تقدم مرة واحدة فقط . إن كل مؤمن يمكنه أن يكون على وعى مدى حياته بكثير من الضعفات التي متاح إلى رحمة الرب . ونحن ما كنا لنقدر أن نبقى في الكنيسة لحظة واحدة إن لم نكن مؤيدين بنعمة الله الدائمة الغفران لقد دعا الله شعبه إلى خلاص أبدي ، لذلك فنحن في حاجة أن نتذكر أن العفو عن الخطايا أمر يحتاج دائماً ، إن كنا ننتمي إلى جسد الكنيسة فإن خطايانا قد غفرت ، وتغفر يومياً من خلال جود الرب بتقديس الروح القدس في استحقاقات المسيح .

٢ – مقارنة بين الكنيسة الحقيقية والكنيسة المزيفة

١ – حاولنا أن نوضح مدى أهمية خدمة الكلمة والفرائض المقدسة لنا . انهما أشبه بعلامة مميزة أو شارة مثبتة دائماً تتميز بها الكنيسة . وحيثما وجد هذان الأمران فلن تعوقنا أخطاء أو نقصات عن التسليم بصحة الكنيسة . إن النقصات الصغرى لا تبطل الكنيسة ، لكن عندما يشق الخطأ طريقه إلى قلعة المسيحية الحقيقية فيحطم العقائد الأساسية ، عندما يساء استخدام الفرائض المقدسة ، فإن الكنيسة تموت لا محالة ، كإنسان يسقط صريعاً إذا قطع عنقه . يوضح بولس ذلك عندما يقول : " مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ، يسوع المسيح نفسه حجر الزاوية " (بدون الواو حسب الأصل اليوناني) (أف ٢ : ٢٠) . وحيث إن الكنيسة مبنية على تعليم الرسل والأنبياء الذين أرشدوا المؤمنين بأن يطلبوا الخلاص في المسيح وحده ، لذلك فإنه إذا تحطم هذا التعليم لا يمكن أن تظل الكنيسة قائمة . فالكنيسة تسقط لا محالة عندما تنهار أية عقيدة أساسية . ومادامت الكنيسة هي " عمود الحق وقاعدته" (١تي ٣ : ١٥) فلا وجود لكنيسة يسود فيها الكذب والضلال .

٢ – ولما كان الكذب والضلال قد سادا في ظل النظام الكنسي السائد (في أيام كلفن) ، فعلينا أن نفهم تأثير ذلك على الكنيسة هناك . فبدلاً من خدمة الكلمة ، وجدت إدارة فاسدة مكونة من أكاذيب تحجب جزئياً نور الله الصافي . وبدلاً من عشاء الرب حدث تدنيس شنيع للمقدسات ، كما شوهت عبادة الله بكم هائل من الخرافات التي لا تحتمل . والعقيدة التي بدونها لا يمكن أن يكون للمسيحية وجود قد أهيل عليها التراب وازدرى بها ، وصارت الخدمات العامة منبتاً للتجديف ، ومرتعاً للوثنية . وغنى عن البيان اننا عندما نرفض المشاركة في هذه الأمور الخاطئة لا يكون هناك أية مخاطرة بأن نقطع من كنيسة المسيح . إن عضوية الكنيسة لم يقصد بها أن تكون قيداً يشدنا في وثنية وتدنيس للمقدسات وجهل بالله وما إلى ذلك من شرور . بل بالأحرى يليق بعضوية الكنيسة أن تحفظنا في مخافة الله وطاعة الحق .

يفاخر قادة الكنيسة المسيطرة بصوت عال بكنيستهم ، كما لو أنه لا وجود لكنيسة أخرى ، ويعلنون بوضوح أن جميع الذين يتركون هذه الكنيسة هم منشقون ، وأن جميع الذين يتذمرون على عقيدتها هم هراطقة . يحاولون إثبات انفرادهم بالكنيسة الحقيقية ، باللجوء إلى رواية ما حدث مرة في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا . ويدعون أن أصلهم يرجع إلى أولئك الرجال المقدسين الذين أقاموا الكنائس بالعقيدة السليمة وعملوا على تثبيت وترسيخ التعليم الحقيقي ، الذين بنوا الكنيسة بدمائهم . كما يدعون أيضاً أن الكنيسة التي كرست على هذا النحو ، بالمواهب الروحية وبدم

الشهداء ، قد حفظت من الدمار بسلسلة متعاقبة من الخلافة المستمرة للأساقفة . ودليلهم الأساسي في ذلك ما نسبه كل من ايريناوس وترتليان وأوريجانوس من أهمية لهذا التسلسل . ينبغي علينا أن نشير إلى بطلان هذه الادعاءات لكي لا يقع في شركها الناس الأخيار محبو الحق . لذلك نتساءل : لماذا لم يشيروا إلى أفريقيا ومصر وآسيا برمتها ؟ الجواب بوضوح هو أنه في هذه الأقاليم قد كسر التعاقب المقدس الذي به يفاخرون بأن كنيستهم هي الكنيسة الوحيدة الحقيقية ، لأن الكنيسة منذ بدأت لم تكن بدون أساقفة ، لقد تتابعوا الواحد بعد الآخر في سلسلة متصلة . لكن ماذا لو ذكرنا بلاد اليونان ؟ لماذا يقولون إن الكنيسة ماتت بين اليونانيين رغم أنه كان بها تعاقب غير منقطع للأساقفة إنهم يطلقون على اليونانيين اسم " المنشقين " الذين فقدوا امتيازهم عندما تحولوا عن كنيسة روما ، المقر الرسولي . أفلا يستحق الذين يتحولون عن المسيح أن يفقدوا بالأحرى امتيازهم ؟

إن ادعاء الخلافة يكون بلا قيمة إذا لم تحفظ الأجيال المتعاقبة حق المسيح (الذي سلم إليهم من آبائهم) ، إن من أوجب الواجبات أن يحفظ هذا الحق سالماً وكاملاً وأن يصان من الأذى ، بالاستمرار في الحياة بموجب هذا الحق .

٣ – معلمو الكنيسة وخدامها
(اختيارهم وخدمتهم)

(أ) نحن الآن بصدد الحديث عن نموذج الرب لإدارة شئون الكنيسة :

ينبغي أن تكون السيادة في الكنيسة للرب وحده ، هذا حق واضح ، وعلينا أن نكون على يقين من أن الرب يفعل هذا . يجب أن يدار نظام الكنيسة عن طريق كلمة الرب المباركة وحدها . لكن حيث أن الرب لم يعد يعيش بيننا بالجسد لكي يجعل إرادته واضحة بما يمكن أن يخرج من شفتيه مباشرة ، لذلك فهو يستخدم لخدمة الكلمة بشراً ، ويجعلهم ينوبون عنه . إنه لا يحول إليهم حقوقه ومقامه السامي الرفيع ، لكنه يعمل من خلالهم ، تماماً كما يقوم أحد العمل باستخدام أداة لإتمام غرضه .

سبق أن قلنا إن الله كان يمكنه أن يعمل دون أية مساعدة بشرية ، وكان يمكنه أن يعمل من خلال ملائكة . بيد أنه توجد أسباب عديدة جعلت الرب يختار أن يستخدم أناساً . ذلك أنه بهذه الطريقة يظهر لنا أولاً تنازله وتعطفه علينا باستخدامنا كسفراء له نوضح إرادته للعالم ، ونمثله . ولهذا السبب ندعى " هيكله " إذ يكلم

الناس من خلال شفاهنا كما من " مقدس " . وبهذه الطريقة يقدم لنا ثانياً تجريباً ذا قيمة كبيرة في التواضع ، لأنه ينتظر من الناس أن يطيعوا كلمته التي يبشر بها أناس نظيرهم (في بعض الحالات لا يكونون في مثل صلاحهم) . لو أن الله تكلم بنفسه من السماء مباشرة فلن يكون من الغريب أن تقبل كلمته المهيبة بوقار فوراً ؛ إذ من لا يخشى قوته العظيمة ؟ ومن ذا الذي لا ينحني في محضر جلاله ولا يسبى ببهاء مجده ؟ لكن عندما يتحدث إنسان عادي باسم الرب من السماء ، فإن الناس بإصغائهم بهدوء إلى خادمه الذي هو إنسان ليس أفضل منهم ، يبرهنون على إخلاصهم وولائهم وطاعتهم للرب . إن الله يخبئ كنز حكمته السماوية في أوان خزفية لكي يختبرنا . كما أنه لصنع المحبة المتبادلة بين الناس ليس أفضل من أن يربط بينهم بتعيين واحد منهم راعياً يعلم الباقين الذين دعوا للتلمذة . أما إذا كنا في حالة غرور واكتفاء ذاتي ، بحسب طبيعة الكبرياء البشرية، فإن ذلك سوف يؤدي إلى احتقار الآخرين ، وهم سوف يزدرون بنا .

لذلك فإن الرب ربط كنيسته بما يعلم أنه أقوى رباط للوحدة ، فعهد إلى الناس بأن يوصلوا إلى إخوتهم من البشر التعليم المختص بالحياة الأبدية والخلاص. وإلى هذا يشير بولس عندما يكتب إلى أهل أفسس بأنه يوجد : " جسد واحد وروح واحد ، كما دعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد – رب واحد ، إيمان واحد ، معمودية واحدة ، إله وآب واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي كلكم . ولكن لكل واحد منا أعطيت النعمة حسب قياس هبة المسيح ، لذلك يقول : " إذ صعد إلى العلاء سبى سبياً وأعطى الناس عطايا . وأما أنه صعد فما هو إلا أنه نزل أيضاً أولاً إلى أقسام الأرض السفلى ، الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السموات لكي يملأ الكل . وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً والبعض أنبياء والبعض مبشرين . إلى أن ننتهي جميعاً إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله ، إلى إنسان كامل ، إلى قياس قامة ملء المسيح . كي لا نكون فيما بعد أطفالاً مضطربين ومحمولين بكل ريح تعليم بحيلة الناس بمكر على مكيدة الضلال . بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح . الذي فيه كل الجسد مركباً معاً ، ومقترناً بمؤازرة كل مفصل ، حسب عمل ، على قياس كل جزء ، يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة " (أف ٤ : ٤– ١٦) .

(ب) في هذه الكلمات الموجهة إلى أفسس يتحدث بولس عن خدمة البشر الذين يستخدمهم الله في تنظيم الكنيسة ، على أنها رباط حيوي به يوحد المؤمنين في جسد واحد . ويرى أن الكنيسة لا يمكن أن تصان بدون الحراس الذين عينهم ؛ فقد صعد المسيح فوق جميع السموات لكي يملأ الكل (أف ٤ : ١٠) ووسيلته لذلك هي أنه

وزع عطايا على الكنيسة من خلال خدامه ، وبهذا أظهر أنه موجود هناك بعمل قوة روحه القدوس ، يحول دون أن تصبح الكنيسة بلا هدف أو ثمر . بهذه الطريقة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس ونتحد مع بعضنا البعض . وبهذه الطريقة نحضر إلى وحدة المسيح . وطالما كانت النبوة ناجحة ومزدهرة فإننا نرحب بخدام الرب ولا نحتقر تعليمه . كل من يحاول أن يتملص من هذا النموذج الخاص بالنظام الكنسي أو ينظر إليه نظرة ازدراء معتبراً إياه قليل الأهمية ، فإنما يكون كمن يتآمر لتخريب الكنيسة . إن الطاقة الشمسية والقوت الضروري ليسا على درجة من الأهمية تماثل الأهمية التي للدور الرسولي والرعوي في حفظ الكنيسة على الأرض .

(ج) لقد وضع الله تصديقه الدائم الثابت على الخدمة الكنسية بمنح ألقاب تجعلنا ننظر إلى الخدمة بتقدير واعتبار كواحدة من البركات العظمى . إنه يعلن بوضوح أن إقامة " معلمين " تعتبر امتيازاً خاصاً للناس ، لنتأمل في قول الرب على لسان النبي عندما يهتف قائلاً : " ما أجمل على الجبال قدمي المبشر بالسلام ..!" (اش ٥٢ : ٧) وفي قول المسيح للرسل : " أنتم نور العالم .. أنتم ملح الأرض " (متى ٥ : ١٣،١٤) ، بل إن مدحه للخدمة بلغ شأناً كبيراً في الرفعة والسمو عندما قال : " الذي يسمع منكم يسمع مني ، والذي يرذلكم ، يرذلني والذي يرذلني يرذل الذي أرسلني " (لوقا ١٠ : ١٦) .

ولعل أكثر العبارات مدعاة للانتباه والتأمل هي التي ترد في الرسالة الثانية إلى كورنثوس ، وفيها يؤكد على أن خدمة الإنجيل هي أسمى وأمجد مجالات الخدمة في الكنيسة ، باعتبارها خدمة دائمة وباقية ، خدمة الروح ، روح البر (٢كو٤ : ٦ ؛ ٣ : ٩) .

هذه الشواهد وغيرها ينبغي أن تجعلنا نقدر الخدمة حق قدرها ولا نسمح بأن يشوبها أي قصور أو إهمال . مرة أخرى نقول : توجد أمثلة كتابية كثيرة عن الضرورة الملحة للخدمة ، فعندما اختار الله أن يعلن نور حقه لكرنيليوس ، أرسل إليه ملاكاً من السماء يطلب منه أن يستدعي بطرس (أع ١٠ : ٣) . وعندما سر الله أن يعلن عن نفسه لبولس ويطعمه في الكنيسة أرسله إلى رجل يعلمه عن الخلاص والمعمودية (أع ٩ : ٦ – ٢٠) .. وليس من قبيل المصادفة أن يعهد الله بهذه المهام الخطيرة إلى أناس من البشر . من ثم ينبغي علينا ألا نحتقر الخدمة التي أعطاها الله مثل هذا الاعتبار الأسمى .

٤ – التأديب الكنسي
واستخدامه أساساً في التحذير والحرمان

(أ) والآن علينا أن نلقي نظرة سريعة على التأديب الكنسي . إنه يعتمد إلى حد كبير على قوة الأدلة ، وعلى السلطة الروحية . ولكي نزيد الأمر إيضاحا نقسم الكنيسة إلى مجموعتين رئيسيتين : رجال الدين والشعب . ولفظ رجال الدين هنا مستخدم بطريقة عادية للتعبير عن الخدام الذين يقومون بخدمة عامة في الكنيسة .

وسنعالج أولاً التأديب العام الذي يجب أن يخضع له كل واحد ، ثم نتجه بعد ذلك إلى ما يتعلق برجال الدين ، الذين يجب أن يكونوا أيضاً تحت تأديب خاص .

يبغض بعض الناس " التأديب " كثيراً ، إلى حد اعتراضهم على الاسم نفسه . بيد أننا يجب أن نذكرهم أنه لا يمكن لأي مجتمع أو عائلة أن تحكم بدون تأديب . وفي الكنيسة يكون التأديب أكثر ضرورة وأشد إلحاحاً لأنه يتعين عليها أن تسير بأفضل طريقة ممكنة . وكما أن التعليم المختص بفداء المسيح هو حياة الكنيسة ، فكذلك يعد التأديب بمثابة الأوتار التي تشد الأجزاء معاً في الوضع الصحيح . وكل من يحاول التملص من التأديب أو يرغب في عدم الالتزام به فإنما يعمل في الواقع على انهيار الكنيسة . لأنه ماذا يمكن أن يحدث لو سمح لكل واحد بفعل ما يريد وبالطريقة التي تحلو له ؟ لابد ، إذن ، إلى جانب التبشير بالإنجيل من وجود تأديب خاص ، وتصحيح لحفظ التعليم من أن يكون عقيماً وغير فعال . إن التأديب ضابط أو شكيمة تكبح جماح أولئك الذين يهاجمون تعليم المسيح . وهو أيضاً منبه أو مثير يعترض طريق غير الملتزمين ويوقفهم عند حدهم . لكنه يكون في بعض الأحيان عصاً أبوية حانية يعاقب بها المؤمن المخطئ عقاباً رقيقاً .

في إمكاننا في الوقت الحاضر ، أن نرى في الكنيسة علامات التشويش ، الناجمة عن الافتقار إلى نظام للسيطرة على الأعضاء ، من ثم فإن الضرورة وحدها تقتضي حلاً . والحل الوحيد هو ما عينه الرب يسوع وقبله الأتقياء دائماً .

(ب) التوبيخ الخاص هو العنصر الأساسي الأول للتأديب : لو أن أي إنسان لا يؤدي واجبه طواعية ، أو لو أنه يسلك بوقاحة ، أو يحيا حياة غير أمينة ، أو يرتكب ما إلى ذلك من الأخطاء ، فإن الضرورة تقتضي توبيخه . وعلينا أن نكون مستعدين لتوبيخ أي أخ في حالة الضرورة . يجب على الرعاة أن يكونوا يقظين ، شديدي الانتباه ، لا يكتفون بالوعظ بل يحذرون الناس في منازلهم إذا تطلب الأمر ذلك . يقول بولس : إنه علم " جهراً وفي كل بيت " محذراً ومنذراً : " إني برئ من دم

الجميع " حيث أنه قد أعلن " كل مشورة الله " (أع ٢٠ : ٢٠ ، ٢٦ ، ٢٧). يتطلب التعليم قوة وسلطاناً عندما يكون على الخادم أن يعلن جهاراً ومواجهة ما علينا من دين للمسيح . بل إن الخادم من واجبه ، ومن حقه أيضاً أن يطلب منا الطاعة . فإذا رفض أحدهم التحذير – بروية وتعمد – مصراً على الخطية ، فإن المسيح يأمرنا بأنه بعد أن يتم توبيخه ثانية أمام شهود ، يستدعى لمحاكمة كنيسة . إن هيئة الشيوخ يجب أن ترده إلى جادة الصواب بأكثر قوة ، بسلطة عامة ، إذ لو أنه يحترم الكنيسة حقيقة فسيخضع ويطيع (متى ١٨ : ١٥ ، ١٧) . أما إذا لم يتضع بعد ذلك وأصر على طرقه الشريرة ، محتقراً الكنيسة ، فإن الأمر يقتضي عندئذ استبعاده من شركة المؤمنين .

(ج) لم يتحدث مخلصنا عن الأخطاء السرية فقط . فيجب أن نلاحظ التمييز بين الخطية الخاصة والخطية العامة . ففيما يتعلق بالخطية الخاصة يقول المسيح : " اذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما " (متى ١٨ : ١٥) . أما بالنسبة للخطية العامة، فيقول بولس لتلميذه تيموثاوس : " الذين يخطئون وبخهم أمام الجميع لكي يكون عند الباقين خوف " (١تي ٥ : ٢٠) ، يستخدم يسوع هذه العبارة " إن أخطأ إليك أخوك " (متى ١٨ : ١٥) مما يقتضي أن الخطأ أمر خاص لا يعرفه سوى أنت . لقد نفذ بولس ما أوصى به بشأن الخطأ العام ؛ إن الذين يخطئون علانية يجب أن يوبخوا علانية ؛ فوجه اللوم إلى بطرس أمام الجميع (غل ٢ : ١٤) . من هنا فإن السبيل القويم يجب أن يكون دائماً هو : تصحيح الخطايا السرية سراً ، والتعامل مع الخطايا العلنية التي تؤدي إلى خلق فضيحة عامة ، عن طريق الكنيسة .

(د) وهنالك تمييز آخر يجب التنبه إليه . توجد خطايا هي مجرد زلات أو هفوات، بينما توجد أخرى عبارة عن جرائم متعمدة . ولكي تصحح هذه الأخيرة يجب ألا يقف الأمر عند حد التوبيخ فقط بل يمتد إلى العقاب الحاد الأشد . يشرح الرسول بولس هذا عندما يوبخ ذلك الكورنثي المتهم بالزنى مع امرأة أبيه ، ثم يعاقبه بقطعه من شركة الجماعة (١كو ٥ : ١ – ٥) .

لعلنا الآن بدأنا ندرك ان الحكم الروحي للكنيسة ، التي تدين الخطايا بمقتضى كلمة الله ، هو أقوى دعامة للعقيدة السليمة ، وأفضل قاعدة للنظام وأحسن رباط للوحدة . إن الكنيسة عندما تطرد من شركتها الفاسقين وغير الأمناء وغير الطائعين ، فهي تطيع بذلك وصية الرب . وإن كان أحد يحتقر حكم الكنيسة فإن الرب يعلن بوضوح أن مثل هذا الإنسان يدين نفسه وأن السماء سوف تصدق على هذه الإدانة . فالكنيسة تتصرف بسلطان الرب عندما تدين الخاطئ العنيد ، وتقبل

التائب (متى ١٦ : ١٩ ؛ ١٨ : ١٨ ؛ يو ٢٠ : ٢٣) والذين يقولون بأن الكنيسة يمكنها أن تدير أمورها بدون نظام تأديبي ، هم مخطئون . فالرب نفسه قد أوضح أهمية التأديب وضرورته .

(هـ) هناك ثلاثة أسباب وجيهة ، تجعل من واجب الكنيسة أن تصحح أخطاء البعض ، وتطرد البعض الآخر من الشركة : السبب الأول ، هو لكي لا يهان الله بسبب الاسم " مسيحي " الذي يستخدمه الذين يسلكون في حياة فاسدة ، وكأن الكنيسة المقدسة قد صارت تعبيراً عن مؤامرة الأشرار . إن الكنيسة جسد المسيح (كو ١ : ٢٤) لا يمكن أن تشوه أو تدنس دون أن يلحق العار بالمسيح رأسها . ولكي لا يوجد في الكنيسة شيء يجلب العار على اسمه القدوس ، ينبغي طرد العضو المخطئ . وهذا يصدق أيضاً فيما يتعلق بعشاء الرب الذي يمكن أن تلحق به الإساءة إذا اشترك فيه إنسان ما بطريقة خاطئة . وإذا سمح به قائد الخدمة لإنسان غير مستحق وهو على علم بهذا يكون مجرماً بتدنيس المقدسات . لقد وجه يوحنا ذهبي الفم هجوماً حاداً للكهنة الذين خوفاً من الشخصيات العظيمة ، لم يجرؤوا على رد أحد عن عشاء الرب .

فإذا كان ينبغي ألا يتعرض هذا الفرض المقدس للازدراء ، فإن الأمر يتطلب أن نميز في توزيعه ، بناء على سلطان الكنيسة .

والهدف الثاني للتأديب هو أن لا يتأثر المؤمنون الأتقياء بالاتصال المستمر المنتظم للأشرار . إن لدينا ميلاً لأن نخطئ في أي إتجاه ، لذلك فإن النماذج السيئة يمكن أن تقودنا سريعاً إلى الضلال . ولقد أشار الرسول إلى هذا عندما أمر الكورنثيين بضرورة طرد الرجل المتهم بسفاح ذوي القربى من شركتهم قائلاً : " ألستم تعلمون أن خميرة صغيرة تخمر العجين كله ؟ " (١كو ٥ : ٦) ويضيف معلقاً : " إن كان أحد مدعو أخاً زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شتاماً أو سكيراً أو خاطفاً ، أن لا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا " (١كو ٥ : ١١) .

والهدف أو النتيجة الثالثة للتأديب هي أن يشعر الخاطئ بالخجل ويتوب عن شره . إن من مصلحتنا ولخيرنا أن تنال الخطية عقاباً . فقد نظل مندفعين نحو الشر طالما كنا متورطين فيه ، لكننا نشعر بالإدانة عندما نعاقب . ويؤكد الرسول على هذا عندما يقول : " وإن كان أحد لا يطيع كلامنا بالرسالة فسموا هذا ولا تخالطوه لكي يخجل " (٢تسا ٣ : ١٤) . وأيضاً حينما يقول إنه قد سلم ذاك الكورنثي " للشيطان .. لكي تخلص الروح في يوم الرب " (١كو ٥ : ٥) . لقد سلمه

لعقاب مؤقت لكي يخلص أبدياً . وحيث أن المسيح في داخل الكنيسة ، فقد سلم ذلك الرجل للشيطان خارج الكنيسة .

٥ ـ الفرائض

(أ) إلى جانب التبشير بالإنجيل ، توجد الفرائض كقوة عظيمة لإيماننا . يتطلب الأمر تعليماً واضحاً يفسر لنا لماذا أسست الفرائض ، وكيف يجب أن تمارس .

يجب أن نتأمل أولاً في ماهية الفريضة . إن أبسط تعريف للفريضة أنها علامة خارجية بها يؤكد لنا الرب داخلياً مواعيده المباركة ، الأمر الذي يقوي إيماننا ويمكننا من أن نجعل دعوتنا ثابتة أمام الرب والناس. وبإيجاز أكثر نقول : إن الفريضة إعلان من الرب عن صنيعه ومعروفة من نحونا بعلامة خارجية : إننا فيه (في الرب) نعترف بإيماننا له . ويعرف القديس أوغسطينوس الفريضة بأنها علامة مرئية لشيء مقدس ، أو صورة منظورة لنعمة غير منظورة . ولما كانت هذه تعريفات مختصرة جداً ، فإننا سنتوسع في هذه التعريفات ، مفصلين إياها بعض الشيء .

(ب) يمكننا أن نرى من هذه التعريفات أنه لا وجود لفريضة ما دون وعد مسبق . فالفريضة ببساطة تعزز الوعد وتؤكده . يضع الله في اعتباره ما نحن عليه من بطء وضعف ، ويعمل على تقوية إيماننا بكلمته . فمع أن حق الله ثابت وراسخ ومؤكد ، إلا أن إيماننا واهن ضعيف ، مما يقتضي تدعيمه من جميع جوانبه لكي لا يهتز أو يسقط . إن إلهنا الكريم يتنازل بتفهم وعطف غير محدود إلى مستوانا ويقودنا إلى نفسه بوسائل أرضية .

(ج) يجادل البعض قائلين : إننا من حيث المبدأ ، إما أن نؤمن بمواعيد الله أو لا نؤمن بها ، وبالتالي فإن الفرائض لا تعلمنا شيئاً ، ويضيفون قائلين : إما أننا نعرف من قبل الدروس التي تعلنها الفريضة أو لا نعرف . وفي كلتا الحالتين علينا أن نتعلمها من كلمة الله . هذا الجدل مرفوض ومردود عليه فكما أن الأختام المثبتة على الدبلومات والمستندات ليست شيئاً في حد ذاتها ، ولا جدوى من هذه الأختام إذا لم يكن موضوع الشهادة أو المستند مكتوباً بداخله . فإن هذه الحقيقة مع ذلك لا تمنع المسئولين من ختم وتثبيت مضمون الكتابة . وقد استخدم بولس هذا التفسير عينه عندما دعا الختان ختماً (رومية ٤ : ١١) . ويؤكد أن ختان إبراهيم لم يكن من أجل التبرير ، بل كان علامة على العهد من خلال الإيمان ، الذي كان قد برر فيه من قبل .. إن الفرائض تجعل مواعيد الله تأتي إلينا مفعمة بالحيوية ، إذ تقدمها في هيئة مصورة مرئية .. ولا يتوقف المؤمن بالطبع ، أمام مجرد العلامة المنظورة ، بل يرتفع إلى الأسرار المهيبة السامية التي تكمن في الفرائض.

(د) يسمى الرب ، الوعد ، عهداً (تك ٦ : ١٨ ؛ ٩ : ٩ ؛ ١٧ : ٢) ، ويسمى فرائضه علامات للعهد .. فالفرائض تدريبات تثبت وتدعم إيماننا في كلمة الله . ينزل الله إلى مستوانا المادي بإعطائه فرائض مادية ليقودنا إلى الأمام . لذلك يقول أوغسطينوس : إن الفريضة " كلمة مرئية " لأنها تمثل مواعيد الله كما في صورة، وتضعها أمام أنظارنا . وهناك تشبيه تصويري آخر يتمثل في تسمية الفرائض بأعمدة الإيمان . نعم إن البناء يقوم على أساساته ، لكنه يكون أكثر توطداً ورسوخاً عندما يدعم بأعمدة . وبالمثل فإن الإيمان يستند على كلمة الله كأساس له، لكنه يقف بأكثر ثبات عندما تضاف الفرائض كما لو أنه مدعم بالأعمدة . يمكن أيضاً تسمية الفرائض بالمرايا التي يمكن أن تعكس لنا لمحة من غنى نعمة الله .

(هـ) ومن غير المنطقي أن يجادل البعض بأن الفرائض لا تعد علامات على نعمة الله نحونا بسبب أن غير المؤمنين يقبلونها أيضاً . فإلى جانب أنه لا يجوز قبول صنيع الله بهذه الوسيلة ، فإن غير المؤمنين يجلبون على أنفسهم دينونة أعظم. ولو طبقنا منطق هؤلاء البعض على حق الإنجيل فلا يكون الإنجيل علامة على نعمة الله من حيث أن كثيرين يرفضونه بازدراء . وبطريقة مماثلة لا يكون المسيح نفسه علامة للنعمة من حيث أن كثيرين ممن رأوه لم يؤمنوا به . إنه في استطاعتنا أن نكون على يقين كامل بأن الرب يقدم لنا رحمته ، وعربون نعمته ، في كل من كلمته والفرائض . لكن هذه الأمور لا يدركها إلا الذين يقبلونها بالإيمان. أشار أغسطينوس إلى ذلك عندما قال : " في الفريضة تبرز فعالية الكلمة، ليس لأنها قبلت لكن لأنها صدقت وأومن بها " .

(و) لا يمكن للفرائض أن تتم وظيفتها إلا عندما تكون مصحوبة بالروح القدس في الداخل . فقوته فقط هي التي يمكنها أن تنفذ إلى القلب وتثير العواطف ، فإذا لم يكن الروح القدس فاعلاً ، فلن يكون هناك فائدة للفرائض ، أكثر من فائدة أشعة الشمس لأعين العميان ، أو ذبذبات الصوت في آذان الصم . وفيما يتعلق بالتمييز بين عمل الروح القدس والفرائض نقول : إن الروح القدس هو القوة والفرائض هي الخدمة . إن خدمة الفرائض بدون عمل الروح القدس فارغة لا جدوى منها ، لكن عندما يمارس الروح القدس عمله وقوته في القلب ، عندئذ تكون خدمتها في تمام الفاعلية .

(ز) إننا لا نعطي الأشياء المخلوقة قوة لا داعي لها . لكننا نقول إن الله يستخدم الفرائض كوسائط مناسبة لإعلان مجده . فكما ان الله يغذي أجسادنا بالطعام ، ويضيء لنا بواسطة الشمس ، ويدفئنا بالنار ، وهي كما نعلم مجرد وسائل لتوصيل بركاته ، فإن الله بنفس الطريقة يغذينا روحياً بواسطة الفرائض . إن عملها الوحيد

هو أن تجعل مواعيد الله مرئية لنا ، أي أنها بمثابة عربون لتلك المواعيد . إننا لا نضع ثقتنا في الفرائض – عطايا الله – نفسها ، فهي علامة على بركة الله . ولا نعلق ثقتنا عليها ، بل نتجاوزها ليرتفع إيماننا إلى الواحد المعطي الذي هو منشيء الفرائض كما هو مبدع كل شيء آخر .

(ح) للفرائض نفس الوظيفة التي لكلمة الله . فهي تقدم لنا المسيح الذي فيه كل كنوز النعمة . وإذا لم تقبل الفرائض بالإيمان تكون بلا فائدة كالخمر والزيت عندما يسكبان ، فإنهما يضيعان هباءً ما لم يصبا في إناءٍ مفتوح . فإذا لم يكن الإناء مفتوحاً فسيظل فارغاً حتى لو سكب السائل عليه . لذلك لا ينبغي أن نوافق على ما يراه بعض قدامى الكتاب المسيحيين الذين يبالغون في تفخيم وتعظيم الفرائض إلى درجة عالية جداً . ذلك أنها لا يمكنها ان تمنحنا هبات الروح القدس، إنما تحمل فقط الشهادة لهذه الهبات . ولا يمكن للفرائض أن تفتح أذهاننا وقلوبنا بدون قوة الروح القدس . إنها تشبه برسلٍ للأخبار السارة . والروح القدس الذي أعطاه الله لشعبه الخاص هو الذي يحضر هبات الله معه ، ويعطي دوراً للفرائض ويجعلها ذات فائدة . إن الله ينجز ما قد وعد به في العلامات ، ويجعلها ذات فاعلية .

٦ ــ المعمودية

(أ) المعمودية علامة البداية التي بها يُسمح لنا بشركة مع الكنيسة . نحن نقبل كأولاد لله في المسيح . لقد أقام المسيح المعمودية ليشجع إيماننا فيه ، ولكي تكون وسيلة للإعتراف به أمام الآخرين . المعمودية علامة التطهير بأن خطايانا قد أزيلت تماماً وأن الله لا يعود يذكرها فيما بعد . إن إرادة الله أن جميع الذين آمنوا به يعتمدون لمغفرة الخطايا . والذين يرون أن المعمودية مجرد علامة للإقرار بالإيمان يفوتهم الهدف الرئيسي لها . إنها مرتبطة بالغفران : " من آمن واعتمد خلص " (مرقس ١٦ : ١٦) .

(ب) نفهم هذا أيضاً من أقوال بولس ، بأن " المسيح أحب الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة " (أف٥ : ٢٥ ، ٢٦) و " لا بأعمال في بر عملناها نحن ، بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس " (تيطس ٣ : ٥) . كما يقول بطرس : " الذي مثاله يخلصنا نحن الآن ، أي المعمودية " (١بط ٣ : ٢١) . وهو لا يقصد أن يشير إلى أن خلاصنا يكمل بالماء ، أو أن الماء يملك في ذاته خاصية الميلاد الثاني ، ولا يقصد أيضاً أن المعمودية هي سبب الخلاص . إن كل ما يقصد أن يشير إليه هو أن يقين الخلاص يقبل من خلال هذه الفريضة . والعبارات المستخدمة تؤيد هذا : يربط بولس بين كلمة الحياة ومعمودية الماء ، ويضيف بطرس أنها " ليست إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله " (١بط ٣ : ٢١) . إن التطهير الوحيد الذي تلتزم به المعمودية يأتي من خلال رش دم يسوع المسيح ، الذي صور كالماء للمقارنة مع الغسل . ولا يجرؤ أي إنسان أن يقول إنه يطهر بالماء ذاته ، بينما الماء ليس سوى شهادة لدم المسيح .

(ج) إن المعمودية لا تكفر عن الخطايا الماضية فقط . بل إننا عندما نزل بعد ذلك لسنا مطالبين بالتطلع إلى حل في فرائض أخرى . كان بعض الناس يؤخرون المعمودية إلى نهاية حياتهم ، ليتمكنوا من نوال الغفران عن كل خطايا الماضي ! يجب أن ندرك أننا عندما تعمدنا قد غسلنا وتطهرنا على مدى الحياة كلها . وفي كل مرة نخطئ علينا أن نتذكر أننا تعمدنا لمغفرة الخطايا . إن طهارة المسيح فعالة دائماً ، ولا يمكن إزالتها بسقوطنا . لا نزعم ــ بالطبع ، أن هذا ترخيص بخطية مستقبلية ، لكنه تعزية عظيمة لأولئك الذين يكونون تحت تبكيت عميق بالخطية ، لحفظهم من اليأس والفشل . لذلك يقول بولس : إن المسيح جعل كفارة لنا ــ بالإيمان بدمه ــ من أجل الصفح عن الخطايا السابقة (رومية ٣ : ٢٥) ، لكنه لا يقصد أن ينكر أن

غفران الخطايا موجود لنا في المسيح طوال الحياة . إن رحمة الله مقدمة إلى كل من يزعجهم الضمير ، فيتطلعون إلى " مصالح " . أما الذين يستخدمون رحمة الله كترخيص للاستمرار في الخطية فإنهم يثيرون غضب الله .

(د) يعتقد الكثيرون ان الغفران الذي نقبله عندما نولد ثانية بالمعمودية وحدها ، يكتسب بعد المعمودية بالتوبة وسلطان الكنيسة في الغفران . وينشأ هذا الخطأ لأن مثل هؤلاء لا يدركون أن المعمودية وسلطان الغفران متصلان ببعضهما اتصالاً متشابكاً . يقبل الخاطي الغفران بواسطة خدمة الكنيسة في التبشير بالإنجيل وعن هذا الطريق نتعلم أننا قد غسلنا من خطايانا بدم المسيح ، والمعمودية علامة على هذا ، فالغفران إذن متصل بالمعمودية . وينشأ الخطأ عند هؤلاء من الفريضة الكاذبة الخاصة بالتكفير عن الخطية كتعبير عن التوبة . فالناس يحبون الأمور الخارجية ، لذلك يضيفون لأنفسهم دعامات جديدة ، كما لو أن المعمودية ليست في ذاتها فريضة التكفير . إذا كانت التوبة مطلوبة خلال الحياة ، فقوة المعمودية يجب أن تبقى على مدى الحياة . والمؤمنون الحقيقيون عندما تزعجهم الخطية ، يمكنهم دائماً أن يتذكروا معموديتهم وبذلك يتأكدون من التطهير الأبدي في دم المسيح .

(هـ) وهناك فائدة أخرى للمعمودية ، هي أنها تظهر لنا موتنا في المسيح وحياتنا الجديدة فيه . يقول بولس : " أم تجهلون أن كل من اعتمد ليسوع اعتمدنا لموته . فدفنا معه بالمعمودية للموت حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب ، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة " (رو٦ : ٣،٤) . بهذه الكلمات يحثنا بولس على أن نتمثل بالمسيح ، مذكراً إيانا أنه في المعمودية نؤمر بأن نموت عن شهواتنا ، كما مات المسيح وقام لتقوم للبر . بل إن الرسول يذهب إلى درجة أبعد عندما يقول : إن المسيح - بالمعمودية – قد جعلنا شركاء موته ، موحداً إيانا فيه . وكما يكتسب الغصن الصغير عصارة الحياة من الجذر المتصل به ، كذلك الذين يقبلون المعمودية بإيمان حقيقي يعرفون بحق فاعلية موت المسيح في إماتة جسدهم ، وفاعلية قيامته في إحياء الروح . ويبني الرسول تعليمه على أساس أنه إن كنا حقاً مسيحيين ، فلابد أن نكون قد متنا عن الخطية ونحيا للبر . ويستخدم نفس البرهان عندما يقول : إننا به قد ختنا ، وخلعنا الإنسان القديم بعد أن دفنا مع المسيح بالمعمودية (كولوسي ٢ : ١١،١٢) . ويطلق على المعمودية " غسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس " (تيطس ٣ : ٥) . فقد وعدنا أولاً بالغفران المجاني لخطايانا وبحسبان البر لنا ، كما وعدنا ثانياً بنعمة الروح القدس التي تصوغنا من جديد إلى جدة الحياة .

(و) والفائدة الأخيرة التي يتلقاها إيماننا من المعمودية ، هي التأكيد على أننا قد اتحدنا بالمسيح نفسه ، وليس فقط بموته وحياته . فصرنا شركاء له في جميع بركاته . لقد كرس المعمودية وقدسها في جسده الخاص (متى ٣ : ١٣) ، ليكون له فيها أقوى رباط ممكن للإتحاد بنا والشركة معنا . بل إن الرسول يبرهن لنا أننا أولاد الله من حقيقة أننا في المعمودية قد لبسنا المسيح (غلاطية ٣ : ٢٧) من الأمور المفهومة أن يقول الكتاب عن الرسل إنهم عمدوا باسم المسيح ، برغم أنهم أمروا أن يعمدوا باسم الآب والروح القدس أيضاً (أع ٨ : ١٦ ، ١٩ : ٥ ، متى٢٨ : ١٩) ذلك أن جميع الهبات الإلهية المقدمة في المعمودية توجد في المسيح وحده ، لكن الخادم الذي يقوم بالعماد يمكنه أن يتوسل أيضاً باسم الآب والروح القدس . لقد تطهرنا بدم المسيح ، وذلك لأن أبانا الكريم في رحمته العظمى أراد أن يقبلنا ، لذلك جعل المسيح الوسيط يتمم مصالحتنا . كما أننا لا نحصل على الميلاد الجديد إلا بموته وقيامته ، وذلك عندما نتقدس بروحه القدوس ونصطبغ بطبيعة جديدة روحية . وهكذا نجد في الآب العلة أو السبب ، وفي الابن المادة (مادة تطهيرنا) ، وفي الروح القدس التأثير أو فاعلية تطهيرنا وميلادنا الثاني . لقد عمد يوحنا (المعمدان) ومن بعده جميع الرسل بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا (متى ٣ : ٦ ، ١١ ؛ لوقا ٣ : ١٦ ؛ يوحنا ٣ : ٢٣ ، ٤ : ١ ؛ أعمال ٢: ٢٨ ، ٤١) . ومن لفظ توبة نفهم التجديد ، ومن عبارة مغفرة الخطايا نفهم التطهير.

(ز) أما وقد أصبح واضحاً ما قصده الرب بالمعمودية ، يمكننا أن نرى بسهولة كيف ينبغي استخدامها وقبولها . أعطانا الرب إياها لكي ترفع وتغذي وتقوي إيماننا ، لذلك علينا أن نتسلمها من يد مبدعها باقتناع أنه هو نفسه الذي يتحدث إلينا في العلامة . هو الذي يغسلنا ويطهرنا ماحياً كل ذكرى لأخطائنا . هو الذي يجعلنا شركاء موته ، يحطم مملكة الشيطان ويخضع رغائبنا الجامحة ، ويقهر شهواتنا ، ويجعلنا واحداً مع نفسه . وذلك لكي نقدر – وقد لبسناه – أن ندعى أولاد الله . يجب أن نكون على اقتناع تام بهذه الأمور بنفس التأكيد الذي به نرى أجسادنا وقد اغتسلت بالماء أو غطست فيه .

ذلك هو المرشد الأمين والدليل الأكيد لفهم الفرائض . إننا نميز – في أشياء مادية ،أموراً روحية كأنها مرئية في الواقع . إذ أن الرب يصورها ويعلنها لنا بواسطة العلامات . لكن الله أيضاً لا يدعنا نلاحظ مجرد مشهد أو مظهر خارجي ، بل يقودنا نحو الغرض الفعلي ، وينفذ بفاعلية مؤثرة ما قد صوره .

٧ – معمودية الأطفال
(انسجامها مع تعليم المسيح ومع طبيعة المعمودية)

(أ) إذن الفهم الصحيح للعلامات لا يكمن في الممارسة الظاهرية ، بل يعتمد على الوعد الذي تمثله العلامة . فإذا أردنا أن ندرك تماماً تأثير المعمودية وهدفها وطبيعتها الحقيقية ، ينبغي أن لا نتوقف عند الفعل الخارجي ، بل نتطلع إلى ما هو أبعد ، إلى الوعد الإلهي المقدم فيها ، ونرتفع إلى الأسرار الممثلة لها . إذا فهمنا هذا نكون قد وصلنا إلى الحق الوطيد والمعنى الحقيقي للمعمودية ، وبالتالي يمكننا أن نفهم طبيعة وغرض الرش الخارجي .

يوضح الكتاب المقدس ، أول كل شيء أن المعمودية تشير إلى التطهير من الخطية الذي نحصل عليه بدم المسيح . وتشير ثانياً إلى موت الجسد ، ويتوقف هذا على الشركة في موته التي بها نولد ثانية لجدة الحياة وللشركة معه أيضاً . ثم إن المعمودية كذلك علامة بها نشهد للناس عن إيماننا .

(ب) قبل إقامة المعمودية ، كان الختان لدى شعب الله ، في مكانها . وكلا العلامتين متماثلتين . لكن بينهما أيضاً اختلافات . عندما أمر الرب إبراهيم بحفظ الختان (تك ١٧ : ١٠) وعده بأن يكون إلهاً له ولنسله . وأوضح له الرب أيضاً أن في ذاته (الرب نفسه) ما هو ضروري للحياة ، وأن إبراهيم يمكنه الاعتماد عليه كينبوع لكل بركة . وتتضمن هذه الكلمات (التي فاه بها الرب لإبراهيم) الوعد بالحياة الأبدية . ويشير مخلصنا إلى الخلود وإلى قيامة المؤمنين عندما يقول: إن الله ليس إله أموات بل إله أحياء (متى ٢٢ : ٣٢ ؛ ٢٠ : ٢٨) . وعندما تحدث بولس إلى الأفسسيين عن الهلاك الرهيب ؛ الذي أنقذهم الرب منه ، من حيث إنهم لم يكونوا خاضعين لعهد الختان ، فإنه قصد بذلك أنهم كانوا غرباء عن عهود الموعد بلا إله وبلا رجاء (أف ٢ : ١٢) . إن الوسيلة الأولى للاقتراب إلى الله والدخول إلى الحياة الأبدية ، هي غفران الخطايا . وهذا يتطابق مع الوعد بالتطهير في المعمودية . لقد تعاهد الله مع إبراهيم على أن يسير أمامه بإخلاص ونقاوة قلب . وهذا يشير إلى عملية الإماتة أو الميلاد الجديد . ويشرح موسى هذا بأكثر وضوح عندما يحث شعب إسرائيل أن يختتنوا غرلة قلوبهم لأن الرب قد اختارهم له شعباً خاصاً من بين جميع أمم الأرض (تثنية ١٠ : ١٥ ، ١٦) . لقد أعطى الآباء وعداً روحياً مماثلاً للوعد الذي أعطى لنا في المعمودية ، فهي تشير إلى مغفرة الخطايا وإماتة الجسد والمسيح هو المصدر لكلا الاثنين ، لذلك يجب أن يكون هو أيضاً أساس الختان . فكان المسيح موضوع

الوعد لإبراهيم : وفيه أي في المسيح ، تتبارك جميع أمم الأرض ، وأضيفت علامة الختان لختم هذه النعمة.

(ج) ليس هناك مشكلة في أن نرى كيف تتفق العلامتان وكيف تختلفان . فالوعد الذي تكمن فيه قوة العلامة – كما سبق أن أوضحنا – هو وعد واحد في الاثنتين ؛ وعد المحبة الإلهية ، ومغفرة الخطايا والحياة الأبدية . والأمر الذي تصوره كل من العلامتين واحد أيضاً وهو الميلاد الجديد ، والأساس الذي يستند عليه إتمام هذه الأمور هو نفس الأساس . من ثم فليس هناك اختلاف في المعنى الداخلي الذي به تقيم قوة الفريضة وطبيعتها الخاصة . والاختلاف الوحيد هو في المراسم الخارجية، التي هي أقل الأمور أهمية ، لأن العبرة بالأمور الجوهرية . لذلك يمكن أن نستنتج أن كل شيء له صلة بالختان ينطبق كذلك على المعمودية ، ماعدا ، بالطبع ، المراسم الخارجية . يشير الرسول في رسالة رومية إلى أن قياس الإيمان هو المحك لكل تفسير للكتاب المقدس (رو ١٢ : ٣،٦) . وفي هذا الشاهد نرى الحق واضحاً وبطريقة مؤكدة . لقد كان الختان بالنسبة لليهود نوعاً من العلامة التي تؤكد لهم أمر اختيارهم كشعب الله وأهل بيته ، وأولوية دخولهم إلى الكنيسة . وهم بدورهم اعترفوا بولائهم لله . وقد أدخلنا نحن أيضاً بنفس الطريقة بالمعمودية لنحسب ضمن شعبه مؤكدين الولاء لاسمه . من ثم فلا جدال في أن المعمودية حلت محل الختان ، وتؤدي نفس الغرض .

(د) إن كان علينا أن نوضح هل تمارس المعمودية مع الأطفال أم لا ، فإنه من الضروري أن نشير إلى أنه من الغباء أن نحصر أنفسنا في عنصر الماء والطقس الخارجي ، ولا نسمح لأذهاننا أن ترتفع إلى السر الروحي . يقول العقل إن من الصواب منح المعمودية للأطفال . لأن الله عندما أعطى الختان منذ أمد بعيد جعل الأطفال شركاء في كل شيء يمثله الختان . ولو أنه كان قد أعاد التأكيد لشعبه بعلامات شكلية لكان كمن يخدعهم بالزيف والدجل . إن الفكرة في ذاتها مثيرة للاشمئزاز ، لكنه يعلن بوضوح أن ختان الأطفال هو ختم لوعد العهد . فإذا كان للعهد أن يبقى ثابتاً ، فإنه ينطبق تماماً على أطفال المسيحيين اليوم ، كما كان الحال لأطفال اليهود في ظل العهد القديم . فإن كان الأطفال شركاء في التحول الجوهري الذي له مغزاه ، فكيف يمكن أن ننكر عليهم العلامة ؟ .. إن العلامة الخارجية في الفريضة وثيقة الصلة بكلمة الله بحيث لا يمكن فصلها . ولو أمكن ذلك فما الذي سيكون أكثر قيمة ؟ نحن بالتأكيد نعطي العلامة المكانة الأدنى من حيث إنها تابعة للحق . وينطبق حق المعمودية على الأطفال ، فلماذا إذن ننكر عليهم العلامة ؟ لقد صرح الرب بنفسه رسمياً للأطفال بالدخول في عهده ، فما هي حاجتنا إلى مزيد ؟

(هـ) والكتاب المقدس يعطينا فهماً أعمق عن الحق . من الواضح أن العهد الذي قطعه الله مرة مع إبراهيم ينطبق تماماً على المسيحيين الآن . ولا يمكن أن نتصور أن المسيح عندما جاء قد أنقص من نعمة الآب . حاشا للرب ! إن أطفال اليهود عندما جعلوا ورثة للعهد ، صاروا منفصلين عن الوثنيين ، ودعوا نسلاً مقدساً ، كذلك فإن أطفال المسيحيين (أو الأطفال الذين لهم أحد الوالدين فقط في الإيمان) يدعون مقدسين ، ويختلفون عن الأطفال غير المقدسين الذين لغير المؤمنين (١كو ٧ : ١٤) . وحيث إن الرب أمر بأن عهده مع إبراهيم يختم بعلامة خارجية على الأطفال (تك ١٧ : ١٢) فكيف يمكن أن نقول : إن المسيحيين ليس لهم أن يفعلوا نفس الشيء اليوم ؟ أو ليس من حقهم أن يختموا العهد في أطفالهم؟... بعبارة أخرى إذا حرمنا من الشهادة التي كان بها يتأكد اليهود من خلاص أطفالهم ، فستكون النتيجة أنه بسبب مجيء المسح صارت نعمة الله – الممنوحة سابقاً لليهود – اقل تأكيد . ولا يمكن أن نقول هذا دون توجيه إهانة بالغة إلى المسيح الذي فيه قد انسكبت محبة الآب بأكثر وضوح على الأرض . لاشك إن من حقنا أن نقول : إن الأمر لا يمكن أن يكون أكثر تقييداً أو أقل وضوحاً مما كان عليه تحت ظلال الناموس المظلمة .

(و) والآن ينبغي أن نرى الفوائد التي تنتج عن ممارسة معمودية الأطفال سواء بالنسبة للمؤمنين الذين يأتون بأطفالهم إلى الكنيسة لتعميدهم أو بالنسبة للأطفال أنفسهم . علينا ألا نقلل من أهمية الفريضة . يوبخ الرب الذين يرفضون كل شيء لا يمكنهم إدراكه بالفهم الطبيعي . إن العلاقة المقدسة التي تعطي للطفل في المعمودية تثبت الوعد المعطي للوالدين الأتقياء ، وتعلن أن الرب ليس فقط إلههم ، بل إله أطفالهم أيضاً . وكل هذا يمجد الرب ، ويزيد محبة المؤمنين نحو الله ، عندما يدركون أن حبه ليس لهم فقط بل لنسلهم أيضاً . لا يمكن أن تقنعنا الحجة التي يتذرع بها البعض من أو وعد الخلاص يجب أن يكون كافياً في ذاته . إن الله بكل وضوح له فكر مختلف . فهو يعرف ضعفنا ، ولذلك يوجه نظر الذين يطالبون بوعد الرحمة لأطفالهم أن عليهم أن يقدموهم إلى الكنيسة حيث يمكن ختمهم بختم الرحمة . ومن ثم تزداد ثقة الوالدين ، إذ يرون بأعينهم عهد الرب يمنح مادياً لأطفالهم . ويستمد الأطفال أنفسهم فائدة من عمادهم عندما يقبلون في الكنيسة مما يضفي عليهم اهتماماً أعظم من قبل الأعضاء الآخرين . وعندما يكبرون يمكن حثهم على خدمة الله الذي رحب بهم من قبل بالعلامة الرمزية للتبني. ونرى لزاماً علينا أن نلفت النظر إلى خطورة دينونة الله لأولئك الذين يحتقرون رمز العهد (تك ١٧ : ١٤) فهو رفض لنعمة مقدمة من الله .

٨ ـــ عشاء الرب

(أ) بعد أن قبلنا الله في عائلته ، لم يعد ينظر إلينا كعبيد بل كأبناء . فهو يشبه نفسه بأب حنان يهتم بنا ، يعولنا ويمدنا بكل ما هو لخيرنا على مدى الحياة . ولا يكتفي بهذا بل يمنحنا عربوناً يضمن لنا جوده وإحسانه الذي لا يتوقف ، ذلك أنه أعطى الكنيسة من خلال الابن الوحيد فريضة أخرى ، وليمة روحية . في هذه الفريضة يعلن المسيح عن نفسه أنه الخبز الحي الذي به تتغذى نفوسنا لقبول الحياة الأبدية .

وبسبب أهمية هذا الفرض المقدس ، حاول الشيطان أن يحرم الكنيسة من فريضة ثمينة . لذلك نشر عليها الضباب والظلام منذ أمد طويل ليحجب نورها . كما أثار النزاع والجدل حولها ، ليصرف البسطاء عن شوقهم إلى الغذاء المقدس . وهو يحاول تنفيذ نفس المخطط في أيامنا هذه .

والعلامات تتمثل هنا بالطبع في الخبز والخمر . وهما يمثلان الغذاء غير المرئي الذي نقبله من جسد المسيح ودمه . إن الله بإعطائنا ميلاداً جديداً في المعمودية يدخلنا في شركة كنيسته ، ويجعلنا ملكاً له بالتبني . ويستمر في العمل كأب يعتني بنا ويمدنا بالغذاء الذي يحفظنا أحياء روحياً . فالمسيح هو الغذاء الوحيد لأنفسنا . ولذلك فإن أبانا السماوي يدعونا للالتقاء به ، لأننا عندما ننتعش بالشركة نكتسب بانتظام قوة جديدة إلى أن نصل إلى الخلود في السماء . هذا السر الخاص بالإتحاد غير المنظور للمسيح مع المؤمنين لا يمكن إدراكه بطريقة طبيعية. لذلك فإن الله يعلنه بوضوح في علاقات مرئية . نحن ندرك أن نفوسنا تطعم بالمسيح كما تتغذى الحياة الجسدية بالخبز والخمر تماماً . وبالتالي يمكننا أن ندرك الغرض من هذه البركة السرية . إنها تؤكد لنا أن جسد المسيح قد قدم مرة ذبيحة من اجلنا لكي نأكله الآن . وبواسطة الأكل نحس في داخل نفوسنا بكفاية هذه الذبيحة الوحيدة ، وندرك أيضاً أن دمه قد سكب مرة لأجلنا ليكون شرابنا الدائم . ذلك هو الهدف من وعد المسيح ، عندما قال : " هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم .. " (متى ٢٦ : ٢٦ ؛ مرقس ١٤ : ٢٢ ؛ لوقا ٢٢ : ١٩ ؛ ١كو ١١ : ٤٢) . لقد أمرنا الرب أن نأخذ ونأكل الجسد ، المقدم مرة من أجل خلاصنا . ولأننا نرى أننا قد صرنا شركاء هذا الجسد ، فإنه يمكننا أن نستنتج باطمئنان أن القوة التي لموته ستكون فعالة ومؤثرة فينا . إن العهد الذي كرسه مرة بدمه ، يتجدد ويستمر كتثبيت لإيماننا في كل مرة يقدم لنا دمه كشراب .

(ب) يستمد المؤمنون الأتقياء توكيداً عظيماً ، وفرحاً غامراً من هذه الفريضة ، كبرهان على أنهم جزء من جسد المسيح ، وبذا يكون كل شيء فيه ملكاً لهم .

وبالتالي يمكن أن نطمئن أنفسنا بثقة أن فيه لنا الحياة الأبدية ، باعتبار أنه هو نفسه الوارث لها . وأن ملكوت السماوات – الذي دخله سابقاً من أجلنا – هو لنا . هذا الملكوت لا يمكن أن ينتزع منا لأنه لن ينتزع منه . ولا ننال دينونة عن الخطية لأن الرب رفعها عنا وحررنا من جرمها ، واضعاً إياها على نفسه . هذا هو الصنيع المبارك الذي عمله الرب معنا في جوده العجيب . وإذ أصبح مثلنا – ابن إنسان – جعلنا مثله ، أبناء الله . وبنزوله على الأرض أتاح لنا الصعود إلى السماء . لقد أخذ موتنا وأعطانا عدم موته ، واتخذ صورة ضعفنا ليجعلنا – بقوته– أقوياء . خضع لفقرنا لكي يعطينا غناه ، رفع عنا ثقل آثامنا وعدم برنا الذي أثقل كاهلنا ، وألبسنا رداء بره .

(ج) إن فريضة العشاء الرباني تحمل شهادة لكل هذه الأمور . وتعطينا إمكانية الفهم بأن هذه الأمور تعلن لنا بنفس التأكيد العظيم الذي يحدث لو أن المسيح كان حاضراً معنا بالجسد نراه ونلمسه . هنالك كلمات لا كذب فيها ولا خداع : خذوا ، كلوا ، اشربوا ، هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم ، هذا هو دمي الذي يسفك لمغفرة الخطايا ، في أمره " خذوا " يوضح بجلاء أنه لنا ، وفي طلبه منا " كلوا " يوضح أنه يصير جزءاً منا . وفي قوله إن جسده يبذل ودمه يسفك يرينا أنه ضحى بهما لا لمنفعته الخاصة بل من أجل خلاصنا . لذلك فهما يمثلان بالخبز والخمر ، إشارة إلى أن المقصود بهما هو تغذية وإنعاش حياتنا الروحية . فكما أن الخبز يسند ويغذي أجسادنا ، هكذا فإن جسد المسيح هو الغذاء الوحيد الذي يحفظ أنفسنا حية . وعندما نرى الخمر تقدم كرمز للدم يجب أن نقارن فائدتها للجسد بما يمنحه دم المسيح روحياً ، فهو ينعش ويقوي ويبهج . من ثم فإن الخبز المكسور والخمر المتدفق يصوران بدقة ما يصل لنا بواسطة جسد المسيح ودمه .

(د) إن الغرض الرئيسي من الفريضة هو ختم وتثبيت وعده ، الذي فيه يشهد أن جسده مأكل لنا ودمه مشرب لنا ، مغذياً إيانا إلى حياة أبدية . وحيث أنه خبز الحياة ، وكل من يأكل منه يحيا إلى الأبد ، لذلك فإن الفريضة تأخذنا إلى صليب المسيح ، حيث تم تنفيذ هذا الوعد تنفيذاً كاملاً . لا يمكننا أن نأكل المسيح بطريقة صحيحة ، إن كنا لا نرى قوة وفاعلية موته . عندما قال السيد عن نفسه إنه خبز الحياة ، قصد أن يشير بذلك إلى أنه يعطي لنا بصفته شريكاً لنا في بشريتنا المائتة ليجعلنا شركاءً له في خلوده . وعندما قدم نفسه ذبيحة كفارية لأجلنا أخذ لعنتنا على نفسه ، ليحمينا ويسترنا ببركته . بموته أبطل الموت ، وبقيامته رفع جسدنا القابل للفساد إلى المجد وعدم الفساد .

(هـ) والمحصلة النهائية هي أن جميع البركات التي ذكرناها ، ينبغي أن تصبح لنا حقاً وفعلاً . لقد تم إنجاز هذا من خلال الإنجيل ، وبتأكيد أكثر بواسطة عشاء الرب ، حيث يقدم لنا نفسه بكل بركاته ونحن نقبله بالإيمان . إن الفريضة بالطبع، لا تجعل المسيح يصبح خبز الحياة للمرة الأولى ، بل تذكرنا أنه يمكننا دائماً أن نتغذى عليه ، وتعطينا الشوق لكي نفعل هذا . وهي تؤكد لنا أن كل ما قاساه المسيح وتألم به كان لكي يحيينا ، وأن هذا الإحياء أبدي . لم يكن ممكناً أن يصبح المسيح لنا خبز الحياة ، مالم يكن قد ولد ، ومات ،وقام ، ومالم تكن قيامته أبدية . ويعبر المسيح عن هذه الحقيقة بكلماته الخاصة فيقول : " الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي ، الذي أبذله من اجل حياة العالم " (يو ٦ : ٥١) .

وثمة غلطتان يجب تجنبهما هنا : إن علينا من جهة أن نتجنب التقليل من أهمية العلامات بفصلها عن معناها ومغزاها ، وعلينا من جهة أخرى أن نتجنب المبالغة في تقدير قيمة هذه العلامات ، الأمر الذي يمكن أن يضفي ظلاماً على السر الحقيقي ويعتمه . يوجد بعض عدم الاتفاق حول الطريقة التي بها نشترك في المسيح . يقول البعض بأن أكل جسد المسيح وشرب دمه ليس شيئاً أكثر من الإيمان بالمسيح ، بينما المسيح نفسه يذهب في ذلك إلى درجة أبعد حيث يقول : إنه ونحن نأكل ونشرب من الخبز والخمر ، نشترك فيه حقيقة . ليس الأمر ببساطة مجرد المعرفة ، فليس منظر الخبز هو الذي يغذي بل الأكل منه . وبنفس الطريقة ينبغي للنفس أن تشترك في المسيح اشتراكاً فعلياً ، لكي يمكنها – بقوة المسيح – أن تنمو روحياً . وبينما يرى أولئك الذين أشرنا إليهم أن " الأكل " لا يعني أكثر من مجرد " الإيمان " ، نعتقد نحن أننا بالإيمان نأكل جسد المسيح ، وأن الأكل هو نتيجة أو ثمرة للإيمان . وهكذا نلاحظ أنهم يقولون : الأكل هو الإيمان ، بينما نقول إن الأكل نتيجة للإيمان . يبدو الاختلاف وكأنه طفيف من الناحية اللفظية ، لكنه اختلاف كبير فيما يتعلق بالحق . فرغم أن الرسول يعلم بأن المسيح يسكن في قلوبنا بالإيمان (أف ٣ : ١٧) إلا أنه لا يمكن اعتبار أن هذه السكنى هي الإيمان نفسه . وفي رأينا أن هذا التعليم يوضح التأثير العجيب للإيمان ، إذ أن المسيح يحيا في المؤمنين بفضل الإيمان . وبنفس الطريقة اختار المسيح أن يسمى نفسه " خبز الحياة " (يو ٦ : ٥١) ليس فقط لكي يعلمنا أن الخلاص مدخر في الإيمان بموته وقيامته ، لكن لكي تنتقل أيضاً حياته إلينا ، بفعل الشركة الحقيقية معه ، وتصبح لنا ، مثلما يعطي الخبز قوة الجسد .

(و) من ثم فإن ما ينبغي أن نقوله في الختام هو أن جسد المسيح ودمه يغذيان نفوسنا كما يغذي الخبز والخمر حياتنا الجسدية . لن يكون في العلامات أو الرموز أية قوة

أو فاعلية ما لم تجد نفوسنا غذاءها في المسيح . وهذا لا يحدث إلا لكونه قد صار واحداً معنا ، ينعشنا بالأكل من جسده والشرب من دمه . ورغم أنه يبدو شيئاً لا يصدق أن جسد المسيح الذي أزيل مادياً منذ أمد طويل يصبح غذاء لنا ، إلا أنه ينبغي أن نتذكر القوة الداخلية الهائلة للروح القدس ، وكيف أنه من الغباء أن تقاس هذه القوة الهائلة بجهودنا الضعيفة . فالذي لا يمكن أن تستوعبه أذهاننا ، يجب أن يحدثه الإيمان ، ذلك أن الروح القدس يوحد الأمور المنفصلة مهما تباعد المدى . إن المسيح بهذه الشركة المقدسة للجسد والدم ينقل حياته إلى داخلنا ، تماماً كما لو أنها تدخل إلى العظام والنخاع . إنه يختم حقه في العشاء ليس بعلامة عديمة الجدوى ، بل بإظهار قوة الروح القدس التي بها يحقق ما قد وعد به . ما يعبر عنه الخبز والخمر يمثل أو يصور ويقدم لكل مشترك ، ولا يقبله ويتناوله إلا مؤمنون حقيقيون يقبلونه بإيمان صادق وشكر قلبي . لذلك قال الرسول : " كأس البركة التي نباركها ، أليست هي شركة دم المسيح ؟ " (١كو ١٠ : ١٦) . وليس هناك سبب يدعو إلى القول بأن هذا التعبير رمزي ، معطين العلامة اسم الشيء الذي تعبر عنه . نحن نوافق بالطبع على أن الخبز علامة وليس هو الحقيقية ، لكننا بقولنا هذا نستنتج بحق ، من إظهار العلامة ، أن الشيء نفسه يظهر ، إن كنا لا نتهم الرب بالخداع فلا يمكن أن نقول إنه يقدم مجرد علامة لا جدوى منها . وإذا كان الرب ، بكسر الخبز ، يصور حقيقة شركة جسده ، فلا يكون هناك شك في أنه يمنح الحقيقة أيضاً . ينبغي أن نتذكر دائماً أن الحق المختص بالشيء المعنى أو المعبر عنه هو أيضاً حاضر . يضع الرب في أيدينا رمز جسده ليؤكد لنا بهذا الرمز أننا بالحقيقة نشترك فيه . وهذا يؤكد لنا بنفس الدرجة أن العلامة المنظورة تعطى كختم لهبة روحية أكيدة .

(ز) آمنت الكنيسة دائماً ، وهكذا نؤمن نحن ، بأن الفريضة المقدسة الخاصة بعشاء الرب تتكون من أمرين : العلامات المادية ، والحق الروحي . هنالك إذن الأمر المعني أو المقصود ، وهنالك الموضوع الذي يعتمد عليه ، وهناك التأثير أو الفاعلية التي لكليهما :

والأمر المعني أو المقصود يتكون من المواعيد المتضمنة في العلامة ، ونقصد بالموضوع المسيح بموته وقيامته .

أما الفاعلية فنقصد بها الفداء والتبرير والتقديس والحياة الأبدية وكل البركات والفوائد التي يمنحها المسيح لنا .

عندما نقول إن المسيح يقبل بالإيمان فنحن لا نعني أن قبوله يقتصر على العقل والتصور فحسب ، بل يمتد إلى الشركة معه . تقدمه المواعيد لنا ، لا لكي نتوقف عند مجرد النظر إليه أو معرفته ، بل لكي نتمتع أيضاً بشركة حقيقة معه ، ثم يلي هذه الشركة البركات الأخرى .. فعشاء الرب إذن يعلن لنا أولاً إمكانة أن نصير جسداً واحداً معه ، ويعلن ثانياً أن نختبر هذا عملياً ، من حيث إننا نشترك في جميع بركاته .

(ح) أما أولئك الذين يعتقدون أن جسد المسيح لا يكون حاضراً إلا إذا كان في الخبز ، فهم على درجة كبيرة من الخطأ . لأنهم لا يدخلون في حسابهم العمل السري للروح القدس الذي يعمل لكي يتحد المسيح نفسه بنا . إنهم يرون أن المسيح لا يبدو حاضراً ما لم ينزل إلينا ، رغم أننا يمكننا أن نأتي إلى محضره عندما يرفعنا إلى نفسه . فنحن نعتقد أن من الخطأ أن ننزله من السماء ، بينما هم يضعونه في الخبز . نحن نتحدث عن سر سماوي ، وليس ضرورياً أن ننزل -المسيح إلى الأرض لكي يتحد بنا .

(ط) لا نجد ما يمنع من التسليم بأن هذه الفريضة أسمى بكثير من أن تستوعبه عقولنا أو تعبر عنها كلماتنا . لكننا نستطيع أن نستند بأمان على الحق الإلهي ، ونتقبله دون جدال . يعلن الرب أن جسده ودمه غذاء وشراب لنفوسنا ، فنسلم أنفسنا له لكي نطعم بهذا الغذاء ونتنعش بهذا الشراب ، تحت علامة الخبز والخمر ولا نشك أنه سيحقق فينا فاعلية جسده ودم . إن الفريضة تعرض وتقدم في قوة عظيمة وتأثير فعال ، حتى إنها بالإضافة التي ما تعطيه لأذهاننا من تأكيد مطلق للحياة الأبدية ، فهي أيضاً تضمن خلود أجسادنا المحياة بواسطة جسده الخالد .

يُعلم البعض بأن جسد المسيح ينفذ إلى نفوسنا أو يتخللها ويمتزج بها ، لكن ذلك يتنافى مع تعليم الكتاب المقدس . يكفينا أن المسيح الوسيط الإلهي الحي يحي أنفسنا ويرسخ فينا بره وقداسته هذا هو قياس الإيمان الذي يوصينا به بولس لامتحان كل تفسير للكتاب المقدس (رومية ١٢ : ٣) . كل ما يتعارض مع هذا الحق الجلي ، ليس من الإيمان

محتويات الكتاب

٣ – إرادة الإنسان مستعبدة للخطية ولا يمكن
تحريرها إلا بنعمة وحدها
٤ – كيف يعمل الله في قلوب البشر
٥ – الرد على الحجج التي تقول بأن للإنسان إرادة حرة
(أ) يقولون إنه إذا كان الإنسان حتماً يخطئ ،
فلا تكون مثل هذه الخطية ، خطية حقيقية ، ف
هي لا تعد خطية حقيقية إلا إذا كان للإنسان إرادة
حرة لتجنب الخطية
(ب) يقولون إنه مادام الإنسان غير قادر على
الإختيار بين الخير والشر ، فلا يكون من العدل عقابه أو مكافأته
(ج) يقولون إن الإنسان يجب أن يكون لديه القدرة
على أن يطيع وإلا لما أمكننا نصحه أو تحذيره
(د) يقولون انه إما أن الله يسخر منا عندما يطلب
منا القداسة وينهانا عن الخطية ، وإما أن يمنحنا
القدرة على تنفيذ ما يطلبه
(و) يتذرعون بآيات كتابية تبدو وكأنها تشير إلى
أن الإنسان يملك إرادة حرة
(ز) يعترضون على نسبة الأعمال الصالحة للمؤمنين ،
إن كان الله هو الذي يعمل فيهم ليفعلوا الصلاح
٦ – ينبغي على الإنسان الفاسد أن يسعى لنوال الخلاص
في المسيح
٧ – هدف الشريعة (الناموس)
٨ – الناموس الأدبي (الشريعة الأدبية)
* القسم الأول من الشريعة الأدبية
الوصية الأولى
الوصية الثانية
الوصية الثالثة

سلسلة التراث الإنجيلي

سلسلة التراث الإنجيلي هي : مجموعة من المنشورات الروحية المستنبطة من روح الإصلاح الإنجيلي ، في هذه السلسلة تقدم الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط ترجمات موجزة ومبسطة لبعض مؤلفات التراث الإنجيلي التي لابد وأن تأتي بالبركة لجماعة الإيمان .

المؤلف الأصلي لهذا الكتاب كان المصلح الفرنسي المعروف جان (يوحنا) كالفن الذي ولد في فرنسا ١٥٠٩ وتوفى سنة ١٥٦٤ . كتابه الأصلي كان معروفا بالعنوان " مبادئ الديانة المسيحية " وكان يعتبر أول مؤلف للاهوت النظامي والكتابي الشامل لكافة جوانب التعاليم المسيحية . وأصبح ذلك الكتاب الأساس الذي عليه بنيت الكثير من المؤلفات اللاهوتية التي أتت بعده ، كما أنه شكل الدليل الذي وجه نشأة وانتشار الكنائس الإنجيلية المشيخية والمصلحة في أنحاء كثيرة من العالم .